ميخائيل نعيمه

سبعون...

المرحلة الثانية



نوفل

سبعون ...
٢

ميخائيل نعيمه

سبعون...

حكاية عمر

١٨٨٩ - ١٩٥٩

المرحلة الثانية

١٩١١ - ١٩٣٢



جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة السابعة
١٩٩١



نوفل
بناية نوفل ـ شارع المعماري
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ ـ ٣٥٤٣٩٤ ـ تلكس ٢٢٢١٠ نوستن
ص.ب ١١/٢١٦١ ـ بيروت ـ لبنان

في العالم الجديد

والا والا

Walla Walla

بسكنتا — بيروت — الاسكندرية — نابولي — مرسيليا — باريس — شربورغ — نيويورك — والا والا ! رحلة في البرّ والبحر استغرقت من الأيّام والليالي فوق الثلاثين ، وتناولت من الكرة الأرضية نحو نصفها . وهي مسافة تقطعها الطائرة العادية اليوم في ثلاثة أيام ، والنفاثة في ثلاثين ساعة ، والصاروخ في ثلاثين دقيقة أو أقلّ . ما كان أكبرك أيتها الأرض ! وما أصغرك اليوم ! وغداً ستصبحين أصغر منك اليوم . ثم يأتي يوم نذكرك فيه كما نذكر السرير الذي احتوانا عهد الطفولة .

رحمات الله عليك أيها الجبار الذي ركب البحر في أول قارب من الخشب. وعليك يا مَن ذلّل الحمار والحصان والبعير . وعليك يا خريستوفورس كولمبس وقد سخرتك الأقدار لاكتشاف عالم جديد في حين ما كنت تبغي أكثر من اكتشاف طريق جديد إلى عالم قديم . لقد بات عتيقاً ذلك العالم الذي اكتشفته ونحن ما نزال ندعوه جديداً . فأربعة قرون ويزيد لكفيلة بأن تجعل كلّ جديد عتيقاً. ولو كان لك أن تعيش معنا اليوم لأذهلتك السرعة التي بها تتبدّل الأشياء والأوضاع بين عام وعام ، بل بين ليلة وضحاها .

فها نحن منذ نصف قرن لا أكثر — في الخامس والعشرين من تموز بالضبط ، عام ١٩٠٩ — هلّلنا وكبّرنا كثيراً لرجل فرنسي يدعى لويس بليريو لأنّه استطاع أن يقطع مضيق المانش بين فرنسا وإنكلترا بآلة ذات جناحين ، وأن

يجتاز اثنين وثلاثين ميلاً في سبع وثلاثين دقيقة ! وبالأمس هلّلنا وكبّرنا أكثر فأكثر لكواكب انطلقت من أرضنا إلى الفضاء الأوسع بسرعة تفوق سرعة الصوت ، وهي تدور اليوم حول الأرض وحول الشمس . وهي من صنع أدمغتنا وأيدينا . وغداً نضحك من هذه الكواكب كما نضحك اليوم من طائرة بليريو .

لقد كان أخي يتوقّع أن تخطف الدهشة أنفاسي عندما أبصرت نيويورك من البحر وما فيها من ناطحات سحاب باتت اليوم ناطحات ضباب بالنسبة لما قام بعدها من بنايات شاهقات ، وعندما دخلنا المدينة وسرنا في شوارعها المكتظّة بالناس والحركة . ولم يكن أخي يدري أن الفترة القصيرة التي أمضيتها في روسيا كانت قد جعلت منّي شبه متوحّد في فكره وروحه . فقد تركت بولتافا — وهي دسكرة إذا قيست بنيويورك — وبي نقمة على المدنيّة التي انحرفت بالانسان عن سبيله السويّ وراحت تدفعه في شعاب تحفّ بها من كلّ جانب شتّى المطامع ، ولا يؤنسها شيء من الرحمة والعدل والمحبّة ، ومن اليقين بأنّها والسالكين فيها ليسوا للفناء .

لذلك فالشعور الذي استقبلت به نيويورك كان على عكس ما توقّعه أخي . لقد أحسست تلك المدينة ببناياتها الضخمة وبالحركة المحمومة فيها أثقالاً تضغط على صدري . ففوق الأرض ، في بعض الشوارع ، شبكات عالية من الحديد تسير عليها القطر فتحدث قعقعة تصكّ الآذان صكّاً . وعلى الأرض عربات وسيّارات وتراموايات ومشاة . وتحت الأرض أنفاق ينحدر إليها ويخرج منها في كلّ دقيقة آلاف البشر . إنّها « الصبواي » . عجيج وضجيج وازدحام . في النهار والليل . حتّى لتحسب أن الناس أدركهم الحشر . وتذكّرت صنّين والشخروب ، والسلام المخيّم فيهما ، والجمال المنثور في أحضانهما ، فآلمتني الذكرى . وآلمني أن أراني نقطة في مصحف لا تربطها أيّة صلة بأي

حرف من حروفه .

بلى . كان لي في نيويورك رفاق ثلاثة : نسيب عريضه ، وميخائيل اسكندر ، وعبد المسيح حدّاد . ولكنّني لا أعرف أين يسكنون وماذا يعملون . فلا وصول لي إليهم . ولعلّني لو سألت لاهتديت . فقد نزلنا الحي السوري في المدينة — وكان من أفقر الأحياء وأقذرها . هناك — في أسفل منهاتان ، وعلى مرمى حجر من « وول ستريت » — كان إخواننا المهاجرون يفتّشون عن الثروات التي حلموا بها في بلادهم . هناك كانت متاجرهم ومصانعهم ومطاعمهم ومقاهيهم وفنادقهم ومساكن الأغلبية منهم . وهناك كنت تسمع لهجات القرى اللبنانيّة مع لهجات بيروت والشام وحمص وحماه وحلب والقدس إلى جانب كركرة النارجيلة ، وطقطقة النرد ، ودويّ المدقّة في جرن « الكبّة » . لله ما أغربك يا نيويورك ! فأنت مجموعة هائلة من الأحياء ما بين سوري وصينيّ ويونانيّ وبولونيّ وروسيّ ويهوديّ وزنجيّ وإيطاليّ وإرلنديّ إلى آخر ما هنالك من أمم في الأرض . وليس ما يجمع بينها غير صوت الدولار ، وغير وجهه الكريم .

على قدر ما ضايقني اليومان اللذان صرفناهما في نيويورك أثلجت صدري الأيام الثلاثة التي أمضيناها بلياليها في القطار من نيويورك حتى والا والا . يا الله ! ما هذه البسطة من الأرض والسماء ! ما هذا المدى ! إنّه يكاد يكون بغير نهاية . مدى للعين . مدى للفكر والخيال . مدى للصدر . هنا تستطيع أن تتنفّس بملء رئتيك . سهول وجبال وصحارى . مدن ومزارع وقرى . غابات وبحيرات وأنهار . ها هو « المسّيسبي » — أكبر أنهار أميركا . وهو عندهم « أبونا المسيسبي » على حدّ ما هو نهر الفولغا « أمّنا الفولغا » عند الروس . نعمّا الأب . ونعمّا الأم . ونعمّا الخيرات التي يفيضان بها على الساكنين في حوضيهما . لكأنّني انتقلت من روسيا إلى روسيا من حيث امتداد

رقعة الأرض وخصبها وغناها بما على وجهها وفي جوفها . وما الفرق إلا في أن روسيا ، بما فيها سيبيريا ، أوسع رقعة من أميركا . ثمّ في أنّ الذين عمّروا روسيا هم الشعوب القاطنة من الأصل فيها . أمّا الولايات المتحدة فالّذين عمّروها خليط من كلّ شعوب الأرض . وقد عمّروها في خلال ثلاثة قرون ، ومن بعد أن أبادوا سكانها الأصليّين ولم يبقوا منهم إلاّ على شراذم لا شأن لها ولا خوف منها . فهي في سبيلها إلى الانقراض أو إلى الذوبان في غيرها من الأجناس .

بلغنا والا والا قبيل الميلاد . وما كان أحلاها ساعة عانقت فيها أخي الثاني — هيكل — من بعد فرقة طالت خمس سنوات . لقد كان أقصرنا قامة ، وأمتننا بنية ، وأطهرنا قلباً ، وأغنانا عاطفة ، وأفقرنا علماً . وكان قد اختار الحلاقة حرفة ، وأتقنها إلى حدّ أن تدرّج من دكّان يعمل فيه وحده إلى صالون يعمل فيه عشرة حلاّقين تحت مطلق تصرّفه وإمرته . ولكنّ ذلك لم يتمّ له في خلال خمس سنوات . وكان شديد التحمس لموطنه الجديد وحضارته . وأنا ما نسيت اصطداماً كان لي معه بعد وصولي بقليل عندما دار الحديث عن فقر بلادنا — بل فقر العالم كلّه — بالنسبة إلى غنى أميركا وعظمتها . فقد أدهشه ، وأحزنه كثيراً ، أن يسمعني أقول إن الفقر والغنى أمران نسبيّان . ففي استطاعة من يملك القليل أن يسعد بقليله أكثر مما يسعد مالك الكثير بكثيره . وقد يفرح بدويّ بحوار تلده ناقته ، أو بجدي تضعه عنزته على قدر ما يفرح صيرفي بصفقة تدرّ عليه ربح مليون من الدولارات . فالفرح ليس وقفاً على الأغنياء . والكدر ليس منحصراً في الفقراء . إنّهما في الفكر والقلب أوّلاً ، والحياة عادلة في توزيعها الفرح والترح على بنيها . وقد لا تكون المدنيّة إجمالاً — والأميركيّة بالأخصّ — غير إرهاق للإنسان وانحراف به عن طبيعته وطريقه القويم . لا . لم يرق أخي مثل هذا التفكير يأتيه به أخوه الأصغر منه .

وكاد يقنط من تقويم اعوجاجي ، ومن مستقبلي . ولكنها كانت صدمة عابرة .

أمّا أخي أديب فقد تمكّن — إلى حدّ — من أصول العربيّة قبل أن غادر وكره في بسكنتا . وهو — من بعد غربة ٥٩ عاماً — لا يزال يكتبها بخطّ جميل وبالقليل من الغلط . مثلما لا يزال يذكر البعض من أمثالها وأشعارها . ولعلّ ذلك هوّن عليه أن يتقن الانكليزيّة وأن يحترف التجارة . فقد كان له عندما بلغنا والا والا ، مخزن للمفروشات (الموبيليا) بشراكة رجل أميركي من أصل إنكليزي . وكان المخزن في نقطة ممتازة من الشارع الرئيسي في المدينة . ولكلّ مدينة ريفيّة في أميركا شارعها الرئيسي . ويدعونه Main Street . وهو الاسم الذي اختاره الكاتبَ « سينكلير لويس » لإحدى رواياته التي كانت الحجر الأساسي في شهرته .

تتبدّل الأحكام بتبدّل الأزمان . ذلك في الشرع . أما في عقيدة مهاجرينا فتبدّل الأماكن والأزمان كان يقضي بتبدّل الأسماء كذلك . وهكذا أصبح أخي أديب « دْجو » (Joe) وأخي هيكل « هنري » . وكم من مهاجر ترجم حتّى اسمه وكنيته ترجمة حرفية . فبات منصور حداد مثلاً « فكتور سميث » . و « لولو أسمر » « بيرل برون » . وما أسرع ما كان ينقلب « ملحم » إلى « وليم » و « دعيبس » إلى « دايفيد » . ولا تثريب في ذلك على مهاجرينا . فقد كانوا يخجلون بتبعيّتهم التركيّة ، وبأسمائهم العربيّة تكثر فيها الحاء والخاء والعين والغين والقاف . وكلّها أحرف لا مثيل لها في لغة أسياد البلاد ، وجلّهم من الانكلو — سكسون . وتفادياً لسخرية أولئك الأسياد كان المهاجرون يسعون بكلّ الوسائل إلى التقرّب منهم ، والاندماج فيهم ، باقتباس عاداتهم وطقوسهم ونهج معيشتهم . وكان أخواي أديب وهيكل قد قطعا شوطاً بعيداً في ذلك الاتجاه عندما انضممت إليهما في والا والا . فنمط حياتهما ، داخل البيت وخارجه ، نمط أميركي . وحديثهما ، في

الغالب ، باللغة الانكليزية .

تقع والا والا في الجانب الشرقي من ولاية واشنطن وفي قلب بقعة من الأرض غنيّة جدّاً بمحاصيلها الزراعيّة ما بين فاكهة وحبوب وخضار على أنواعها . أمّا سكانها في ذلك الزمان فما كانوا يتجاوزون العشرين ألفاً . وهم خليط من أقوام جاؤوا من حوض الأبيض المتوسط ، ومن شرقي أوروبا وشماليها . ولكنها ، على ضآلة حجمها ، كانت السوق الرئيسية لجميع المزارع حواليها . فإذا كانت المواسم في إقبال كانت تجارة المدينة في إقبال . وإذا أمحلت المواسم أمحلت التجارة .

هناك ، في سهول والا والا ، أبصرت لأول مرة في حياتي ماكينات تزرع القمح وماكينات تحصده وتذرّيه وتجمعه في أكياس . أمّا التبن فلا تحفل به على الإطلاق . فكان من الطبيعي أن يتبادر إلى ذهني في الحال محراث والدي ومعوله ومنجله في الشخروب ، وحرصه على أن لا يترك فسحة من التراب بين الصخور لا ينكتها بمعوله ويلقي فيها بذاره ، ثمّ حرصه أيام الحصاد على أن لا تفلت سنبلة من منجله ، أو من قبضته . ولكم رأيته يتصيّد السنابل من بين الأشواك بأصابعه فلا يأبه لأصابعه تدميها الأشواك ؛ أو ينحني ليلتقط سنبلة وقعت من يده . فالسنبلة هي الكنز الأثمن والأكبر . ومنها حياته وحياة عياله . فحرام وكفر أن يفرّط بها مهما يكن حجمها وأينما كان موقعها في الحقل .

سألت نفسي ، وأنا أرقب تلك الحصّادة العجيبة تفري السنابل ، ثمّ تلتهمها ، ثم تنفث تبنها وأحساكها في الهواء ، ثم تبصق حبّها في أكياس سمينة ، مختومة : ترى أيّهما أطيب وأجلب للعافية : حبّة تبذرها كفّ إنسان ، وتحصدها كفّ إنسان ، وتذرّيها كفّ إنسان ، ثم تغربلها وتطحنها وتعجنها وتخبزها كفّ إنسان ؟ أم حبّة تزرعها وتحصدها وتذرّيها وتغربلها وتطحنها وتعجنها وتخبزها ماكينة مفاصلها وأضلاعها من الحديد ، أما روحها

فالبنزين ؟ وإلى أين تمشي بنا الماكينة ؟

إنّنا في فجر ثورة عجيبة ، هائلة . فكأنّنا مللنا الحياة نحياها رتيبة على نبض الفصول مثلما تحياها النبتة والحشرة والبهيمة . لذلك رحنا نسرع ونسرع في نبضها . وليس مَن يدري أين تنتهي تلك السرعة بنا . لقد ضايقنا بطء أرجلنا . فلنسعف الرجل بالماكينة . وضايقنا بطء أيدينا . فلنسعف اليد بالماكينة . وضايقنا بطء أعيننا وآذاننا وأدمغتنا . فلنسعف العين والأذن والدماغ بالماكينة . ثم إن التّراب والنبات والحيوان لا تعطينا إلاّ بمقدار . فلنسعف التّراب والنبات والحيوان لتعطينا أضعاف أضعاف ما نأخذه منها اليوم .

زيادة في الحركة ، وزيادة في الانتاج ، وزيادة في الاستهلاك . كلّ ذلك بفضل الماكينة . أمّا أن الماكينة لم تزد مثقال ذرة في هنائنا ، ولم تنقص مثقال ذرة من شقائنا ، وأمّا أنها لم تحرّرنا من بطء أرجلنا وأيدينا وعيوننا وآذاننا إلاّ لتجعلنا عبيداً لها ؛ وأمّا أنها تركتنا وقلوبنا لا تزال ، كما كانت ، نهباً لشتى الأهواء والمطامع والمخاوف ، وأفكارنا ما برحت مراتع خصبة للشكّ والحذر والقلق فأمور لا يلقي إليها هذا العصر الميكانيكيّ أيّ بال .

وسألت نفسي : ترى لو كان لي أن أستبدل بالشخروب حقلاً من أوسع الحقول وأخصبها في جوار والا والا فهل كنت أفعل ؟ فكان جوابي : لا ثمّ لا ! فحسب الشخروب أنّه لا يزال ينبض بنبض الطبيعة الأبدي ، وأنّ أرضه وسماءه لم تشهدا يوماً عاصفة رمليّة كتلك الّتي شهدتها ذات صيف في والا والا ، إذ تحوّل الجوّ كلّه إلى خضمّ أغبر امّحت فيه السماء وكادت تمّحي معالم الأرض . فلذنا بالبيت ، وأقفلنا جميع الأبواب والنوافذ . وجلسنا صامتين وأبداننا تتفصّد بالعرق ، وأنفاسنا تتردّد في صدورنا ، وأفكارنا لا تحطّ على شيء إلاّ على غضب الطبيعة المحيق بنا من كلّ جانب . وسكن الغضب بعد ساعة أو ساعتين . وإذا الغبار في كلّ زاوية من زوايا البيت ، وعلى الأثاث ،

والأرض ، والجدران . وإذا به قد اخترق الثياب التي على أبداننا . واستقرّ على أيدينا ووجوهنا وأهدابنا ، ودخل مناخيرنا ، وأحسسناه حتى تحت أضراسنا . أمّا الأزهار والأعشاب والأشجار حول البيت فكانت في مناحة .

لا ، لا ! إني لأوثر القلّة مع صفاء الذهن والقلب على الوفرة مع اضطراب العقل والقلب معاً . وأن يكون لي هدف نبيل فأدبّ إليه دبيب النملة وأدركه لخير عندي من أن أطير بجناحي نسر من هدفٍ خسيسٍ إلى هدفٍ أخسّ .

لسان جديد

كلّ لسان بإنسان . هكذا قيل من زمان . وهو قول حق . فلسان جديد يتعلّمه الإنسان هو بمثابة مفتاح في يده لمقصورة من المقصورات الكثيرة التي يتألّف منها صرح الانسانيّة على الأرض . وهذه المقصورة قد تكون ملاصقة للتي يعيش فيها . ولكنها عنده سرّ من الأسرار لأنّه يجهل اللغة التي بها يتفاهم الساكنون فيها . فهو غريب عنهم ، وهم عنه غرباء . أمّا إذا تعلّم لغتهم فقد بات في إمكانه أن يدخل قلوبهم وأفكارهم . وما أكثر ما يجد في تلك القلوب والأفكار كنوزاً لقلبه وفكره . وإذا بعالمه يتّسع ويمتدّ . وإذا بثروته الروحيّة تتفاقم وتنمو .

هذا إذا أتقن استعمال المفتاح وأحسن الإفادة منه . فالمقصورة التي يلجها به — مهما يكن حجمها — قمينة بأن تخلق فيه الشعور بالقربى بينه وبين ساكنيها . فكيف بها إذا كانت مقصورة لا تغيب عنها الشمس ، كما كان — وما برح — العالم الناطق بالانكليزية ؟ إنّها لتجعله يشعر بأن الناس كلهم ، على اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأديانهم ، هم أبناء جلدته وعشيرته .

إذن كنت بالعربيّة إنساناً واحداً . فأصبحت بالروسيّة إنسانين . وسأغدو ثلاثة إذا أنا تمكّنت من الانكليزية . أما الفرنسيّة فكنت فيها حتى ذلك الوقت بعض إنسان . وإذن فلنقتحم معاقل الانكليزية يا ميخائيل !

وأقبلت على درس اللغة التي استعمرت نحو نصف الأرض ، ولا معين لي في البداية إلا قاموس إنكليزي — عربي من وضع يوحنا أبكاريوس ، وإلاّ كتاب صغير ألّفه مهاجر سوري لنجدة الراغبين من العرب في تعلّم اللغة

الانكيزية . وكنت . من حين إلى حين . أستعين بأخي أديب على قدر ما كانت تساعده معرفته المحدودة لأصول اللغة وقواعدها .

كانت لي جولات طريفة مع اللغة الانكليزيـة في أول عهدي بها . وسأذكر بعضها على سبيل المثال . منها أنّني وقعت على كلمة Once فعرفت من القاموس أنها تعني « مرّة » . وكنت قد تعلمت أن الجموع بالانكليزية تصاغ ، في الغالب ، بإضافة s في آخر المفرد . وشئت أن أظهر براعتي أمام أخي فألّفت عبارة فيها كلمات « مرة ، ومرتان ، وثلاث مرّات » وأوردتها بالانكليزية هكذا :

Once, two onces, three onces

فضحك أخي وقال : إنّما يقولون بالانكليزية :

Once, twice, thrice

ومن الأربعة فما فوق يغدو جمع « مرة » times

قلت : إنّها للغة لفظها أعوج ومنطقها أعوج .

ومنها أنّني كنت أسمع الناس عند التلاقي يتبادلون الأسئلة عن الصحّة وعن الأشغال وعن « الفوكس » فلا أفهم الكلمة الأخيرة . لذلك رحت أستشير القاموس بشأنها . ويا لدهشتي عندما وقعت على كلمة fox وفهمت أنها تعني « الثعلب » ! ألعلّ الأقوام في هذه البلاد يربّون الثعالب ويهتمّون بها إلى حدّ أن يستفسر بعضهم بعضاً عن حالها في كلّ يوم؟ ولكننا لا ثعالب عندنا . ولكم سمعت الناس يسألون أخي ، مثلما سمعته يسألهم ، عن « الفوكس » . لا . لا . يجب أن يكون للكلمة معنى آخر . ولعلها تُكتب بطريقة أخرى . فتّشت تحت مادة foks و focks فلم أجد لها معنى . فاستحوذ عليّ القنوط . وعندما عاد أخي في المساء سألته عنها فإذا بها folks والـ l فيها مهملة . وهي تعني « الأهل » أو « العيال » ، فقلت : إنها لغة تجري على هواها . فهي فوضى .

أمّا الورطة الأكبر والأدهى فقد أوقعني فيها أستاذ الفلسفة في الشهر الأول من السنة الأولى من حياتي الجامعية . وذلك عندما دخل القاعة والتفت إليّ . وكنت جالساً في الصف الأمامي ، ثم قال بمنتهى البرودة :

Will you steal me an eraser ?

والعبارة تعني : « هل لك أن تسرق لي ماحياً ؟ » وقد لفظها الرجل بصراحة تامّة . فكان من قلّة الأدب أن أطلب إليه إعادتها مرة ثانية . وماذا تنفعني إعادتها وأنا لن أفهم منها غير ما فهمته في المرة الأولى ؟ والذي فهمته من الأستاذ أنّه يدعوني لأن أسرق له موسى — أيّ موسى . فقد كنت أعرف أن كلمة razor تعني الموسى . أما كلمة eraser (الماحي) فلم تكن في جملة المفردات التي لها في ذاكرتي أي أثر . ولأن لفظ الكلمتين يتشابه فقد فهمت عبارة الأستاذ على النحو التالي :

Will you steal me any razor ?

أي : هل لك أن تسرق لي أيّ موسى ؟

نهضت من مكاني وأنا لا أدري لماذا نهضت ، وأين أذهب ، وماذا أفعل . وما حاجة أستاذ الفلسفة إلى الموسى ؟ ألعلّ في محاضرته ما يستوجب استعمال الموسى ؟ ومن أين أسرقها له ؟ لا . ذلك سخف منك يا ميخائيل . إنّه يطلب شيئاً آخر ليس موجوداً في هذه الغرفة . وإلا لما كلّفك أن « تسرقه » . ولكن، ما هو ذلك الشيء ؟

خرجت من القاعة بخطوات متردّدة وفي رأسي ضباب كثيف . إنّني لا أريد أن أظهر أمام أستاذي وأمام رفاقي في مظهر الأبله يتنطّح لدرس الفلسفة وهو لا يفهم عبارة بسيطة توجّه بها إليه أستاذه . في الممرّات خارج القاعة طلاّب يتزاحمون ويتسارعون إلى شتّى القاعات عن الجانبين . ما همهم وأستاذهم لم يكلّفهم « سرقة » شيء ؟ أما أنا فمطلوب إليّ أن أسرق شيئاً

لست أدري ما هو . يا للبليّة ! الدقائق تمضي ، وأنا مسمّر مكاني ، أفرك جبهتي فلا يجديني الفرك . لأدخل هذه القاعة المفتوحة عن يساري لعلّ الله يفتح عليّ . الطلاّب يملأون القاعة ، والأستاذ على المنصّة يوشك أن يبدأ محاضرته . عن يميني سبورة كبيرة في أسفلها ماحٍ . وبلمح الطرف أخطف الماحي وأخرج . وينقشع الضباب من رأسي بغتة . ألم يطلب إليّ أستاذي أن « أسرق » له شيئاً ؟ ولعلّ هذا الماحي هو ذلك الشيء . وإن هو لم يكنهُ فعذري أنّني هكذا فهمت ، وهكذا فعلت .

تقدمت من السبورة التي خلف الأستاذ ووضعت الماحي في أسفلها ، وجلست مكاني ، وأنا أتوقّع من أستاذي أن يتوجّه إليّ بكلمة لوم لأنّني جئته بغير ما طلب . ولكنه تناول الماحي ، ومحا به ما كان على السبورة خلفه ، وكتب عليها عنوان مسابقة تتناول جانباً من فلسفة « لوك » كان علينا أن نقدمها في خلال شهر . ثم مضى في محاضرته ، وأنا أكاد لا أصدق أن ما قمت به قد جاء ، في الواقع ، رمية من غير رام . فكأنّه نزل عليّ نزول الوحي .

حالما عدت بعد المحاضرة إلى غرفتي تناولت قاموسي وبقيت أفتش فيه حتى عثرت على مادة erase — محا — ومنها eraser — الماحي . فسرّني عني كثيراً ، وفرحت بأنّني كسبت ما كسبت بجهدي الخاصّ . فقد كان يشقّ عليّ أن أستعين بغيري في حلّ مشكلاتي . فما أكثر ما عذّبتني هذه الكلمة أو تلك العبارة فآثرت أن يطول عذابي وأن أتخلّص منه بنفسي على أن ألتجىء إلى الغير للخلاص منه . ولعله من المناسب هنا أن أذكر — دونما تبجّح — أن المسابقة التي كتبتها في فلسفة « لوك » أعجبت أستاذنا إلى حدّ أن ميّزها من كلّ ما تقدّم إليه من مسابقات بعلامة « A A » وأن تلا جانباً كبيراً منها على الطلاّب في الصفّ .

لم يرضني تقدمي البطيء في الانكليزية ألتقطها وحدي من قاموس وكتاب .

ولم تكن هنالك مدارس ليليّة لتعليمها . فعوّلت أن أدخل مدرسة ابتدائيّة بصفة سامع لا أكثر . وهناك بقيت نحو شهرين أجلس على مقعد مع صغار الصبيان والبنات ، فأصغي إلى مذاكراتهم في الصف ، وإلى شروح معلميهم ومعلماتهم ، وإلى لغطهم في فترات اللعب خارج الصف . لقد كان يهمّني ، بالإضافة إلى التقاط مفردات وتعابير جديدة ، أن تلتقط أذني اللفظ الصحيح ما بين إمالة ومدٍّ وقطع ، وتفخيم وترخيم . وعندما أنست من نفسي بعض القوّة انتقلت إلى مدرسة ثانويّة حيث اخترت بعض الموادّ التي تهمّني ورضيت أن أعامَل فيها معاملة « قانونيّة » — أي أن يسري عليّ ما يسري على باقي التلاميذ في إعداد الدروس والمذاكرة .

وكان من ذلك أنّني — ولم يمضِ على وجودي في البلاد أكثر من ثمانية شهور — حبّرت بنفسي ، وبلغتي الانكليزية الخاصة ، رسالة أطلب فيها الدخول إلى جامعة الولاية . فجاءني الجواب بالقبول . أليس أنّني جئت أميركا لكسب المعرفة لا لكسب الدولار ؟ وها هو صرح من صروح المعرفة يفتح لي أبوابه . فماذا عساني أدرس فيه ؟ الحقوق ! فالاعتبارات التي حملتني من قبل على اختيار الحقوق مهنة لا تزال قائمة . إنّني رجل يتعبّد للأدب وللقلم . ولكنني لا أستطيع كسب رزقي منهما . فالعربيّة لا تطعم خبزاً . والانكليزية — مَن يدري متى أتقنها إلى حدّ أن أطمئنّ إلى مقدرتي على التأليف فيها ؟ وفي عنقي مسؤوليّات تجاه والديّ ، وتجاه إخوتي الصغار . لذلك فالمحاماة تبدو أقرب السبل . وفي استطاعتي أن أجعل لنفسي شأناً كبيراً فيها . فالمحامون الحاملون شهادات جامعيّة في بلادي أقلّ من أصابع اليد الواحدة . وهكذا سأعود بعد أربع سنوات إلى لبنان وهناك أتبوّأ مركزاً مرموقاً — ما في ذلك شك !

في تلك الأثناء وردتني رسالة من أهلي وضمنها رسالة من فاريا ! ومن أين ؟ من دير أرثوذكسي في لبنان يبعد عن بسكنتا مسافة عشرة أميال كان قد

تسلّم إدارته وقتئذ رهبان روس . لقد لجّ الشوق بالمسكينة إلى رؤية حبيبها الذي ودّعها قبل عام وداعاً لا لقاء بعده . فحملها الشوق إلى بلد الحبيب البعيد . وهناك أرسلت تسأل عنه فجاءها الجواب أنّه بات في أميركا القصيّة . ولأنها كانت تجهل عنوانه في غربته فقد وجّهت رسالتها إلى بلدته عسى أن يوجّهها أهله إليه . وردّتني الرسالة إلى الوراء — إلى بولتافا وغيرا سيموفكا . وكانت همومي الجديدة قد أخذت تسدل عليهما ستاراً . فمزّقت تلك الرسالة الستار . وعصرت قلبي عصراً على روح تفانت في حبّي فقامت بينها وبيني سدود لم تكن من صنعها أو من صنعي . واليد التي أقامتها كانت أدرى مني ومنها بغايتها من تلك السدود . وغايتها انجلت لي فيما بعد عندما انجلى لي طريقي في الحياة ، فسلكته مطمئناً منتهى الاطمئنان وغير طامع في سواه. أما في ذلك الزمان فكانت الغاية أبعد من مرمى بصري وعقلي .

اللهمّ ، برّد بمحبّتك قلوب المحبّين !

في الجامعة

تقوم جامعة واشنطن على هضبة عالية في الطرف الشمالي من مدينة « سياتْل »— Seattle ، على شاطىء المحيط الهادىء . وتشرف الهضبة على بحيرتين كبيرتين إحداهما تدعى « بحيرة واشنطن » والأخرى « بحيرة يونيون » . وكان يفصل بين البحيرتين ، في أوّل عهدي بهما، برزخ ضيّق ما لبث أن قلبته الماكينات الحديثة ترعة . ثم ما لبثت البحيرتان أن اتّصلتا بالمحيط . أمّا مساحة الهضبة فعشرات الهكتارات ، تغطّي القسم الأكبر منها غابة من الشوح والبلوط وغيرهما من الأشجار والأدغال البريّة ، وتشغل ما تبقّى بنايات الجامعة الكثيرة وقد تفرّق بعضها عن بعض ، واتصلت بممرات من الباطون عن جوانبها حدائق من الأعشاب والأزهار بشتى أنواعها . إنّها لبقعة ساحرة ، غنيّة بالخلوات لمن كان مثلي يميل إلى العزلة والتأمّل بفطرته .

في تلك البقعة من الأرض وجدتني في أوائل الخريف عام ١٩١٢ ، ووجدتني وحيداً وغريباً عن كلّ ما حواليّ ومن حوالي . إلاّ أن الشعور بالغربة بات أمراً مألوفاً عندي . فالمهمّ أن أبلغ الغاية التي من أجلها جئت ، مهما تكن الظروف .

وتبيّن لي أن الجامعة مستعدّة أن تعادل شهادتي الروسيّة بسنتين من كلية الآداب شريطة أن أثبت أهليّتي لذلك بنجاحي في المواد التي أختارها لسنتي الأولى في الجامعة . ثمّ تبيّن لي أن برنامج كلية الآداب يستغرق أربع سنوات ، وبرنامج الحقوق ثلاثاً . وأنّ في استطاعة من شاء الجمع بين الآداب والحقوق أن يحصل على درجة في كلتيهما في ستّ سنوات بدل السبع . وقرّ رأيي على

الجمع بين الفرعين ما دام درس الآداب لن يكلّفني أكثر من سنة بالإضافة إلى السنتين اللتين تحسبان لي مقابل شهادتي من بولتافا . فاخترت لسنتي الأولى الفلسفة والأدب الانكليزي وتاريخ الولايات المتحدة والاقتصاد السياسي وعلم الحيوان . وأقبلت على دروسي وهمّي الأكبر أن أتوسّع أكثر فأكثر في فهم اللغة كيلا يفوتني الكثير ممّا في الكتب ومما يُلقَى في الصفوف . وكان الله معي . فلم ينقضِ الشهران حتّى بدأت أشعر أن الذي أفهمه أكثر بكثير من الذي لا أفهمه .

كان أخواي في والا والا قد خصّصا لي ٣٠ دولاراً في الشهر . وكنت حريصاً كلّ الحرص على أن تبقى لي بقية من ذلك المبلغ في آخر كلّ شهر — ولو دولار واحد أو نصف دولار . فمنذ أن تسلمت مقاليد نفسي اتخذت من المثل السائر « على قدّ بساطك مدّ رجليك » خطّة لي في حياتي . فلا أنفق ممّا لديّ من المال — وغير المال — إلاّ على قدر طاقتي . وأنفق على الأهمّ قبل المهمّ ، وعلى الضروري قبل الكمالي ، وإن كلّفني ذلك الكثير من الحرمان . وأن أُحرَم جميع ملذّات الأرض لأهون عليّ من أن أبذل ماء وجهي أمام أيّ إنسان .

ولكم كان يدهشني أن أرى رفاقاً أوفر منّي مادة بكثير يتلفون مخصّصات شهرهم في الأسبوعين الأولين منه ثمّ لا يستنكفون أن يستجدوا القروض حتّى من واحد مثلي . لقد كان شعوري بالمال — ولا يزال — شعور مَن « يرى عدوّاً له ما من صداقته بدّ » — على حدّ قول المتنبّي . فقد كنت أعرف المآثم والمخازي التي تُرتكب باسمه وفي سبيله . وكنت أكرهها . فالمال ما استمالني يوماً كما يستميل الأغلبيّة الساحقة من الناس . بل كنت أكره أن أكون من خدّامه . ولكنني أضعف من أن أقاوم سلطانه المطلق في الأرض . فلا بدّ من الرضوخ — ولو إلى حدّ . على أن لا يغدو الرضوخ عبادة . لذلك

لم يكن يهمّني أن ينتفخ جيبي بالمال على قدر ما كان يهمّني ألا يفرغ منه تماماً ، كيما أستطيع أن أحفظ لنفسي كرامتها بين الناس ، وأن أقوم بالمسؤوليات الملقاة على عاتقي . فإذا زاد المال في جيبي زاد إنفاقي له . وإذا قلّ قلّ .

كان الطلاّب في الجامعة من الجنسين ، والتعليم المختلط كان ظاهرة جديدة عندي . ولكنها لم تدهشني في بلاد تنحو نحواً جديداً في حياتها وتريد أن تجعل من ذاتها مثلاً يحتذى . وحريّ بها أن تفعل كذلك . فأرضها « جديدة » ، والشعوب التي جاءت تستغلّها وتعمّرها شعوب « جديدة » من حيث أنها خليط من بلاد وأمم عديدة ، وقد جمعت بينها الرغبة في بسطة العيش وفي ضروب من الحرية لم تكن لها في منابتها الأصليّة . ففي حين كانت الولايات الشرقيّة على شواطىء الأطلسي قد باتت « عتيقة » وقد بلغت حدّاً بعيداً من العمران ، كانت الولايات في الغرب الأوسط — Middle West — وفي الغرب الأبعد — Far West — لا تزال بكراً أو شبه بكر . ففي استطاعتها أن تستوعب من السكّان والصناعات أضعاف أضعاف ما فيها . لذلك كانت نصيحة أحد مشاهير الصحافيين الأميركيين إلى الشباب الطامح إلى بناء مستقبل له : « اذهب إلى الغرب أيها الفتى ! » — Go west, young man !

وإذ ذاك فلا عجب أن ترى الناس في الولايات الغربيّة يعيشون وكأنّهم رفقاء في الطريق ، أو شركاء في مغامرة من المغامرات . فلا تكلّف في حركاتهم ، وفي معاملتهم بعضهم لبعض . ولا تقاليد تحدّ من انطلاقهم . فلا نبيل وخسيس ، ولا سيّد وعبد ، ولا إقطاعيّ متعجرف وأجير ذليل . بل هنالك الكثير من التقارب والتعاون والاحترام المتبادل . فالناس ليسوا ذئاباً ، وشريعتهم ليست شريعة الغاب . ولكنهم يتسابقون إلى غاية واحدة هي الكسب . والنشيط النشيط من برّ في الكسب أقرانه ، وفي أقصر وقت .

ثمّ لا عجب أن يهيمن مثل ذلك الجوّ حتى على الجامعات في الغرب. إنّها مؤسّسات فتيّة ، في بلاد فتيّة ، ولا جذور لها في الماضي السحيق . ولا تقاليد تشدّها إلى الوراء . ولكنها تخلق تقاليدها عاماً بعد عام ، أو تستعير لها بعض التقاليد من جامعات أعرق منها بكثير .

في جملة تقاليد جامعة واشنطن أنّ طلاّب السنة الأولى يترتّب عليهم لبس قبّعة خضراء تكاد لا تغطّي قمة الرأس.ومَن لم يفعل ذلك عاقبه طلاب السنة الثانية أفظع العقاب . فقد يركلونه ، أو يضربونه ، أو يسمعونه شتّى الإهانات . وقد يشدّونه إلى دغل في الغابة ويتركونه هناك الليل كلّه ؛ أو قد يغطّسونه في البحيرة حتّى في عنفوان الشتاء . وهم يحسبون كلّ ذلك ضرباً من « السبورت » . ولأنّني رفضت أن أتقيّد بذلك التقليد الصبياني فقد عشت سنتي الأولى في الجامعة والخوف يلازمني من أن أُفاجأ بكلمة نابية ، أو بحركة مهينة . ولكن سنتي مرّت بسلام . ولعلّ القوم كانوا يشعرون بأنّني أكثر من « صبي » .

ذلك الجوّ من الخفّة ، والمرح ، واللهو ، والانشغاف بـ « البيسبول » و « الفوتبول » وغيرهما من الألعاب الرياضيّة كان يؤذيني في الصميم ، لأنّه كان يتنافى ونزعتي إلى الجدّ في كلّ شيء ، وعلى الأخصّ في الدرس وتقدير مسؤوليات الحياة . فالصبا هو زمان اللعب . أما الشباب فأوان الغوص على معاني الوجود . هكذا كنت أشعر . وذلك الشعور زادني شعوراً بغربتي الروحيّة في بيئتي الجديدة . ولعلّني كبرت قبل الأوان ، ولعلّ رفاقي الأميركيين كانوا على صواب في تمديد عهد الصبا حتّى يتناول الحياة الجامعية كذلك .

إلاّ أنّني كنت أجد لنفسي بعض السلوى في معاشرة الطلاب الأجانب . لا على سبيل أن «كلّ غريب للغريب نسيب » . بل لأن أكثر الطلاب الأجانب

كانوا أبعد شعوراً بمسؤولياتهم الانسانيّة من إخوانهم الأميركيين . فقد كانت للأجانب جمعية دعوها Cosmopolitan Club فيها الاسوجي والنروجي والهولندي والاسكتلندي والياباني والصيني . وكنت فيها العربي الوحيد . وقد تمكّنت بيني وبين البعض من الطلاب الأجانب أواصر صداقة لم يقم مثلها بيني وبين طالب أميركي .

أمّا سلواي الكبرى فكنت أجدها في معاشرة الكتب ومعاشرة قلمي . فقد أقبلت على مطالعة الشوامخ في الأدب الانكليزي بمثل الشراهة الّتي بها أقبلت على مطالعة الأدب الروسي . وانفتح لي باب الكتابة باللغة العربيّة فولجته بلهفة من طالت غربته عن أهله وعن باب داره .

كان عدد الطلاّب في جامعة واشنطن أيام دراستي فيها بين الثلاثة والأربعة الآلاف . واليوم — حسبما قيل لي — يكاد يناهز العشرين . وسكان « سياتل » كانوا نحو ٢٠٠،٠٠٠ فباتوا اليوم يقاربون المليون . ألا ليت الأرقام كانت الدليل الصادق على « النموّ » و « التقدّم » !

ولئلا تخدعك الأرقام ، فتحسب الورم شحماً ، أروي لك النكتة التالية :

على أثر دخولي الجامعة خرجت ذات يوم أتمشى في الشوارع المجاورة لها . فأذهلني أن أرى إلى جانب بعض أعمدة التلفون والكهرباء صناديق كالّتي تعبّأ فيها صفائح الكاز ، وفي كلّ صندوق أعداد مطويّة من جريدة محلية ، وعلى العدد الأعلى منها كومة من « السّنوت »[1] . لقد كان القوم يمرّون بتلك الصناديق فيأخذ الواحد عدداً من الجريدة ويضع ثمنه على الأعداد الباقية ويمضي في سبيله . وكان ثمن العدد الواحد سنتاً واحداً . هكذا كانت تجري عملية بيع الجرائد في ضواحي المدينة . ولا رقيب ولا محاسب . ولو أنّ أيّ الناس

---

١ « السنت » قطعة نقدية من النحاس قيمتها $\frac{١}{١٠٠}$ من الدولار . وهي بمثابة القرش عندنا . وليس اليوم من يأبه بها .

شاء أن يغرف تلك النقود لما درى به أحد . أو لو أنّ أيّ الناس شاء أن يأخذ بدل العدد اثنين وثلاثة وأن لا يدفع ثمنها لاستطاع ذلك بمنتهى السهولة . يا لها من أمانة ! يا لها من ثقة متبادلة ! حقاً ! إنّها لبلاد ضميرها حيّ .

ولكنّ شهراً لم ينقض حتى غابت الصناديق المكشوفة وحلّت محلها صناديق مقفلة ، في أعاليها ثقوب بحجم السنت . وانتقلت أعداد الجرائد من سطوح تلك الصناديق إلى جوفها حيث وُضع جهاز يسمح للشاري بسحب عدد واحد من بعد أن يرمي في الثقب سنتاً واحداً ! لقد بات من الضروري وضع رقيب على ضمائر الناس . فكان الرقيب ماكينة . . .

ونكتة أخرى من هذا النوع :

« الصّبواي » أو « المترو » في نيويورك من أكثر وسائل النقل ازدحاماً . وبخاصّة في الصّباح والمساء . وفي أوائل عهدي بنيويورك من بعد ١٩١٦ كان على كل مسافر أن يبتاع ورقة مرور من رجل عند كلّ مدخل من مداخل المحطات المختلفة ، ثم أن يسلم تلك الورقة لرجل آخر يفتح له الباب إلى الرصيف حيث تتوقف القطر . وهذه العملية كانت تؤخّر حركة السير وتزيد الازدحام تفاقماً . لذلك اخترع أحدهم جهازاً لتيسير الحركة . والجهاز كان كناية عن صندوق مستطيل مركّز عند الباب المؤدي إلى الرصيف . وهذا الباب جعلوه عموداً من الحديد بعلوّ خصر الانسان ، وجعلوا في رأسه مروحة بشكل صليب ، تتّسع الفجوة منها لإنسان واحد . والباب ينفتح للمسافر حالما يرمي في أعلى الصندوق قطعة من النقد يدعونها « نيكل » . وقيمتها خمسة سنوت . ثم ينغلق تلقائيّاً إلى أن ينزل فيه « نيكل » آخر .

وظنّت الشركة أنّها وفّرت على ذاتها وعلى المسافرين مشقات كثيرة . وإذا بها بعد يوم تجمع ما في صناديقها فتجد قسماً منه مؤلّفاً من قطع من الحديد والألومينيوم بحجم « النيكل » ووزنه . مما اضطرّها أن تحكّ رأسها وأن

تضع في الصندوق « السحري » عيناً سحرية تكشف نوع المعادن التي تسقط فيها وشكلها ، بحيث بات الخداع متعذراً إلى حدّ بعيد . وهكذا قامت الماكينة — هنا كذلك — رقيباً على ضمائر الناس ، وبات الشرف رهن « العين السحرية » . أمّا عين الله ، أو عين النظام السرمديّ الذي يكيل الصاع بالصاع ، فلا سحر فيها البتّة . وهي في اعتقاد هذه المدنيّة « الممكننة » إلى أقصى الحدود عين رمداء — بل عمياء .

واعلم أن هنالك الذين فكّروا ، والذين يفكّرون جدّيّاً في اختراع ماكينة تكشف دخيلة الفكر والقلب بحيث يتعذّر على شاهد في محكمة — مثلاً — أن يقول غير ما يعرف ، أو عكس ما يعرف . فماذا تبتغي بعد من مدنيّة أسلمت يديها ورجليها ، وعقلها ووجدانها ، وعدلها وشرفها إلى الفلس ، فأسلمها الفلس بدوره إلى الماكينة ؟ أجل . ماذا تبتغي بعد منها إلاّ — الإفلاس ؟

أول الغيث

في ربيع سنتي الثانية في الجامعة ، والأولى في كلية الحقوق ، حمل إليّ البريد العدد الأول من مجلة عربية تصدر في نيويورك باسم « الفنون » ، وكان التاريخ الذي عليه « نيسان — ١٩١٣ » . أمّا منشىء المجلة فرفيقي في الناصرة نسيب عريضه بشراكة رجل آخر لا أعرفه .

ما هذا الذي اعتراني عندما فتحت العدد ؟ إن عينيّ تسابق يدي في تقليب صفحاته وتلتهم ما فيها التهاماً . وقلبي يصفّق فرحاً بين ضلوعي . فإلى الشيطان أيّتها « العقود » و « الصكوك » و « الجنح » و « الجنايات » وكلّ ما يتصل بالمحاكم والأحكام . إنّك سلسلة لا نهاية لها من المشكلات . والعدل عنك غريب . إنّك رغوة وفقاقيع صابون . وههنا فتح جديد ودنيا جديدة . ههنا حروف تنبض حياة . والعجيب أنها حروف عربيّة . وعهدي بالحروف العربيّة أنّ عناكب الجمود والتقليد والنفاق والفاقة الفكريّة والروحيّة قد نسجت فوقها أكفاناً ، وأن غبار خمسة قرون قد تكدّس على تلك الأكفان . سبحان مَن يحيي العظام وهي رميم !

أول ما طالعني من بعد الفهرس في ذلك العدد الجميل المظهر والتنسيق رسم لجبران خليل جبران . وجه وسيم ، كئيب . شاربان يشبهان شاربيْ نيتشه . أنف دقيق ، مستقيم . عينان واسعتان ، حالمتان . حاجبان كثيفان ، مقوّسان . جبين عال ، وشعر كثيف ، ويدان لطيفتان ، حسّاستان . إنّه رسم حافل بالمعاني والمواهب .

وأنتقل من الرسم إلى المقال الافتتاحي الذي يليه فإذا به من قلم جبران

وعنوانه « أيها الليل » :

« يا ليل العشّاق والشعراء والمنشدين !

يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة !

يا ليل الشوق والصبابة والتذكار ! » الخ .

فيطربني منه قلم يعرف قيمة الحرف ، فلا يمتهنها . ويعرف جمال اللون ، والرنّة ، والمعنى في الكلمة فلا يفحش بها . ويعرف أن للقلب أوتاره ، وللفكر أوتاره . وهذه ما لم تكن موقّعة أحسن التوقيع ، وبيد فنّان مخلص لفنه ، كان كلّ ما يصدر عنها نشازاً في نشاز .

ثمّ أنتقل من مقال جبران إلى قصيدة بعنوان « أمانيّ » من قلم « أليف » . وأجزم في الحال أن « أليف » ليس أكثر من اسم مستعار تستّر وراءه رفيقي نسيب عريضه . فأنا أعرف نَفَسه ، وأعرف أن هذا اللون من الشعر قد اقتبسه نسيب من مطالعاته الروسيّة . وها هو العدد كلّه يشهد بذلك . فقد حشاه صاحب « الفنون » بترجمات من الشعراء والكتّاب الرّوس — وعلى الأخصّ المحدثين منهم أمثال « غوركي » و « اندرييف » و « سولوغوب » و « مرجكوفسكي » وغيرهم مع البعض من كتّاب الغرب مثل « أوسكار وايلد » و « فيكتور هيغو » .

ومقال آخر يستوقفني في ذلك العدد . وعنوانه « بلبل الموت والحياة » وهو بقلم أمين الريحاني :

« في القفص يغرّد البلبل وفي الأودية تولول الرّياح » . . .

لا . لا . لست في حلم يا ميشا . فهذه النفحات التي هبّت عليك من « فنون » رفيقك نسيب عريضه لم تنطلق من خيالك ومن رغبتك الملحاح في أن تجدّد العربيّة شبابها . إنها لحقيقة راهنة . وإنها البشارة لك بالانبعاث الذي رحت ترجّاه لبني قومك منذ أن أطللت على الأدب الروسي والآداب العالميّة

وأدركت قدسيّة الكلمة ، وقوّة القلم إذا هو لم يدنّس الكلمة بالكذب والرياء والتدجيل ، ولم يعبد الحرف دون الروح . بلى . بلى . هذا أول الغيث يا ميشا — قطرة ثم ينهمي . وهذه القطرة تتحداك يا ميشا . فهل لديك قطرات تضيفها إليها ؟ إذا كنت تريد أن يكون لك نصيب في الغيث الآتي فهذه الساعة هي ساعتك . وهذا اليوم هو يومك .

ورحت أدبّج مقالاً مستفيضاً بعنوان « فجر الأمل بعد ليل اليأس » فأنفث فيه كلّ ما في صدري من نقمة وحقد على الأدب المحنّط — أدب التنميق والتقليد والتدجيل — أدب المجاملات والمناسبات والبهلوانيات — أدب القشور لا غذاء فيها لأيّ عقل وقلب ، ولا صلة رحم بينها وبين حياة نحياها في كلّ يوم . كنت أكتب وبودّي لو يتحوّل القلم في يدي بركاناً ، ولو تخرج الكلمات من بين شقّيه حمماً تجرف وتحرق كلّ بالٍ ودميم ومخاتل في آدابنا لعلّ أن تنهض لنا أقلام جديدة تقيم وزناً للصدق والجمال وباقي القيم الانسانيّة الرفيعة . واختتمت المقال بنقدٍ لقصة جبران « الأجنحة المتكسّرة » ، وكانت الصحف العربيّة في نيويورك قبل ذلك بشهور قد استقبلتها بالكثير من الاعجاب والتكبير . وبعثت بالمقال إلى « الفنون » . فلم يلبث أن كتب إليّ نسيب يقول في جملة ما يقول[1] :

« على أنّني أقول لك إن المجلّة قد نفعتني بأنّها كشفت لي آثار صديق غاب عن عينيّ منذ سنين . وقد تركته وعلى وجهه سيماء التفكّر ، والأماني تشف من عينيه العميقتين حتّى تكاد تتجسم بدون خيال . ووجدته الآن فرأيته لا يزال يداري أمانيه ، وكأنّني به يُعدّ بناء عظيماً للمستقبل ، أو يهيء قنبلات جهنّمية لهدم بعض ركائز الماضي من الأوهام والخرافات والشرائع .

....

[1] هذا المقال دمجت قسماً منه فيما بعد بمقال « الحباحب » المدرج في « الغربال » .

« إن ما كتبته يا صديقي في مقالتك عن الأجنحة المتكسّرة لجميل وصحيح. قد أعجبتني طريقتك جدّاً ورأيت من نسقك ما جعلني أشدّد الأمل بأن أراك في مصافّ كتّابنا الناشئين لهذا العصر الجديد الذي هو بدء حياة ذهبية لآدابنا الشرقيّة المنحطّة . ولذلك أرجوك أن تواظب على الكتابة . وأقترح عليك أن تطالع كلّ كتّابنا من اليازجي إلى الآن وتكتب لنا فصلاً عن كلّ منهم ليعلم القوم أنّهم لم يحصلوا إلاّ على القشور من كلّ ما مرّوا عليه من أدب المدح والهجو وصفّ الكلام الفارغ الثقيل . وعسى أن تكون لنا مثل بيلينسكي عند الروسيين وسانت بيف عند الفرنسيين . »

ما إن تسلمت العدد الذي صدر فيه مقالي حتّى أخذتني حماسة كالتي يخيّل إليّ أنها أخذت داود النبي عندما طُلب إليه منازلة جليات الجبّار . فالخصم عملاق وأيّ عملاق . وهو شديد ، عنيد . ولو أنّه كان من لحم ودم لهان الأمر إلى حدّ . ولكنّه تقاليد بعيدة الجذور ، توارثتها أجيال كثيرة على مدى قرون طويلة . إنّه نمط معيشة ، ونهج في التفكير والتعبير . إنّه سرطان في النفس وفي الدم . والمعركة معه ستكون حامية الوطيس . وها هي قد ابتدأت. والتراجع عنها يعني التراجع عن أحلام عذاب . وعن رسالة حياة . فلنخضها واثقين من قوّة سلاحنا . وسلاحنا هو الإيمان بقدسيّة الكلمة ، وتنزيهها عن التبذّل والتدجيل والتمرّغ على أقدام الأصنام ، وتكريسها لخدمة الحقّ والعدل والذوق الرّفيع .

ومن غير أن أهمل دروسي رحت أنهب من أوقات المطالعة والنزهة والنوم ساعات للكتابة . فأُحبّر المقالات في « الشعر والشعراء » وغير ذلك من المواضيع ، وأكتب القصة ، وأتبادل الرسائل المطولة مع نسيب بشأن المعركة وشأن « الفنون » التي كانت حاملة اللواء في تلك المعركة ، والبوق الذي يذيع أخبارها . وأنغمس في الكتابة إلى حدّ أن أنسى كلّ حاجة سواها .

فلا يهمّني أن أشغل قلبي بأيّ حبّ غير حبّ القلم . ولا أن ألهو بشيء إلاّ بالتفكير والتحبير . فالحلم الذي ما انفكّ يلاحقني من زمان قد بدأ يتحقّق ويتجسّد . وها هو نسيب يكتب إليّ :

« كتاباتك في الفنون وقعت على الجرح والألم . والقوم هنا معجبون بها ، وأنا أشدّهم إعجاباً ، فأرجوك يا عزيزي أن تثابر على الكتابة إكراماً للأدب . إكراماً للنهضة الأدبيّة التي نريد إثارتها . سوف أنتظر منك مقالة لكلّ عدد . وأرجو أن لا تذخر وسعاً في انتقاد عادات هذه الأمّة التاعسة . »

وفي رسالة أخرى :

« أقول لك إن مقالاتك كلها التي صدرت في الفنون قد أحدثت ضجيجاً واستحساناً في العالم الأدبي في المهجر . ولا شكّ أنها ستحدث نفس الضجيج في العالم العتيق . لم أر أديباً إلا وسألني عنك معجباً ، متسائلاً : لماذا لم يظهر هذا الكاتب قبل الآن ؟ وأين كان مختبئاً ؟ وقد قال لي رهط من أدباء بوسطن : إنّنا نتهافت على عدد من الفنون تهافت الجياع على القصاع لنقرأ فيه قبل كلّ شيء مقالة نعيمه . وإنّنا نعيد تلاوتها حتى تتملّك من ذاكرتنا فنستطيع روايتها غيباً . »

إلاّ أنّ تلك الانطلاقة السريعة ، العنيفة ، لم تلبث أن لاقت صدمة قوية . فقد وردتني من نسيب رسالة مؤرخة في ١٥ أيّار ١٩١٤ . وإليك أهمّ ما جاء فيها :

« كأنّني بك وقد حسبتني ميتاً مفقوداً بعد أن قطعت عنك رسائلي كلّ تلك البرهة الطويلة . أجل . إنّي كالميت أيها الحبيب . ولا ينقصني إلاّ مَن يرثيني بالقصائد المعتاد عليها القوم . لقد خسرت معركتي وسقطت آمالي حولي قتلى . وشاءت الظروف بل شاءت الجهالة السوريّة أن تقف « الفنون » عند حدّها . وذلك لأن المشتركين « الكرام » لم « يتكرموا » بدفع بدلات الاشتراك

في بحر السنة . بل لا يريدون أن يدفعوا قبل نهاية السنة . . . والآن وقد فرغ مالي وبخل عليّ المشتركون بما عليهم فليس لي إلاّ أن أقف . وقد وقفت . ولا أدري أتتحرك رجلاي فيما بعد أم تيبسان إلى الأبد . . . إن قيمة زهيدة (كبيرة جدّاً عندي) تبلغ ٢٠٠ ريال تنقذني . . . وتنقذ « الفنون » .

« الفنون قد أذاقتني من العذاب فنوناً . قد بذلت في سبيلها كل شيء . ولما بدأت أشعر أنّي فزت غلبتني الماديات . نعم . قد فزت أيها الصّديق بجعل الفنون محبوبة في كلّ أقطار العالم العربي . وتهافت عليها المشتركون مؤخّراً من سوريا ومصر والبرازيل والأرجنتين حتى أمّنت عليها مستقبلها . . . أمّا أنت أيها الحبيب فلا تقنط معي . بل دلّل أمانيك معي . . . وكلّ ما أرجوه منك أن لا تنساني . بل شجّعني بكتاباتك المحيية إلى أن تحين أوقات الحياة . . .

« قد كان المنفلوطي سألني إبداء رأي في نظراته . فحوّلتها إليك . فإذا ساعدتك أوقاتك فاكتب واشفِ غليلي من هؤلاء « الكتبة » .

« لا تقطع حبال آمالك . فقد أتمكّن قبل شهر تمّوز من إعادة الفنون ... »

فكتبت إليه أقول إن الصلة التي جددتها « الفنون » بيني وبينه بولادتها قد زادتها وثوقاً بموتها . وإن الآمال التي بعثتها فينا ستبقى تتجدّد تجدّد الفصول . فلا مجال للندب والقنوط . وبي ما يشبه اليقين بأن المجلة ستعود إلى الظهور.

بعد ثلاثة شهور من وقوع « الفاجعة » وصلتني نسخة من كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران . وكان نسيب هو الذي قد تولّى طبعه في مطبعة « الفنون » . وقد أرفق النسخة برسالة جاء فيها : « . . . لم أزل معلّقاً عودي على صفصاف بابل أنوح على أورشليم . . . أرسلت إليك اليوم بالبريد كتاب دمعة وابتسامة . . . فأرجو منك أن تكرّس قلمك لكتابة فصل انتقادي عنه . فقد كلّفني المؤلّف أن أرسله إليك وأكتب عليه « برسم الانتقاد » . لا أعلم إلى أين تستطيع أن ترسل مقالتك وبأيّ الجرائد تخصّصها . فإنّي أضنّ بها أن

تنشر مع ما ينشرونه من الترهات والسفاسف . ولكن للضرورة أحكام . . . »

وقد « حكمت الضرورة » أن يُنشر المقال في جريدة نصف أسبوعيّة كانت قد برزت حديثاً إلى الوجود في نيويورك باسم « السائح » وصاحبها عبد المسيح حدّاد – أحد رفاقنا في الناصرة . وكان المقال بعنوان « أخماس وأسداس » أطريت فيه فنّ الكاتب وبراعته في تلوين الكلام ، وابتكار الاستعارات والتشابيه ، وبثّ الحياة حتّى في الجماد . ونعيت عليه توغّله في الرومنطيقية والسنتيمنتاليّة . وعلى الأخصّ في تصوير الأشخاص ، بحيث يبدون كما لو كانوا دمىً ، لا بشراً من لحم ودم .

لقد جاء احتجاب « الفنون » صدمة للحركة الطالعة – ولكن إلى حين .

عالَم يشتعل

لم تُنسني مشاغلي المدرسية والكتابيّة، والكارثة التي حلّت بالفنون ، واجباتي نحو أهلي في بسكنتا وأخويّ في والا والا . فقد كنت أراسلهم بانتظام . وكان قلبي قد اطمأنّ إلى حالة والديّ وجدّتي وإخوتي الصغار في لبنان . فقد باتوا في مأمن من العوز بفضل الامدادات التي تأتيهم مرّة أو مرّتين في السنة من أديب وهيكل ، وبفضل ما ينتجونه بأتعابهم الخاصّة من أرضهم . وها هو أخي نجيب يتعلّم في مدرسة داخلية ثانويّة . وغالية ونسيب لا يزالان في المدرسة الروسيّة التي منها انطلقت إلى العالم الأوسع .

ثم إنّ أخي أديب كان قد رزق غلاماً في خريف ١٩١٣ . وقد أسماه « جرير » . والذي دفعه على اختيار الاسم هو رغبته في أن يحمل بكره اسم رجل عربي صميم ، وأن يكون الاسم خفيف الوقع ، لطيف اللفظ بحيث لا يتعثّر به لسان انكليزي . أما لماذا اختار شاعراً ولم يختر زعيماً عسكريّاً أو سياسيّاً أو دينيّاً فمردّ ذلك إلى أنّه كان يؤثر الشعراء على غيرهم من الأدباء والزعماء ، وكان لا يزال يذكر بيت الفرزدق في جرير :

كم عمّة لك يا جرير وخالة   فَدْعاء قد حلبت عليّ عشاري

الحمد لله ! فكلّ شيء على ما يرام . والرياح تجري كما تشتهي السفينة . ولا بأس في أن يكون الميناء الذي تقصده بعيداً ، بعيداً .

ولكن . . . من أين كان لي ، أو لأيّ آدميّ سواي ، أن نعرف ما في كشكول الأيّام من مفاجآت للأرض وأبناء الأرض ؟ ففي الثامن والعشرين من

حزيران سنة ١٩١٤ اغتال شابّ صربيّ رجلاً نمسوياً في مدينة صغيرة تدعى « سرايفو » وهي عاصمة مقاطعة تعرف باسم « بوسنيا » أو « البوسنة » . إنّه لخبر من الأخبار . فلا الصربي كان أول قاتل . ولا النمسوي أول قتيل . ففي كلّ يوم يُقتل الآلاف من البشر بأيدي غيرهم من بني البشر . فلا تضطرب الأرض ، ولا تميد . بل تنشط المحاكم هنا وهناك . وينبري القضاة والمحامون « يحلّلون » الجريمة والمجرمين. حتى إذا « ثبت » الجرم ، وثبتت النية المجرمة ، حكم على القاتل إمّا بالسجن المؤبّد ، أو بالموت . ويمضي الناس ، أبرارهم وأشرارهم ، في ممارسة أعمالهم ، وفي حمل أثقالهم ، وكأنّ ما كان لم يكن . وفي كلّ يوم يهال التراب على الآلاف ممن صرعتهم الجراثيم غير المنظورة . فلا ينشط القانون ، ولا القضاة والمحامون . ولا يدري بموتهم غير ذويهم وذوي ذويهم . وينشط القساوسة والمشايخ وحفارو القبور لا غير .

إلاّ أن قتيل « سرايفو » لم يكن من طينتك وطينتي وطينة باقي الناس . إنّه « أرشيدوق » ومن سلالة « هيبسبورغ — لورين » المالكة سعيدة في النمسا والمجر — وفي البوسنة برغم أنوف أهلها الصربيين . لذلك فدمه لا يُفتدى بدم القتيل وحده . بل بدماء الملايين من الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، وبدموعهم وأرزاقهم وكلّ ما جنته أيديهم وقلوبهم وأفكارهم . إنّه لدم يتحتّم حتى على شاب مثلي ، لا ناقة له في الجريمة ولا جمل ، أن يدفع ثمنه من آماله العذاب ، ومن كرامته ، ومن رجولته ، ومن صفو باله ، ومن اللّبنات التي كان يجمعها بشقّ النفس ليبني منها مستقبله .

قُل لي ، ناشدتك باسم الحريّة التي تتعبّد لها وتباهي بها ، أيّ الحريّة هي حرية فتى قادم من سفوح صنّين إلى شواطىء الباسيفيكي في طلب العلم والمعرفة ما دامت حياته ترتبط برصاصة تنطلق على بعد آلاف الأميال منه ولا علم له بها ، ولا بالذي أطلقها ، ولا بغايته من إطلاقها ؟ إنّ تلك الرصاصة قد غيّرت

المجرى الذي اختطّه لحياته . فبات لزاماً عليه أن يتكيّف بالأحداث المباغتة التي خلقتها انطلاقة تلك الرصاصة . أيكون أنّ الحريّة هي حرية التكيّف لا التكييف ؟ وحرية الامتثال لا الاختيار ؟ ذلك ، لعمري ، هو الاستنتاج الذي فرضته — وتفرضه — عليّ تأمّلاتي وأحداث حياتي .

لنا أن نريد . وليس لنا أن نجزم بأنّنا بالغون حتماً ما نريد . ولا أنّ الذي نريده هو الأصلح لنا والأنفع . لقد أردت أن أتزوّج « فاريا » فصدّتني إرادة غير إرادتي . وأردت أن أكون في باريس وها أنا في سياتل . وأردت أن أعود إلى بلادي فور تخرجي من الجامعة في عام ١٩١٦ ، فأبقتني الحرب التي أشعلتها رصاصة « سرايفو » بعيداً عن بلادي حتى عام ١٩٣٢ . ولكنّني أستبق الأمور .

أجل . لقد كانت رصاصة « سرايفو » الشرارة التي أضرمت النار في الوقود المتفجّر الذي راحت الدول الأوروبيّة الكبرى تكدّسه بمنتهى الحرص والعناية على مدى نصف قرن تقريباً — وقود الحقد ، والكراهية ، والجشع ، والنفاق ، والخداع ، والتهافت على استعباد أكبر عدد من الأمم الضعيفة ، المغلوبة على أمرها ، واستملاك أراضيها ، ونهب خيراتها كيما تتمتّع بها أقليّة ثريّة ، مرفّهة ، فتزيد في ثروتها ورفاهيتها . واندلعت النار فكادت تشمل كل بلاد العالم . ولذلك دعوها « الحرب العالميّة » . إلاّ أنّنا ، في أميركا ، حسبنا أنفسنا بمنجى عنها . فالبلاد أعلنت حيادها التامّ بين المعسكرين المتناحرين . وتمسّكها بوصيّة جورج واشنطن القائلة بالابتعاد عن مشكلات أوروبا .وفي عام ١٩١٦ أعيد انتخاب ودرو ولسون للرئاسة تحت شعار « لقد جنّبنا الحرب » . « He Kept us out of war »

ما إن دخلت تركيا المجزرة العالميّة إلى جانب ألمانيا والنمسا وبلغاريا حتى أخذ القلق عل مصير أهلي وبلادي يساورني ويكاد يفسد عليّ عملي . فما

شككت في أنّ الجيوش التركيّة ستحتلّ لبنان وتلغي امتيازاته ؛ وأنها بمعونة حليفتها ألمانيا ، ستشدّد قبضتها على سوريا وفلسطين وباقي البلاد العربيّة التي كانت لا تزال تحت إمرتها ؛ وستسحق بمنتهى العنف والصرامة كلّ حركة انفصاليّة ، أو لامركزية ، في تلك الأقطار .

وكأنّ الأقدار كانت لها في ذمّة لبنان حسابات قديمة . فشاءت أن تصفّيها دفعة واحدة . وهكذا انهالت عليه بنكبة تلو نكبة ، تلو نكبة — نكبة الحرب ، ونكبة الجراد ، ونكبة جمال باشا وديوانه العرفي في عاليْه . ولعلّ نكبة الجراد كانت أشدّها وطأة وأفظعها هولاً . ففي ربيع العام ١٩١٥ استفاق سكان بسكنتا ذات يوم ليبصروا أرجالاً كثيفة من ذلك الغضب المجنّح تدوّم في سمائهم فلا تلبث أن تحطّ في حقولهم وكرومهم وبساتينهم وغاباتهم — على القمم ، وفي السفوح والأغوار ، وتنتشر حتى شاطىء البحر . ربوات منها فوق ربوات ، فوق ربوات ، تغطّي التراب والصخر ، وتكسو أفانين الأشجار وسطوح المساكن . وينبري لها السكان المساكين ولا سلاح في أيديهم غير العصيّ يهوّلون بها ، أو يضربون صفائح الكاز وما أشبه ، لعلّ الأصوات المنكرة تخيف العدوّ المنكر . ويبدو أنّه اعتبرها تهاويد أو « طقاطيق » ، أو مبالغة من القوم في الحفاوة بقدومه .

ثمّ جاء دور الجراد الزحّاف . فتجنّد الناس لمحاربته . وراحوا يحفرون له الحفر ويطمرون فيها جيوشاً منه لا تُعدّ ولا تحصى . ولكنهم كانوا كمن يحاول تجفيف البحر بالكشتبان . فلم يصبح الزحّاف طيّاراً ويغادر أرض بسكنتا فيحجب عنها الشمس إلاّ من بعد أن قضى على كلّ أخضر في كلّ حقل وكرم وبستان . أي من بعد أن انتزع اللقمة من فم الفلاح ، والعشبة من فم بهيمته . لا ليوم أو لشهر . بل لعامين بأيّامهما وشهورهما . وهكذا باتت الحبّة — حبة القمح ، أو الشعير ، أو الذرة ، أو أي حبّة تؤكل — أثمن ما في

الدنيا ، وبات التفتيش عنها أهمّ عمل يعمله الانسان . ففي الحبّة حفظ الرمق . وبدونها الموت الزؤام .

وأقبل الشتاء وليس إلاّ في القليل من البيوت مؤونة شهر . وكان القوم يعرفون أن في سهل البقاع حبوباً للبيع . وسهل البقاع لم يكن يومئذ جزءاً من لبنان . وكانت « الدولة العلية » ترمي إلى مضايقة لبنان حتّى في لقمته . فحرّمت تصدير الحبوب من البقاع إليه . ولكن الجوع كافر . فما لبث الناس أن « زحفوا » على البقاع — رجالاً ونساء . شيباً وشبّاناً . زحفوا على أرجلهم . في النهار وفي الليل . وفي الصحو والمطر والثلج . فمن كان له شيء من المال حمل المال . ومَن لم يكن له المال حمل شيئاً من أثاث بيته — لا همّ أكان طنجرة من نحاس ، أم لحافاً من صوف ، أم حصيراً ، أم بساطاً من الشعر ، أم رداء ، أم حذاء في الامكان الاستغناء عنه . وكلّ أملهم أن يعودوا بشيء من الحنطة ، أو الشعير ، أو العدس ، أو الذرة والحمص يحملونه على ظهورهم إلى صغارهم وكبارهم المتضورين جوعاً .

لقد أحاق الجوع بالناس من كلّ جانب . فمن كانت له أملاك عزيزة على قلبه راح يبيعها ولو برطل من الدقيق . فالحياة أعزّ من الملك مهما عزّ . ومن لم تكن له الأموال ولا الأملاك راح يفتش عن النفايات وجيف البهائم لعلّها تردّ عنه الموت — ولو إلى حين . بارت الأرض من العشب والزرع . فجف الضرع . وأقفرت المراعي من السائمة ، والدور تشتّت ساكنوها . فزوج لا يعرف أين زوجته . ووالدة أين ابنها أو ابنتها . ولعلّهم باتوا مشرّدين في حوران . أو التحقوا بقبيلة من القبائل الرحّل في سوريا . أو لعلّهم باتوا جثثاً منثورة في الدروب ، أو مطمورة تحت الثلوج .

وبلغت أخبار المجاعة مسامع المهاجرين وقلوبهم . فهبّوا لنجدة أهلهم . وشكّلوا لجنة لإعانة المنكوبين في بلادهم من بعد أن اختلفوا أشدّ الاختلاف

في تسميتها . كأن تدعى « لجنة إعانة منكوبي سوريا » وحسب . أو « لجنة منكوبي سوريا ولبنان » . وفاز الاسم الأخير في النهاية . حتى في مسائل الموت والحياة لا يخجل الناس من أن يختلفوا على الترهات .

وبلغت مسمعي وقلبي تلك الأخبار السوء . فكان من الطبيعي أن أهتمّ بمصير أهلي . فكتبت إلى أخي نجيب أسأله إذا كان لا يزال على قيد الحياة . وإذا كان باقي الأهل لا يزالون من « سكّان هذا العالم » . وأسأله عن الرسائل العديدة وعن الأموال التي بعثنا بها إليهم ماذا حلّ بها ، وهل تسلّموا شيئاً منها . وأختم رسالتي بالعبارة التالية : « لا رجاء لنا إلا في أن تنتصر الدولة على أعدائها فتعيد الراحة إلى رعاياها وتفكّ نطاق الحصار عن سواحلنا، فتسهل حينئذ المخابرات والمراسلات بيننا . فصلّوا معي من أجل نصرها القريب » .

تلك العبارة الماكرة أملاها عليّ حبي لأهلي وحرصي على سلامتهم . فقد كنت أعرف أن في البلاد رقابة . وأن كلمة نابية بحقّ الدولة يكتبها مهاجر لذويه قد تفضي بهم إلى المجلس العرفي فالسجن أو المشنقة . وكنت على صواب في ما فعلت . فما إن قرأ الرقيب تلك العبارة في رسالتي حتى كتب على الغلاف بأحرف كبيرة كلمة « برافو ! » . وهكذا نجّيت أهلي من ورطة كانوا في غنًى عنها . وقد عرفت ذلك من رسائل أهلي بعد الحرب . مثلما عرفت أنهم كانوا من القلّة المحظوظة في بسكنتا التي لم يعضها ناب الجوع . فبتدبير والدتي ونشاط والدي وإخوتي تمكّنوا من زرع أرض واسعة ملاصقة للشخروب تخلّى عنها شركاؤها بسبب فقرهم إلى البذار والبقر للحراثة . وأقبلت المواسم بعد القحط الذي جاء به الجراد . فبات في مستطاع والدتي أن تطعم الكثير من الجياع ، وأن تملأ خزائن بيتها بالخيرات .

لئن صلى قلمي مكرهاً من أجل نصر « الدولة العلية » فقد كان قلبي وكلّ جارحة من جوارحي تضرع من أجل محق الطغاة وتقلّص ظلّهم عن أرض

سوريا وباقي الأراضي العربيّة . أما ألمانيا منجبة « كانت » وشوبنغهور وغيته ونيتشه وشلر وبيتهوفن وفاغنر وغيرهم من العباقرة ، والتي كنت أكنّ لها التقدير والإعجاب ، فقد بتّ أتمنّى لها الانكسار لأنها صادقت تركيا ، عدوّة بلادي ، وعادت روسيا التي صادقتُها وأحببتُها .

في تلك الغمرة من القلق على أهلي ومستقبلي ومستقبل بلادي وردتني رسالة عربيّة من مجهول متكتّم يخبرني فيها أن هناك جمعية سرية تعمل لتحرير سوريا من النير التّركي ، ويدعوني للانضمام إليها . واسمها « س . ح . » (سوريا الحرة) . وهو لا يستطيع البوح بأسماء أعضائها مخافة أن تدري بهم الدولة فتقتصّ من ذويهم . ولكنني رفضت الانضمام قبل أن أعرف شيئاً عن القائمين بالجمعية ومكانتهم بين المهاجرين . وعرفت من الرجل فيما بعد أن من بين الأعضاء صديقي نسيب عريضه . فانضممت . وعندما تخرّجت من الجامعة وسافرت إلى نيويورك أُنيطت بي جميع مهام الجمعية . فبقيت أقوم بها إلى أن ضاق وقتي دونها . فتنازلت عنها لغيري . فما لبثت الجمعية أن تضعضعت وتلاشت .

وفي تلك الغمرة عينها اتّفق أن افتتحت روسيا قنصلية لها في سياتل . واتّفق أن زرت القنصل للتعارف لا أكثر . فنتج عن زيارتي أن أصبحت السكرتير المعاون في القنصلية ، أعمل ساعتين بعد الظهر لقاء راتب شهري قدره خمسون دولاراً[1] . وهذا الراتب ازداد بعد عام فأصبح ٦٥ دولاراً . إنّه لراتب « ضخم » لطالب مثلي كان يعيش بثلاثين دولاراً في الشهر . وهكذا بات في إمكاني أن أرفع أثقالي عن أخويّ في والا والا ، وأن أساعدهما في إمداد الأهل بالمال .

إن السفينة تجري — وإن عاكستها الرياح .

١ هذا الحدث مروي ببعض التبسط في كتابي «أبعد من موسكو ومن واشنطن» الطبعة الأولى ص٩٢.

بصيص نور

صرفتني الدروس و « الفنون » وأخبار الحرب والمجاعة في لبنان ، وأعمالي في القنصلية وفي « س . ح . » ، عن نفسي وما كان يلازمها من وحدة ووحشة وحيرة وكآبة . والأصحّ أنها لم تصرفني ، بل ألهتني موقّتاً عن ذلك الصوت في داخلي الذي ما انفكّ يسألني عن الحياة ومعناها ، والموت وما بعده ؛ وعن الكون العجيب ، الشاسع ، اللامتناهي والغاية من وجوده بكلّ ما فيه من أنواع لا تحصى ولا تستقرّ على حال ؛ فهي تنحلّ إذ تنمو ، وتنمو إذ تنحلّ . ولكلّ منها حيّز لا يتعدّاه ضمن الزمان والمكان ؛ ولكلّ منها نصيبه من « الفراغ » أو « الفضاء » الذي يبدو كما لو كان لا شيء .

وأنا لا أعرف كائناً في الأرض يفكّر في هذه الأمور غير الإنسان . وأعرف أن الإنسان يشقى بتفكيره إذا هو لم يلقَ جواباً مقنعاً على كلّ سؤال يطرحه على نفسه . أيكون أنّ الفكر مصيبة ابتلي بها الانسان دون سائر الكائنات ؟ أيكون أنّ الذي لا يفكّر خير من الذي يفكّر ؟ أيكون الحيوان أسعد حظّاً في حياته من الانسان ؟ ومن أين الفكر ؟ ولماذا ؟ ألعلّه لا لشيء إلا لإثارة الشكوك والظنون ، والتفتيش عن أشياء لا طاقة له على إدراكها ؟ أم لعلّه المفتاح لجميع ما أغلق علينا من مشكلات الوجود ؟ إذا كان الفكر عاجزاً عن حلّ المشكلات التي يثيرها فمن أين قدرته على إثارتها ؟ ولماذا عناده في معالجتها ، وأمله الذي لا يموت في الوصول إلى حلول لها ؟

وأعلم أن الناس طبقات فوق طبقات من حيث مقدرتهم على التفكير وعنادهم في ملاحقة أيّ فكر من أفكارهم . فبين الذين في أسفل والذين في

أعلى مثلما بين الأرض والسماء . أولئك أفكارهم في بطونهم وظهورهم وجيوبهم . وهؤلاء جيوبهم وظهورهم وبطونهم في أفكارهم . فلماذا التفاوت في المقدرة على التفكير وفي الميل إليه ؟

وأعلم أنّ للإنسان حسّاً ليس مثله لأيّ مخلوق آخر على الأرض . فالحيوان يحس اللذة والألم ، والخوف والطمأنينة . ولكن لا كما يحسّها الانسان . والحيوان لا يعفّ عن أيّ لذة إذا كان الحصول عليها ضمن طاقته . أما الانسان فبعض ملذاته « حلال » وبعضها « حرام » . وهو يشعر بـ « الخطيئة » وبشيء دعاه « وخز الضمير » . والناس من حيث إحساسهم اللذة والألم ، والجمال والبشاعة ، والفضيلة والرذيلة ؛ ومن حيث شعورهم بوخز الضمير - طبقات فوق طبقات. أيكون أن الحلال والحرام، والجمال والبشاعة، والفضيلة والرذيلة، والضمير وما يوحيه الضمير ، أوهام في أوهام، وكلمات في القاموس لا أكثر؟ وما دام الناس يحسّونها بدرجات متفاوتة ، فمن أين هذا التفاوت ؟

وأعرف أن أعمار الناس قد تطول إلى المئة أو أكثر من السنين . وأنها قد تقصر فلا تمتدّ لأبعد من يوم أو ساعة . فما هي القدرة التي تفصّل الأعمار ؟ وأين هي ؟ وهل لها في تفصيلها نهج لا تحيد عنه ؟ أم أنها عمياء تفصّل كيفما اتّفق ؟ أم أن تفكيرنا في قوّة عمياء أو مبصرة هو ضرب من البلاهة ؟ إذن ، فالعدل كذلك ، والنظام ، والحكمة ، وحبّ البقاء ضروب من البلاهة ، أو مفردات في القاموس لا أكثر . وإذن من أين جاءتني تلك اللمحة الساحرة التي وصفتها في فصل سابق من « المرحلة الأولى » من هذا الكتاب ، إذ كنت جالساً وحدي على صخرة من صخور الشخروب فأحسستني كالماشي في نفق مظلم ، ثم أحسست النفق ينفرج ، وأبصرت نوراً ضاعت فيه كلّ الحدود بيني وبين الكائنات ؟[1]

---

[1] انظر ص ٢٤٩ – ٢٥٠ من « المرحلة الأولى » من هذا الكتاب .

كنت في مثل ذلك الجوّ من القلق النفساني عندما جمعتني الظروف في بدء سنتي الثالثة بشاب اسكتلندي كان يدرس الصيدلة في الجامعة . وكان شريكي في غرفة صغيرة اكتريناها معاً في أحد البيوت المجاورة للجامعة . وكنت ، من بعد أن ارتحت إليه وارتاح إليّ ، أدعوه « بل » (مختصر وليم) وكان يدعوني « ميشا » .

كان رفيقي « بل » خافت الصوت ، هادىء الحركات ، كسير الجفن . وكان يبصر الكون من خلال نظارتين سميكتين . وله كمان لا ينفكّ يعزف عليه في أوقات فراغه ، ولكن من غير أن يزعجني . وكنت أُسرّ بعزفه .

مرّ شهران وأنا أرقب « بل » مساء كلّ خميس من كلّ أسبوع يتأبّط كمانه وينزل إلى المدينة فلا يعود حتى الساعة العاشرة . أخيراً سألته في ذلك فأجابني أنّه عضو في جمعية تعقد اجتماعاتها مساء كلّ خميس ، وأنّه يتبرّع بالعزف على كمانه في كلّ اجتماع .

قلت : وماذا غير العزف في اجتماعاتكم ؟

قال : محاضرات ومناقشات في المبادىء التي قامت الجمعية لنشرها .

— وما اسم الجمعيّة ؟

— الجمعية الثيوسوفيّة .

— وما هي مبادئها ؟

— أهمها التقمّص وميزان الثواب والعقاب .

— التقمّص ؟ ! وما معنى التقمّص ؟

— معناه أن كلّ من يموت يعود بعد فترة من الزمن فيولد من جديد — كما تفعل الحبّة بالتّمام . فهي تموت لتولد حبّة من جديد .

— أتعني أنّني سأموت ثم أعود فأولد في مثل جسمي الحالي وظروفي الحاليّة ؟

ـ لا . بل تولد في جسد جديد يُهَيّأ لك حسبما تقتضيه أعمالك وميولك ومواهبك وعلاقاتك التي حملتها معك عند الموت من حياتك الحاضرة .

ـ ومَن الذي يهيء لي ذلك الجسد ؟

ـ القائمون على ميزان « التكافؤ » أو ميزان الثواب والعقاب .

ـ وما هو ذلك الميزان ؟

ـ إنّه النظام القاضي بأن تحصد مثلما تزرع . فمن زرع الزؤان حصد الزؤان . ومن زرع القمح حصد القمح . الخير بالخير . والشرّ بالشرّ . حتى الأفكار والنيّات تخضع للنظام .

ـ إذن يبقى زارع القمح يحصد القمح . وزارع الزؤان يحصد الزؤان إلى الأبد .

ـ بل القصد من تكرار الولادات أن يدرك زارع الشرّ خطأه فيزرع الخير . وذلك لا يكون له إلا بالاختبار ولادةً بعد ولادة .

ـ إذن خلاصك في يدك يا إسرائيل .

ـ أجل . خلاصك في يدك .

ـ ولا دخل لله في تفاوت الحظوظ بين الناس ؟

ـ على الإطلاق . وإلا فأيّ العدل هو عدل الله يضرب جنيناً في بطن أمّه بالعمى ، أو بالبكم ، أو بالكساح والبله . ويمنح الآخر القوة والعبقرية والجمال ؟ إنّما يكوّن كلّ منّا حياته الآتية من حياته الحاضرة . فمن مات وبه ميل يطغى على باقي ميوله عاد إلى الأرض فكان ذلك الميل أبرز مواهبه . هكذا عزف موتسارت على البيانو وهو في الرابعة من عمره . وهكذا نبغ نابوليون في فنون الحرب وارتقى العرش . وكان جنديّاً مجهولاً . ثمّ مات منفيّاً لأنهّ في حياته ما استحقّ تلك النهاية .

ـ على رسلك يا بلّ . إنّك لتكاد تعطّل عليّ تفكيري . إذا صحّ قولك

فما بالي لا أذكر شيئاً من حياتي السابقة ؟

ـ وكيف تذكرها وبينك وبينها وهدة الموت ؟ إنّك تنام ليلك ثمّ تفيق فلا تذكر إلاّ القليل القليل من أحلامك.وقد لا تذكر منها شيئاً.فكيف بك تنام نوم الموت ، وتنتقل من جسد إلى جسد، ومن حال إلى حال ؟ وهناك الذين يذكرون، والذين يروون حكايات حيوات سابقات ولكنّ الناس لا يصدّقون .

ـ أتصدّق أنت ؟

ـ أجل . أصدّق .

ـ هنيئاً لك !

طالت المحاورة الأولى بيني وبين رفيقي الاسكتلندي . ولم أكُ من قبلها قد سمعت أو قرأت شيئاً عن التقمّص . وعلى قدر ما استغربت العقيدة واستهجنتها في بدء حديثنا عنها وجدتني ، كلما تماديت في الأسئلة ، وتبسّط رفيقي في الأجوبة والشرح ، أفتح لها عقلي وقلبي أوسع فأوسع . حتى إنني أذهلت « بل » عندما رحت أفسر حياتي ، والحياة إجمالاً ، على ضوء تلك العقيدة . فحسبي منها أنّها ردّت إليّ إيماني بقدرة شاملة ، منظمة ، عادلة ، محبّة ، لا محاباة في نظامها ، ولا زيف . وأنها عوّضتني عن فكرة « الخطيئة الجدّية » و « الدينونة الرهيبة » فكرة الخلاص بجهودي الخاصة . وذلك عن طريق التجربة المؤدية إلى المعرفة . ولان المعرفة لا تكون معرفة إلاّ إذا لم يبق لديها أيّ مجهول ، ولأن تلك المعرفة يستحيل بلوغها في خلال عمر واحد مهما طال،فالعقيدة قد جعلت العمر حركة موصولة تتخلّلها فترات انتقال من جسد إلى جسد، ومن حال إلى حال، وهي الفترات التي ندعوها «الموت».

وعلامَ لا ؟ علامَ لا يفسح الله للانسان مجالاً للمعرفة غير سنوات معدودات ، والزمان كلّه في قبضته ؟ وها أنا ــ الانسان الجاهل ، القاصر ــ لا أتوقّع من ولد يدخل مدرسة ابتدائية أن يخرج منها بعد سنة بشهادة دكتور في

الفلسفة . فكيف يريدنا الله أن ندخل مدرسة الحياة لننتهي منها في عقدين أو ثمانية عقود من السنين بشهاده تخوّلنا دخول « ملكوته السماوي » و « فسيح جنانه » ؟ وإلاّ فمصيرنا إلى الهاوية حيث النار لا تنطفىء والدود لا ينام . . .

ثمّ حسب العقيدة أن تفسّر لي صفات الناس وصلاتهم بعضهم ببعض ما بين أبوّة وأمومة وأخوّة، وصداقة وعداوة. إنها صفات وصلات موروثة عن حيوات سابقات . فلا اعتباط فيها ولا مصادفات . وهي التي تحدّد الوراثة والبيئة . وليست الوراثة والبيئة هما اللتان تحدّدانها . وهي «القضاء» . وهي« القدر ».

وأيّ بأس على العقيدة في أنّ « العلم » لا يقرّها ؟ وماذا يعرف العلم ؟ إنّه لا يزال في أول طريقه من درس المحسوسات . وفي كلّ يوم له افتراضات جديدة تمحو افتراضات قديمة . وهنالك مجاهل كثيرة في نفس الانسان يتحاشى العلم اقتحامها . لأنّه — وقد تقيّد بالاختبار الحسّي — ليست له الوسائل لاقتحامها ، ولا هو يستطيع « تشريحها » في أيّ من مختبراته . ولماذا أصدّق استنتاجات عالم في مختبره ، ولا أصدّق استنتاجاتي الخاصة ، أو استنتاجات رجال أمثال فيثاغور ، وأفلاطون ، والمسيح ، وباتنجالي وغيرهم في أمور تتعلق بأحاسيس وهواجس ورؤى لا تدخل في نطاق العلم واختباراته ؟ إن يكن للعالم مختبره فنفسي هي مختبري . وإن أمضى العالم في مختبره بضع ساعات من يومه ، فنفسي معي في الليل والنهار ، وأنا أجري فيها اختباراتي في كلّ دقيقة من حياتي . وهي تسجّل كلّ ما أختبره بدقّة أين منها دقّة الأجهزة الكهربائيّة والالكترونيّة .

خلاصة القول إن عقيدة تكرّر الاختبار بتكرّر الأعمار بغية المعرفة الكاملة والحريّة المثلى باتت الركيزة الكبرى التي تقوم عليها فلسفة حياتي من بعد تلك « المصادفة » التي جمعتني برفيقي الاسكتلندي وقادتني إلى الحوار الذي جرى بيني وبينه . فالحياة أكثر من مهزلة تبتدىء في المهد وتنتهي في اللحد لتعود

فتتجدّد إمّا في غبطة أبديّة ، أو في عذاب أبديّ . أو لتمّحي بالموت وكأنها لم تكن . والانسان أكثر من ألعوبة في يد القدر — حتى وفي يد الله . إنّه الشرارة الإلهيّة المغلّفة بشتى الغُلُف والمتوهّجة توهّجاً لا ينقطع ولا ينفكّ يحرق تلك الغلف على مدى الزمان إلى أن ينطلق منها نوراً يملأ الزمان والمكان . والتوهّج لا يكون إلا على قدر الشوق إلى الانطلاق من الغلف . لذلك كانت الحرارة التي يبعثها فينا شوقنا إلى الجمال والمعرفة والحرية مقياس « تقدمنا » . وكان التمسّك بالفضيلة والخلق الكريم والمثل الأعلى مقياس أشواقنا. فهذه أكثر بكثير من مفردات في القاموس. أما الرذيلة والخلق الذميم والاستهتار بالمثل العليا فدخان وسخام وقتام من شأنها أن تحجب الشرارة الإلهيّة وأن تحدّ من توهّجها .

وأوغلت بعدئذ في درس التعاليم « الباطنية » منذ أقدم العصور ، وفي درس الديانات « السماوية » وغير السماوية . فأدهشني ما بينها من تقارب في الهدف والوسيلة على بعد الشقة في الزمان والمكان . فلا « الفيدا » ولا « الزندافستا » ببعيدة عن « أسرار هرمس » . ولا « الطاو » عند لاوتسو بغريب عن « الآب » عند يسوع . ولا « النرفانا » في « دهامابادا » إلا صورة أخرى من صور « الملكوت السماوي » في الانجيل . والحلاّج وابن عربي وغيرهما من المتصوفة العرب يلتقون على صعيد يكاد يكون واحداً مع فرنسيس الاسّيزي وجاكوب بوهمِه وسويدنبرغ ووليم بلايك وراما كريشنا وغوردييف وأوروبيندو ومن نحا نحوهم في سائر أقطار العالم .

إنها لدنيا تحفل بالشوق إلى « الحقيقة » وإلى كشف الوسائل التي تمكّن الانسان من بلوغها كيما يخلص بها من ربقة الجهل والألم والموت . ولا ضير عليها أن تكون غير الوسائل التي يعتمدها العلم . بل قد تكون هي الطريق الأقرب إلى الهدف من تلك التي يسير عليها العلم . والجهل كلّ الجهل في أن يتعامى عنها أيّ مفتّش عن حقيقة نفسه وحياته .

عودة « الفنون »

« نيويورك . ١٣ نيسان ١٩١٥

أخي ميخائيل .

لم أكن بالناسي ولا أستحقّ كلمات التوبيخ منك على قصوري في المراسلة . بل أراني أحوج إلى كلمات المؤاساة والتشجيع . . .

كنت ضعيفاً يا أخي كلّ مدة انقطاعي عن مكاتبتك . ضعيفاً بالروح ومريضاً بالجسد . . . وقد ظننت أن كلّ ما أطلبه في هذه الحياة قد فرغت يدي منه ولا أمل لي برجوعه . . .

أنا قويّ الآن إلى درجة أنّني أتمكّن من أن أعانقك روحيّاً وأنبئك أنّ آمالي بجملتها نهضت من قبرها . . .وإني ،وإن كنت في الحقيقة لا أزال بلا مركز ولا بازة ولا مساعد ولكني قويّ إلى درجة تحملني على التأكيد أن مشروعي الأدبي « الفنون » سيحيا عما قريب .

أمّا أنت أيها الصديق ، بل الشريك الوحيد الذي ساعدني روحيّاً في تعبي وقاسمني العاصفة والأيام السوداء التّي هبط بها مشروعي السابق ، وآساني في أحزاني وأكداري ، فأعانقك وأضمّك إلى قلبي وأصافحك بيد حارة قويّة تودّ أن تنضمّ إلى يدك في العمل الأدبي الذي انتدبنا نفسينا للقيام به .

أنا الآن أشتغل موقّتاً في إدارة السائح بالتحرير والتحبير . . . فهل لك أن تشرح لي عجرك وبجرك وتخبرني بما تنويه وما تبنيه من المستقبل وما تذخره من الآمال ؟ أقبّلك على أمل أن أسمع منك في الحين القريب .

نسيب عريضه »

« سياتل . ١٧ نيسان ١٩١٥

عزيزي نسيب

عقرب ساعتي يقترب من منتصف الليل . لكني قبل أن أعانق وسادتي وأسلم نفسي لإله الغيب أحبّ أن أحدّثك حديثاً من الروح إلى الروح . . .

دعني قبل كل شيء أهنئك بعودة آمالك . فتلك عندي أكبر غلبة نلتها في عراكك مع الدهر إلى الآن . . . فالروح التي تُطرَح في مصهر التجارب التي مرت بك وتخرج من هناك سالمة ، قوية ، متجدّدة ، لروح تقدر أن تخلق لها في هذا البقاء مجالاً واسعاً للعمل ، وميداناً للكفاح الأدبي .

نسيب ! مسكين هو الشاب الذي لا تعركه الحياة وتعجنه لتصنع منه خبزاً طاهراً ، جديداً . . . أنا لا أعرف قوى نفسي لأني – بل لأن الحياة لم تجرّبها بعد . أمّا أنت فقد نزلت إلى قعر الجحيم ورجعت منه سالماً . أفلا تعدّ ذلك غلبة باهرة ؟ . .

تحبّ أن تعرف عجري وبجري ، وما أنويه وما أبنيه وما أدّخره من الآمال . . . تعرف أنّي طالب حقوق . ألا ترى في ذلك سرّاً ؟ وماذا دفعني لدرس الحقوق مع تعلّقي بالأدب وميلي إلى الجهة المعنوية من الحياة أكثر من المادية ؟ . لا أدري يا أخي . وجلّ ما أعرفه أني لم أباشر درس الحقوق لغاية مادية ، عالية ، فارغة . بل لاعتقادي في أول الأمر أن معاطاتي لهذا الفنّ تقرّبني من الانسان وخفايا روحه . . .

رغبت في درس الحقوق كذلك من الجهة الفلسفية لأبحث عن السبب الذي حمل العالم على سنّ شرائع للمعيشة ، والذي أعطى القويّ الحقّ بتقييد حريّة الضعيف ، والأقليّة أن تسود الأكثريّة . . .

ويا لخيبة الأمل لما قضيت سنتي الأولى فلم أجد أثراً لما كنت أطلب . بل

وجدت عوض ذلك أساتذة تسلّحوا بكلّ الشرائع المكتوبة وغير المكتوبة وأخذوا يحشون بها رؤوس تلاميذهم ساعةً بعد ساعة ويوماً تلو يوم . ولا غاية لهم من ذلك سوى أن يجعلوا تلاميذهم آلات تقدر بعد خروجها من المدرسة أن تكسب كذا وكذا من الدراهم في اليوم أو الأسبوع أو الشهر . وهذه ، بالإجمال ، هي روح المدارس الأميركيّة كلها — روح ماديّة ، تجاريّة ، أرضية . . .

هذه مأساة داخلية أكشفها لك يا نسيب لأنّك من نفسي بمثابة أخ . مأساة مَن يجد نفسه في وسط غريب عن روحه ، بعيد عن قلبه . . .

تقول لي إن « الفنون » ستحيا . وأنا أحبّ أن أصدّق ذلك من كلّ قلبي . لكنك لم تذكر لي شيئاً عن الواسطة التي ترغب أن تحيي الفنون بها .

تعبت يدي من الكتابة . وعندي بعد الكثير ممّا أود مخاطبتك بشأنه . فدعني أودعك إلى حين قريب .

صديقك ميخائيل »

« نيويورك . ١٩ ت ٢ سنة ١٩١٥

عزيزي ميخائيل .

. . . لا أدري . ربما كنت من الحطام الذي لا قبل للدهر بتصليحه وإرجاعه إلى ما كان عليه . ربما كنت غير نافع للجهاد الحقيقي بعد إخفاقي في جهادي العنيف . فإنّي أشعر بأني مركب قد تكسّر على صخور اليأس والخيال المضلّل . . . وأراني أودّ الافصاح عن أكثر من ذلك . ولكني عاجز فقد أفقدني الدهر فصاحتي . وأشعر أني بحاجة قصوى إلى صديق مثلك يعالجني المرة بعد الأخرى ولو بكلمة واحدة مشجّعة .

كلّ ما يبلّل ظمإي الروحي الآن هو اشتغالي وتعللي بالسائح مجاهداً

في سبيل جعله جريدة حقيقية ، واستعدادي للشغل الكبير في س . ح . وهذا الأخير أراه أمامي مثل بارقة الأمل في ليلة اليأس . وعلمي أنّك من رجال هذا المشروع يفرّح قلبي ويشجّعني على نسيان كلّ سيّئة جناها الزمان . . .

لا شكّ أنّك عاتب عليّ لتغييري بعض الكلمات في « قدس الأب المحترم ». تلك القطعة الّتي نالت مكاناً من استحسان الأدباء في كلّ أنحاء أميركا.

أخبرك أنّا عزمنا على إصدار عدد كبير ضخم من السائح في أول العام يضمّ أفكار أكابر الأدباء وصورهم ويكون مرآة عصرية تحفظ تذكاراً . فأرجوك ولو كان رجائي ثقيلاً عليك فوق دروسك ومتاعبك أن تتحفني بمقالة وترسل إليّ رسمك . . . واسلم لأخيك

نسيب عريضه »

وكان قد عنّ لي رأي في إعادة « الفنون » إلى الحياة بمعونة الرفاق في س . ح . فدارت مخابرات بشأنه بيني وبين نسيب . ولكنه لم يلبث أن اتّضح لنا فقر الأعضاء لا بالمال وحده ، بل بالمؤهّلات الّتي ينبغي أن تتوافر في أناس تضافروا لتحرير بلاد ونشر عقيدة . فقد كتب إليّ نسيب في ١٨ كانون الثاني ١٩١٦ يقول :

« مما يشدّد عزمي على الثبات في عملنا الجديد أنّك من المجاهدين معنا . ولكني لا أكتمك ما يخامرني من الشكّ وعدم الثقة بكثيرين من الأعضاء . وإني أستضعف كثيراً أ . ف . (رئيس الجمعية) لطريقته الّتي استعملها في اكتساب الأعضاء وضمّهم على عواهنهم إلى القوم دون استقراء واستقصاء . وأستهجن طريقة التعاظم والتظاهر بالأهمية وسعة الانتشار حين أن الأمر معروف. . . وكثيراً ما يذكّرني بانتفاخ الضفدع . فلماذا كلّ هذا « البلّف » ؟ الأولى أن نكون قلالاً ثابتين وكثار الأعمال من أن نتظاهر بأنّنا كثار وقلال الأعمال . . . »

فأجبته بكتاب أبسط له فيه كيف تمّ انضمامي إلى الجمعيّة بعد مراسلات دارت بين أ . ف . وبيني . وكيف أنّني انخدعت بمبالغاته في أهميّة الجمعية وانتشارها ، في حين كنت أشعر من رسائله أن الحركة تكاد تكون صبيانيّة . واختتمت الكتاب بقولي :

« إذا كنتُ قد تأكّدتُ في هذه المدة ضعف المشروع فإني — من جهة أخرى — قد تمكّنت من أن ألمس عظيم حاجتنا إلى س . ح . أو جمعيّة تقوم مقامها . وأعني جمعيّة سريّة تضمّ قوّتنا الأدبيّة وتديرها بحكمة لأجل تنوير سوريا وتخفيف أثقالها وكشف معنى الحياة لأبنائها . . . إنّ احتكاكنا بالغرب لا بدّ أن يحرّك فينا قوى حيّة كانت إلى الآن راقدة تحت رماد الجهل وسلطة الماضي . وهذه القوى يخشى عليها أن تذهب سدى كمياه جداول صغيرة تجري في رمال الصحراء . لذلك يجب ضمّها على قدر الإمكان وتوحيدها لتزداد قوّتها الفعّالة ويتضاعف تأثيرها . . . وبديهيّ أنّني أفضّل بقاء س . ح . وتنظيفها وتعديل خطّتها على تأليف جمعيّة جديدة . . .

عدد رأس السنة من السائح فاق كلّ ما كنت أتوقّعه منه . . . قصيدتك القصيرة لطيفة ، لطيفة ، لطيفة . فأكثر من أمثالها . . . المقالات أكثرها من نوع « حطّ بالخرج » . . . هات واكتب لي قدر ما كتبت لك . »

وفي الثاني من آذار ١٩١٦ جاءني من نسيب كتاب مطول يتحدث فيه عن تأسيس شركة في نيويورك لإصدار مجلة عربيّة محترمة . وقد ورد في آخره ما يلي :

« مقالتك « على مفرق الطرق » أحدثت ضجّة لم تسمع أنت إلاّ بالقليل من صداها . ولا شكّ أنّك استخففت بنعيق بعض غربان الأدب وتحاملهم عليك . قد أسكتت هذه المقالة أكثر من طفيلي على الأدب . ومقالة أخرى شديدة من هذا النوع تقضي على الباقين . فهيّء قلمك .

نعوم مكرزل صاحب « الهدى » يسعى لتأسيس نقابة صحافيّة . ونجيب دياب (صاحب مرآة الغرب) منقاد له أو يراوغ باستحسانه . . . قد ذكرت لك ما ذكرت لعلمي بحاجتنا إلى نقابة أدبيّة تكون جامعة للأدباء الحقيقيين فتساعدهم على أن لا تذهب كتاباتهم ضياعاً كما هي ذاهبة الآن لمنفعة أصحاب الجرائد دون منفعة مادية لكاتبيها . فنقابة أدبية في المهجر إذا اجتمعت الكلمة عليها تصون حقوق الأدباء وتحتّم على كلّ كاتب من أعضائها أن لا يطرح كتاباته على أصحاب الجرائد والمجلات بلا مقابل . هذا موضوع أقترح عليك أن تبحث فيه وتنبئني عن رأيك . . .

أودّ أن أراك في نيويورك كثيراً . وأتصوّر أنّنا سنعتزّ بك كثيراً . بل قد تكون واسطة لمساعدتنا على البدء بطور جديد زاهر في الآداب . . . »

فكان جوابي بصدد « النقابة » كما يأتي :

« فكرت بنقابة أدبيّة من زمان . وكنت — ولا أزال — أتمنّى أن تساعدني الأحوال على زيارة نيويورك لأبادلك الأفكار بخصوصها ، وأسعى قدر استطاعتي بتأليفها . لكنّ النقابة التي أفكّر بها ليست — كما يظهر لي الآن — كالتي تصوّرها أنت لذاتك . نقابتي ترمي :

أولاً — إلى ضمّ خيرة أدبائنا في المهجر وجعلهم قوّة ذات تأثير على مجرى حياتنا الأدبية .

ثانياً — إلى ترقية الذوق الأدبي بين قرائنا .

ثالثاً — إلى خلق واسطة للتقريب بين العاميّة والفصحى .

رابعاً — إلى نشر فنّ التمثيل وتعزيزه بين السوريّين .

خامساً — إلى تعزيز فنّ الكتابة ورفعه إلى درجة لا يصلها أحد بدون استحقاق .

سادساً — إلى تعزيز الصحافة السورية أو العربيّة بمناهضة كلّ الجرائد

والمجلات التي لا تنفع ولا تضرّ ، والتي تضرّ أكثر ممّا تنفع . . .

سابعاً – إلى مؤازرة كلّ شاب يظهر موهبة كتابيّة حقّة .

ثامناً – إلى نشر المبادىء الأدبيّة . . . ونقل أحسن ما تقدر أن تصل إليه من الآداب الأوروبيّة إلى اللغة العربيّة . لذلك يجب تأليف لجنة للترجمة . . .

وفوق كلّ شيء يجب على النقابة أن تدير دفّة حياتنا الأدبيّة بعد أن تجعل لذاتها مقاماً معتبراً ، رفيعاً في عيون الغير . يجب أن يكون الانتساب إليها شرفاً لا يناله أحد إلاّ من بعد أن يبرهن أنّ عنده ما يقدّمه لخزينة آدابنا العموميّة .. »

« نيويورك . ٥ نيسان ١٩١٦

عزيزي ميخائيل – لم أتمكّن من الكتابة إليك لانشغالي كلّ هذا الأسبوع بإعداد لوازم الفنون . وقد كلفت الأخ راغب[١] لينبئك بهذا الخبر . وقد فعل . فعسى أن تكون رسالته قد وصلتك وقاسمتني الفرح . إن المجلة لولا مساعدة راغب المادية ما كانت لتنبعث من الأموات . وإني واثق من نجاحها هذه المرة لأسباب عديدة . . . وأهمّها استعداد الناس لقبولها هذه المرة ، الأمر الذي شعرت به وشعر به كلّ مراقب . . . وقد حسبنا مصاريف المجلة بارة بارة فلم تزد على المائتي ريال في الشهر . وراغب مستعدّ أن يقدّم في الحال نحو ألفي ريال . ويظنّ أن الخمسة الباقية سيوجدها من الآن إلى آخر السنة . . .

الآن شعرت بتغيير عظيم في حياتي وصرت أحيا وأحب الحياة . وقد نفضت غبار خمولي وسآمتي . فساعدني الآن يا أخي بما تستطيع . واعلم بأنك تبني معي ولست أنا الباني وحدي . فلنتعاون لعلّنا نبني شيئاً جديداً في تاريخ الآداب . ولعلّ صوتنا هذه المرة لا يخفت كالمرة السابقة .

---

١ أحد الأعضاء في س.ح. ومن أشدهم تحمساً لمجلة « الفنون » .

سأستعمل مقالتك « الشعر والشعراء » القديمة للعدد الأول . هذا إذا لم ترسل شيئاً جديداً . . . وعليك السلام — أخوك نسيب » .

« سياتل . ٢٩ حزيران ١٩١٦

عزيزي نسيب . — وصلني أول عدد من الفنون فقرأت كل كلمة فيه — حتى بعض الاعلانات . . .

أوافيك بتتمّة « الشعر والشعراء » . فقد أنهيتها — والحمد لله — بعد سنتين[1] . في الحقيقة إني لم أنهها بعد . ولكنني وصلت إلى هذا الحدّ منها ثمّ طالعت كتاب المطران دريان في الجرائد العربيّة عن المجاعة في لبنان فتشتّتت أفكاري وطار صوابي ، وأصبحت أنظر إلى كلّ ما كتبته كما لو كان أضحوكة . أهلي يموتون جوعاً وأنا هنا أكتب عن « الشعر والشعراء » . فهل بلادة أكبر من هذه البلادة ؟ ! ولكنني أرسل إليك ما كتبت.وهذا آخر ما أقوله الآن في الموضوع...طالعت انتقاد أحدهم في « فتاة بوسطن » لاستعمالك ألقاب « الشاعر الطائر الصيت » و « فيلسوف الفريكة » و « العصري الحر » الخ . وأظنّه قد كال لك ما كاله عن استحقاق . فليتك تعدل عن ذلك في المستقبل . واسلم لصديقك — ميخائيل » .

« نيويورك . ٢٧ حزيران ١٩١٦

عزيزي ميخائيل . — . . . أنا ساعٍ في جعل العدد الثاني جميلاً في حلّته المطبعية أكثر من الأول... أصحابنا أربابُ « المجلة العربيّة » ساعون لإصدارها على قدم وساق . وهم الآن يطرقون أبواب جبران والريحاني ملحّين عليهما لعقد اتفاقيّة تحصر بهم مقالاتهما . وذلك لأنهم لا بضاعة لهم يُعتمد عليها

---

١ كنت كتبت القسم الأول منها للفنون قبل احتجابها .

ولا من سبيل لمقاومة الفنون والتغلّب عليها إلا بهذه الحيلة . ولكني لا يهمّني إن فقدتُ جبران والريحاني ما دمتَ أنت بجانبي . فقد شبع الشعب من جبران ، وفهمت من الرأي العام أنهم قد بدأوا يقدرون مقالاتك اللذيذة ، الحرة ، الناقدة تقديراً يعلو على كتابات السوى . . .

آه ما أحوجني إليك في نيويورك ! لو كانت الفنون الأولى قطعت عامها الأول بسلام لكنّا الآن جالسين في مكتب واحد ، كلّ إلى منضدته ، نشتغل بقلب واحد لغاية واحدة . ولكن لي أمل بذلك بعد . متى قطعنا المرحلة الأولى بسلام فلا شيء يحول بيننا وبين النجاح . . .

صديقك نسيب »

في الحادي عشر من تموز أرسلت إلى نسيب قصة « العاقر » وكنت قد كتبتها قبل ذلك بثلاثة أيام — كتبتها في جلسة واحدة ما بين التاسعة مساء والثانية بعد نصف الليل . ولم أنته منها حتى أوشكت الدمعة أن تطفر من عيني . وعبثاً حاولت بعد ذلك أن أنام .

بعد ثلاثة أسابيع جاءني من نسيب أن « الفنون » اعتزمت إصدار عدد خاص باسم « عدد سوريا المنكوبة » . وهو يبرر ذلك بقوله : « إنّ للوطن واجباً علينا لم نقضه لا بأقلامنا ولا بأموالنا ولا بقلوبنا » . فأرسلت إليه قصة بعنوان « مهرجان الموت » . وما إن تسلّمها حتى كتب إليّ يقول :

« مهرجان الموت » من القطع التي يقلّ مثلها بين ما تنتجه آدابنا العصرية . . . وإذا صدق ظني فسيكون لها استقبال حسن بين القراء والأدباء ...

قد تأخر عدد سوريا المنكوبة إلى الجزء الخامس . ولذلك ستصدر « العاقر » في الجزء الرابع . . . علمت أن راغب كتب إليك يستقدمك إلى نيويورك . وكنت أعلّل النفس بقدومك في كلّ يوم . وشدّ ما كان عجبي لدى استلامي رسالتك وعلمي أنّك لا تزال محتاراً في الأمر . . . »

إلاّ أنّ حيرتي لم تطل كثيراً . فإلحاح نسيب وشريكه ، ورغبتي النهّاشة في أن أخوض « المعركة » حتّى النهاية حملاني بعد شهرين إلى بابل القرن العشرين ، ولا سلاح في يدي إلا قلمي . ولا مال في جيبي إلا ما يكفيني مؤونة شهر في الأكثر . ولا أقلّ نيّة عندي أن أستغلّ إحدى شهادتيّ من الجامعة في كسب معاشي . أما كنت أحلم بالأدب ورسالته ، وبمجد الأديب ، وأنا بعد على مقاعد المدرسة في الناصرة وفي بولتافا ؟ وها أنا قد بدأت أتذوق ذلك المجد ، وأحسّ جلال المسؤوليّة في القيام بتلك الرسالة . أما الرغيف والكساء والحذاء والمأوى – فربّك كريم . وهو لن يتخلّى عنك .

ماسوني

في ١٨ آب ، ١٩١٦ ، ودّعت القنصل الرّوسي فأثّر بي وداعه عندما فاض الدمع من عينيه ، وعندما أصرّ على تزويدي بتوصيات خطيّة لبعض الدوائر الروسيّة العاملة في نيويورك إبّان الحرب . فقد شعرت بأنّني أودّع صديقاً حميماً ، بل أباً لا يضمر لي إلا الخير ، ويشقّ عليّ كثيراً أن أنأى عنه .

« خذها . خذ هذه التوصيات . فقد تحتاج إليها في مدينة صاخبة كنيويورك ليس لك فيها نسيب أو قريب تستعين به عند الشدّة . » — قالها بصوت متهدّج وبشيء من اللهفة . وكان أبعد نظراً منّي بكثير في ما قال وفعل .

وكنت من قبلها قد ودّعت الجامعة بعد أن نلت منها شهادة الآداب وشهادة الحقوق فلم أشعر بأنّني أودّع حضن « الأمّ المربّية » — Alma Mater — كما يطيب للجامعيين أن يدعوا المعاهد التي منها يتخرجون . فالسنوات الأربع التي صرفتها فيها لم تترك في نفسي آثاراً عاطفية تجعلني آسف للانسلاخ عنها . لقد عرفت شبّاناً طيّبين ، وشابّات لطيفات . ولكنني لم أجد بينهم مَن لو فتحت له قدس أقداس فكري وقلبي لما أحسّ نفسه غريباً ودخيلاً . لذلك عشت ما عشته معهم ودنياي غير دنياهم . ولعلّني المسؤول في ذلك لا هم . فأنا — حتى الساعة — لو شئت أن أعدّ الذين ساكنوني ويساكنونني في دنياي لوجدتهم أقلّ من أصابع اليد الواحدة .

عدت إلى والا والا لتمضية ما تبقّى من الصيف وفي نيّتي أن لا أباشر أي عمل . فلا أطالع ولا أكتب . بل أستريح . لقد كنت في حاجة إلى الراحة . وعندما أفضيت إلى أخويّ برغبتي في السفر إلى نيويورك وقع الخبر عليهما وقع

الصاعقة . لقد كانا يريدان لي أن أبقى في والا والا ، وأن أدخل مكتباً محترماً من مكاتب المحامين فيها . وكانا واثقين من أنّني سألمع في دنيا المحاماة ، وسأبني لي فيها مستقبلاً باهراً . وحاولا أن يثنياني عمّا اعتزمته ، ولكن بدون جدوى . فالمهاميز التي كنت أحسّها في دمي — مهاميز الحرف والحبر والقلم — كانت أقوى من أن تعاند .

ولكنني ، بدلاً من أن أستريح ، ألّفت مسرحية « الآباء والبنون » في ثلاثة أسابيع . وقد اخترت لها ذلك العنوان غير غافل عن أنّه عنوان رواية مشهورة للكاتب الروسيّ تورغينيف . ولم أجد أيّ بأس في ذلك . فالعنوان ليس مبتكراً . بل لعلّه أول ما يخطر في بال أيّ كاتب يريد أن يعالج قضيّة الصراع ما بين جيلين . فهو من هذا القبيل كعنوان « الشعر والشعراء » و « الشرق والغرب » و « الحياة والموت » وما كان على شاكلتها . فالمهمّ في مثل هذه القضايا التي تتشابه فيها الموضوعات والعناوين ، أن لا تتشابه معالجة الموضوع . ولا تشابه على الإطلاق في معالجتي لصراع الآباء والبنين ومعالجة تورغينيف ، لا من حيث الأشخاص ، ولا من حيث الأحداث ، ولا من حيث ما يدور بين الأشخاص من حوار .

وليس الأمر كذلك في العناوين المبتكرة التي لا تخطر في بال أيّ كان . فلو أنّني ألّفت كتاباً واخترت له عنوان « رسالة الغفران » — مثلاً — لكان اختياري انتحالاً مفضوحاً . ولو أن غيري أصدر مجموعة شعرية بعنوان « همس الجفون » لكان عنوانه سرقة مكشوفة . وإني لأذكر في هذه المناسبة شاعراً لبنانياً اتخذ لمجموعة من شعره عنوان « أرجوحة القمر » . والكلمتان واردتان في قصيدة لي عنوانها « أوراق الخريف » . وفيها أخاطب الأوراق المتناثرة فأقول : « يا مرقص الشمس ويا أرجوحة القمر » . وعندما قيل له إنّه استعار عنوانه من تلك القصيدة كان جوابه أن « أرجوحة » و « القمر »

كلمتان واردتان في القاموس . فهما مباحتان للجميع . وفاته أن تزاوجهما بتلك الطريقة غير وارد في القاموس !

وعلى ذكر العناوين أريد أن أروي للقارىء حادثة غريبة من باب توارد الخواطر . فبعد عودتي إلى الوطن عام ١٩٣٢ طلب إليّ إلقاء العديد من الخطب والمحاضرات في شتى الأندية والمعاهد ما بين لبنان وسوريا وفلسطين. وعندما شئت جمعها ونشرها في كتاب رحت أفكّر في عنوان مناسب ينمّ عن مضمونها . وكلّها يعالج قضيّة الانسان ودورانه حول ذاته الصغرى لينفذ منها إلى ذاته الكبرى —من المحدود فيه إلى اللامحدود— من الأرض إلى السماء — من الانسان إلى الله . فهو في طريق العودة إلى مصدره الإلهي . وضعت من العناوين نحو العشرين.فلم يرضني أيّ منها.وبغتة خطر لي عنوان « زاد المَعاد » فسرّي عني في الحال . وشعرت أنّه العنوان الأمثل . فالذي في الكتاب ليس غير زادٍ لطالب العودة إلى مصدره . وحسبت أن العنوان هبط عليّ هبوط الوحي .

ولشدّ ما أدهشني ذات يوم ، وبعد صدور الكتاب بعام ، أن ألتقي رجلاً غريباً في مكتبة من مكتبات بيروت ، وأن يتناول ذلك الغريب نسخة من كتابي كانت على منضدة أمامه ، فيقلّبها هنيهة في يده ثمّ يفرك جبهته كمن يستعيد ذكرى بعيدة ، ويقول لصاحب المكتبة :

« زاد المعاد . . . زاد المعاد . . . لكأني أذكر كتاباً قديماً بهذا العنوان . وهو أكبر حجماً من هذا الكتاب . وأذكر أن في عنوانه أكثر من هاتين الكلمتين . زاد المعاد . . . آ ! زاد المعاد في هدي خير العباد . ذلك هو عنوانه الكامل » . وأرجو أن يصدّقني القارىء إذا قلت له إنّني لم أكن قد أبصرت ذلك الكتاب في حياتي ولا سمعت به ! وحتّى اليوم لم يحملني فضولي على التفتيش عنه والوقوف على ما فيه .

ما كدت أفرغ من تأليف « الآباء والبنون » حتى انكببت على مطالعة مجلّد انكليزيّ ضخم كان أخي أديب قد جاء به حديثاً إلى البيت . وعنوانه : Morals and Dogma (الآداب والعقيدة) . وهو كتاب جمعه، أو وضعه ، ماسوني كبير وفيه بحث مستفيض للعقيدة الماسونيّة ، وشرح وافٍ للرموز الكثيرة التي ترافق كلّ درجة من درجاتها . ولكنّه يتحاشى ذكر الأسرار التي لا يصحّ الوقوف عليها لغير الماسونيّين .

كنت أعرف أن أخي أديب ماسوني ، وأنّه كان رئيس المحفل في والا والا لتلك السنة . ولكنّني لم أتحدث إليه مرّة واحدة في الجمعية ومعتقداتها. إذ أنّني ما كنت أحسبها تملك عقيدة حريّة باهتمامي . أما من بعد أن طالعت ذلك الكتاب فلم يذهلني أن أرى الماسونيّة تملك عقيدة على قدر ما أذهلني أن أرى المؤلّف يتغلغل في عقائد سحيقة في القدم ليظهر أن الماسونيّة وثيقة الوشائج بالحقائق التي اهتدى إليها قدماء المصريين ، والكلدانيين ، والهنود ، والفرس ، والعبرانيين ، واليونان وغيرهم ، والتي كانوا يغلّفونها بشتى الرموز حرصاً عليها من الفساد في أيدي الجماهير الذين لا قبل لهم بفهمها .

عجيب هو الفكر ! فهو منذ أقدم العصور ما انفكّ يحاول الوصول إلى « الحقيقة » — حقيقة ذاته وحقيقة الكون الذي هو فيه . ومنذ أقدم العصور أفضت به محاولاته إلى « أسرار » تضيق بها الحروف والمقاطع والكلمات . فالتجأ إلى الرموز المحسوسة يقرّب بها إلى الأذهان فهم ما هو فوق المحسوسات . فكانت الخنفساء الذهبيّة ، والحيّة ، والسمكة ، والثور يحمل على قرنيه الشمس ، والثور المجنّح ، وأبو الهول ، والأهرام ، والمثلّثات ، والمربعات ، والمكعبات ، والدوائر ، والأعداد المقدسة كعدد ٣ و ٧ و ٩ وغيرها وغيرها مما يصعب حصره . وهذه الرموز لم تلبث أن قامت في أذهان الجماهير مقام المرموز إليه. لأنّه فوق طاقة الجماهير أن تفكّر في المجرّد والمطلق. ولذلك تحوّلت

جميع أديانها وعباداتها إلى طقوس متحجرة ومراسم لا روح فيها ولا حياة .

إلاّ أن الأرض لم تخلُ يوماً من نخبة مختارة تفهم معنى الرمز فلا توليه من القيمة والأهميّة فوق ما يستحقّ . وهذه النخبة المختارة قد سلكت شتّى المسالك في الحفاظ على ما اهتدت إليه من حقائق وفي نقله إلى الناس . وفي جملة تلك المسالك تأليف الجمعيات السريّة وتدريب المنتمين إليها على تقبّل «الحتمية» لا دفعة واحدة ، بل على مراحل أو درجات . ومن هنا الدرجات الماسونيّة .

وعجيب هو ابن اليوم ! فهو يؤمن أوثق الإيمان بأنّه وحده يملك المفتاح إلى قلب « الحقيقة » . وذلك بالوسائل التي استنبطها له العلم الحديث . فكأنّ الذين بنوا الأهرام ومعابد الأقصر ؛ والذين ألّفوا « المهابهاراتا » و « الرامايانا » و « الزندافستا » والالياذة ؛ والذين خلقوا الأساطير والفنون والفلسفات اليونانيّة ، والذين حملوا إلى الناس التوراة والانجيل والقرآن — كأنّ هؤلاء وكثيراً غيرهم من رسل الفكر والروح لم يكونوا ، في نظر العلم الحديث ، غير ضالّين أو مضلّلين . وكأنّ جميع ما فعلوه وقالوه خرافات وأوهام . أو كأنّ الفكر بات اليوم غير ما كانه بالأمس . فهو إن لم يكن ملجماً بلجام الاختبارات الحسيّة كما هي الحال مع العلم الحديث فجميع استنتاجاته هراء في هراء ولا وزن لها على الإطلاق .

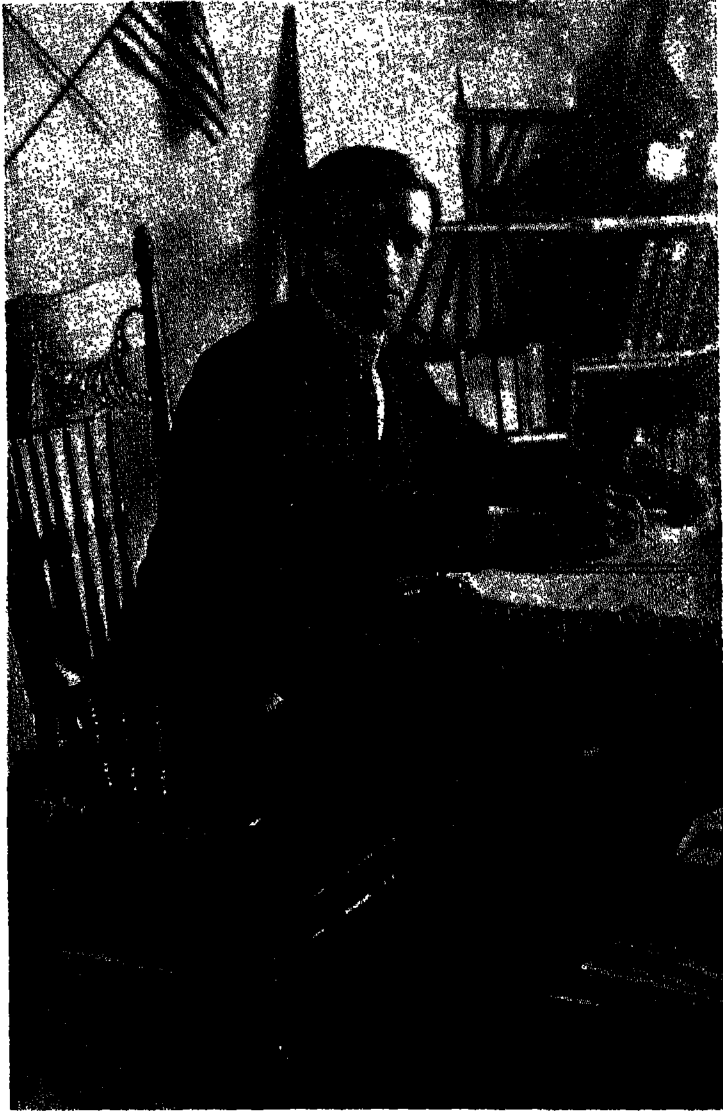
قال لي أخي أديب ، وكان ، كما أسلفت ، ماسونيّاً متحمّساً لماسونيّته ، وهو اليوم واحد من قلائل في الولايات المتحدة الذين بلغوا الدرجة الثالثة والثلاثين — آخر وأعلى درجة في الماسونيّة :

« إنّه محظور علينا أن نرغّب أحداً في الانضمام إلى الجمعية . ولكنني أنصح لك بالانضمام قبل سفرك إلى نيويورك . فما قولك ؟ »

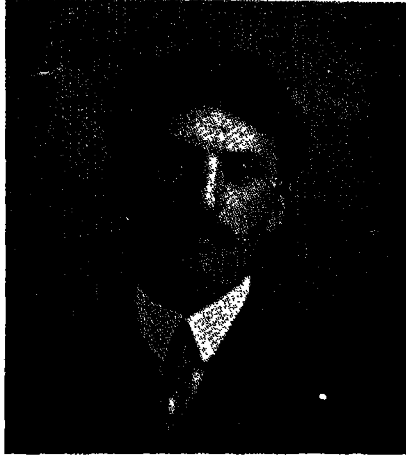
قلت : « فليكن » .

وهكذا مُنحت الدرجة الأولى في محفل والا والا . وإذ لم يكن لديّ متّسع

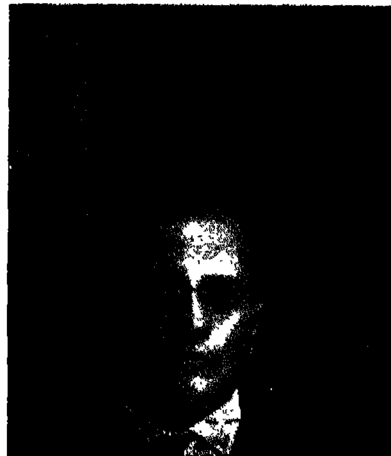
من الوقت لنيل الدرجتين التاليتين فقد كتب محفل والا والا إلى محفل في نيويورك يكلّفه القيام بتلك المهمّة . فقام بها . إلاّ أنّني ما إن أصبحت « معلّماً » ماسونيّاً وتردّدت على المحفل بضع مرات حتى وجدت القوم يلهون بالقشور دون اللباب ، شأنهم في ذلك شأن تبّاع باقي المذاهب . مثلما وجدت أن القسم الأكبر منهم لم ينضمّ إلى الجمعيّة إلاّ طمعاً بمنفعة ماديّة واجتماعية . فمن واجب الماسوني أن ينصر أخاه الماسوني ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . ولأن الكثير من أكبر رجال الأعمال والقضاء والسياسة ينضوون تحت لواء الجمعية فقد بات الانتماء إليها ضرباً من ضروب « الوصوليّة » . ولأنّني أخذت ما يهمّني من لباب الماسونيّة ولم أكن أحفل بقشورها ، لذلك لم يطل أن انقطعت عن زيارة المحفل وعن دفع الرسوم السنوية المترتّبة عليّ . وهكذا فصلت نفسي بنفسي عن الجمعيّة . ولعلّني فعلت ما فعلت مسايرة لخلّة متأصّلة في نفسي . ففي طبعي ما يأنف من الانقفاص ضمن حدود أيّ جمعيّة أو مذهب ، وينفر من شتى السمات والشارات مهما حلت في أعين الناس .



المؤلف في سنته الأولى بالجامعة



اديب



هيكل



مخايل

في « والا والا » ١٩١٢

The University of Washington

on the recommendation of the Faculty, and by virtue of the power vested in the Board of Regents, has this day admitted

Michael Joseph Naimy

to the degree of

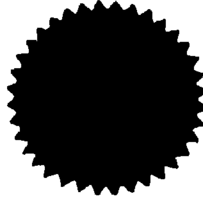
Bachelor of Law

and has granted him all the honors, rights and privileges thereto pertaining.

In Witness Whereof, the lawfully constituted authorities of the University have hereunto set their hands and caused the seal of the University to be affixed.

Given at Seattle, in the State of Washington, this Fourteenth day of June in the year of our Lord one thousand nine hundred and sixteen and of the University the fifty-sixth

Oscar A. Fechter
President of the Board of Regents.



Henry Suzzallo
President of the University.

John T. Condon
Dean.

شهادة كلية الحقوق

The University of Washington

on the recommendation of the Faculty, and by virtue of the power vested in the Board of Regents, has this day admitted

Michael Joseph Naimy

to the degree of

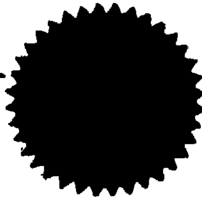
Bachelor of Arts

and has granted him all the honors, rights and privileges thereto pertaining.

In Witness Whereof, the lawfully constituted authorities of the University have hereunto set their hands and caused the seal of the University to be affixed

Given at Seattle, in the State of Washington, this fourteenth day of June in the year of our Lord one thousand nine hundred and sixteen and of the University the fifty-sixth

Oscar A. Fechter
President of the Board of Regents



Henry Suzzallo
President of the University.

Arthur S. Haggett
Dean

شهادة كلية الآداب

في الدُّردور الرهيب

خمسة ملايين من البشر قذفتهم خمس قارات عبر بحار كثيرة ؛ فيهم الأبيض والأسود ، والأحمر والأصفر ؛ وفيهم العملاق والقزم ، والمدقع والمتخم ، والمؤمن والملحد ، والسارق والقاتل والفاسق إلى جانب الذي يعمل بالوصايا « لا تسرق. لا تقتل. لا تشته امرأة قريبك » ؛ وفيهم الأبله والعبقري ، والنذل والسريّ ، والخامل والعصامي . وقد حُكم عليهم جميعاً أن يعيشوا في أوكار ضمنها أوكار ضمنها أوكار . بعضها أوجار وزرائب وسراديب . وبعضها قصور تزري بقصور الأشراف والأمراء والملوك . مثلما حُكم عليهم بالحركة التي لا تهدأ ليل نهار ، وبالجزية يدفعونها صاغرين من دمائهم ودموعهم ،وأدمغتهم وعضلاتهم ،وصفاء أذهانهم وقلوبهم لقاء كلّ بسمة يبسمونها ، وكلّ ساعة انشراح وفرح يقتنصونها من ساعات أعمارهم . أما لغاتهم فخليط من لغات الأرض وقد ألّفت بينها لغة واحدة هي لغة الدولار. فجميعهم يسعون وراء الرزق من شتى أبوابه . وبعضهم يرتزق من أبواب لا تخطر حتى لإبليس في بال .

تلك هي نيويورك التي دخلتها للمرة الثانية في خريف ١٩١٦ .أو بالأحرى، ذلك هو الدردور الرهيب الذي ارتميت فيه بملء إرادتي . فقد جئته غير حاسب أيّ حساب لأيّ أمر — إلاّ لواحد : إني أريد أن أقوّم المقاييس الأدبيّة عند بني لغتي وجلدتي . وبيني وبينهم آلاف الأميال ! وفي أيّ دردور ؟ في نيويورك . يا للغرور ! ولكن ، لماذا أعدّ مغامرتي غروراً ؟ أليس أن الناس ههنا — وفي كلّ مكان — يرقصون كلّ واحد رقصته ؟ فلأرقص أنا رقصتي ،

وإن يكن في مثل هذا الدردور . ولتعزف الأقدار ما راق لها العزف ، ولتضحك ما طاب لها الضحك ! فما دام لي قلمي ودامت « الفنون » فأنا بألف خير .

لم تستقبلني نيويورك استقبال الفاتحين . ولكن الاستقبال الحارّ الذي لقيته في مكتب « الفنون » كان ألذّ وأشهى لأذني وعيني وقلبي من تصفيق آلاف الأكفّ ، ورفرفة آلاف الأعلام ، وزئير مئات المدافع : نسيب عريضه . عبد المسيح حداد . ميخائيل اسكندر ، وبعد قليل ، جبران خليل جبران — هذه وجوه يطيب لي التطلّع إليها . وهذا جوّ أستطيع أن أتنفّس فيه بملء رئتيّ .

على نقيض ذلك الجوّ كان الجوّ الذي وجدتني فيه مساء ذلك اليوم. فقد قرّ رأي الجماعة أن يكون سكني في ناحية من بروكلن حيث يسكن الجانب الأكبر من الجالية السورية — اللبنانيّة . ولذلك أرسلوا معي دليلاً يساعدني في التفتيش عن غرفة « مناسبة » . فكان في جملة البيوت التي اقتادني إليها بيت تسكنه عائلة سورية . وما إن سمعت ربّة البيت اسمي حتّى هتفت : « حضرتك كتبت قصة « العاقر » ؟ لقد بكينا عند مطالعتها حتّى لم يبق في عيوننا دموع » .

فقلت في نفسي ، وبشيء من الاعتزاز : لقد سبقتك شهرتك إلى هذه الديار يا ميشا . فأنت لست نكرة بعد اليوم حتّى في بروكلن .

إلاّ أن بروكلن — أو تلك الناحية منها — بدت لي ببناياتها المتوازية ، المتلاصقة ، المتشابهة ، الكالحة وكأنها المنفى . فلا شجرة ، ولا زهرة ، ولا عشبة ، ولا فراشة ، ولا عصفورة ، ولا حفنة تراب تلطّف من عبوسة المشهد. وما حيلتي ؟ فلا بدّ من زندان آوي إليه في ذلك المنفى . وقد آثرت ألاّ يكون في بيت سوريّ أو لبنانيّ مخافة أن يُفسد القوم عليّ عزلتي . فاستأجرته في بيت عجوز إرلندية . وكان كناية عن غرفة صغيرة في الدور الرابع من ذلك البيت يتمّ الصعود إليها والنزول منها بواسطة درج من الخشب المتهرّىء

تُسمع له أنّات منكرات كلما وطئته قدم . أمّا الأجر الأسبوعيّ فخمسة دولارات ! أين أنت يا صنّين ؟ أين أنت يا شخروب ؟ أين أنت يا بسكنتا ؟ !

ما إن احتواني السرير في أول ليلة أمضيتها في تلك الغرفة حتّى أخذت تساورني شتّى الوساوس والهواجس : ماذا حلّ بأهلي ؟ فالمجاعة في لبنان — على ذمة الجرائد — تحصد الناس بالمئات وبالألوف . والحرب تبدو كما لو أنها لن تنتهي . وأميركا تقف منها بين الإحجام والإقدام . وها هي الانتخابات للرئاسة باتت على الأبواب . والمرشح الديموقراطي فيها هو الرئيس الحالي — ولسن . وهو ، كما يبدو ، رجل يكره الحرب ويحبّ أن يجنّب البلاد ويلاتها . والمرشّح الجمهوري هو تشارلز إيفانس هيوز — رئيس المحكمة العليا . والسائد في أذهان الناس أنّه لن يحجم عن زجّ البلاد في الحرب . إن قلبي إلى جانب ولسن . وهذا الدردور الرهيب الذي وجدت لي فيه ملجأً موقّتاً هو هذه الغرفة التي أكاد أختنق فيها — ماذا يكون شأني فيه عندما يفرغ جيبي بعد شهر أو أقلّ من شهر ؟ فقد تبيّن لي من حديث قصير مع شريك نسيب في « الفنون » أنّ ميزانيّة المجلّة تكاد لا تقوم بأود نسيب وحده . فكيف بي وبشريكه ؟ و « الفنون » هي التي جاءت بي إلى هذا الدردور . و « الفنون » يجب أن تعيش . أمّا أنا . . . فربّك كريم . والمهمّ أن نمضي في « المعركة » حتّى النهاية المظفرة .

بعد أيام كنت أضرب على الآلة الكاتبة في مكتب « الأسطول التجاري » الروسي . وذلك بفضل إحدى التوصيات الثلاث التي زوّدني بها القنصل . الله ، الله ! ألعلّني ما درست الذي درست في بسكنتا والناصرة وبولتافا وسياتل إلاّ لأنتهي إلى هذه الآلة اللعينة أضربها بسبابتي اليمنى أو اليسرى لترسم على أوراق بيض ألقّمها إياها أرقاماً وكلمات سوداً لا علاقة البتّة بينها وبين أي فكر من أفكاري أو عاطفة من عواطفي؟إنها أبعد ما تكون عن حياتي،والجهد الذي أبذله

في سبيلها هو جهد تقوم به قشور قشوري ، أو حثالة الحثالة في كياني . والأجر الذي ينالني منها لا يتجاوز ٨٠ دولاراً في الشهر !

أليس في الدردور الرهيب بملايينه الخمسة من هم في حاجة إلى أكثر من سبابتي اليمنى واليسرى — إلى أمانتي ، إلى صدقي ، إلى فكري ، إلى قلبي ، إلى ما جنيته من المعرفة في خلال عشرين عاماً ؟ بلى . بلى يا ميشا . ولكن الاهتداء إليهم ليس بالأمر اليسير . ففي هذا الدردور لا يجديك شيء مثلما تجديك القوقأة عن مؤهلاتك ، ومثلما يجديك طرق الأبواب . وأنت تكره القوقأة . وتكره أكثر منها التذلّل على الأبواب واستجداء أيّ شيء مهما عزّ . فاقنع بما أنت فيه لأنّه لم يكلّفك القوقأة ومذلّة الوقوف على الأبواب .

ولكنني لم أقنع . إذ لم يكن في استطاعتي — إلا بمنتهى الجهد والتقتير — أن أعيش بثمانين دولاراً في الشهر . لذلك ، بعد شهرين ، لجأت إلى توصية أخرى من التوصيتين الباقيتين لديّ . فجاءتني براتب شهري قدره ١٠٠ دولار . وهذا الراتب لم يلبث بعد شهور أن ارتفع إلى ١٥٠ دولاراً عندما عُيّنت سكرتيراً للمفتش الروسي لدى شركة Bethlehem Steel Co. التي كانت تصنع ضرباً من القنابل للمدفعيّة الروسيّة . أما مقرّ الشركة ومقرّ عملي الجديد ففي مدينة صغيرة من ولاية بنسلفانيا تدعى « بيت لحم » ، وأما سكناي فكانت في مدينة مجاورة تدعى « ألِنتَون » . وهكذا تنفّست الصعداء إلى حين عندما ابتعدت عن نيويورك وضوضائها ، وعندما بات في إمكاني أن أوفّر شيئاً من راتبي لمساعدة أهلي . إلاّ أنّني كلّما فكّرت بما أنا فيه ، وبأنّني آكل لقمتي مغمسة بدماء الألوف من الذين كانوا يقضون في ساح الحرب ، وبدموع ذويهم في شتّى البلدان ، كانت تعروني قشعريرة نفسية . فلا أتغلّب عليها إلاّ بالذهول عنها .

لقد نفعني ابتعادي المؤقت عن نيويورك . إذ أنّني ، برغم محاولاتي ،

لم أستطع الاندماج بالجالية السوريّة – اللبنانية فيها – تلك الجالية التي قيل لي وقتئذ إنها تعدّ بين ٣٠،٠٠٠ و ٤٠،٠٠٠ نسمة . فقد آلمني أن أرى السواد الأعظم منها يعيش في ضحاضيح من الثقافة الفكرية والجمالية والدينية والاجتماعيّة . وأقدس ما يقدّسه الدولار . فالناس ما هجروا أوطانهم إلا حملوا معهم إلى مهجرهم جميع أحقادهم وخلافاتهم وضغائنهم وترهاتهم السياسية والطائفيّة . حتى إن حرباً دموية نشبت بين الموارنة والروم الأرثوذكس قبل مجيئي إلى نيويورك بقليل . وهذه الحرب كانت تذكي أوارها الصحف بمساندة رجال الدين من الجانبين . فقد بات من المألوف – بل من الضروري – عند المهاجرين أن تكون لكلّ طائفة جريدة أو أكثر – حسب أهميتها وعدد أفرادها ؛ ناهيك بالكنائس والجمعيات الطائفيّة .

هكذا كان للموارنة أكثر من صحيفة وأبرزها « الهدى » لنعوم مكرزل . وللروم الأرثوذكس أكثر من جريدة وأبرزها « مرآة الغرب » لنجيب دياب . وللروم الكاثوليك جريدة . وللدروز جريدة . وأذكر أن شاباً مسلماً من معان أسّس جريدة إسلاميّة باسم « الصراط » ولكنّها لم تعمّر سوى بضعة شهور . فالمسلمون كانوا لا يزالون في بدء هجرتهم إلى الولايات المتحدة . وهذه الجرائد الطائفيّة لم يكن يتيسّر لها العيش والكسب والانتشار إلاّ بإذكاء النعرات الطائفيّة ، والتودّد إلى أبناء ملّتها بنشرها ما يهمّهم من أخبار ملّتهم .

قبل مغادرتي نيويورك إلى مقرّ عملي الجديد في « بيت لحم » – بنسلفانيا – كنت قد ترجمت إلى العربيّة قصيدتي الروسيّة « النهر المتجمّد » ونشرتها في « الفنون » . فما بقيت أدري كيف أردّ على تهانيء المهنّئين . « هذا فتح جديد في الشعر العربي » . « هكذا يجب أن ينظم الشعراء » . « زدنا من هذه البضاعة زادك الله » – بمثل تلك العبارات استقبل جمهور الأدباء والمتأدّبين قصيدتي الأولى . أما جبران فقد أعجب بها كثيراً وقال إنها تترقرق عذوبة في اللحن

واللون . وكأنّه كان يشعر ، كما أشعر ، بأنّنا بدأنا نسير في جنازة القصيدة التقليدية ، ذات الرويّ الواحد والقافية الواحدة ، وذات الموضوع المبتذل والصور التي نصل رواؤها لكثرة تكرارها . والقصيدة من مجزوء الكامل ، وهي تلتزم القافية في كل بيتين لا أكثر . وذلك على النمط الفرنجي .

نظمت « النهر المتجمّد » في مكتب اللجنة الروسيّة المكلفة شراء الأعتدة للمدفعيّة ، حيث كنت أضرب على الآلة الكاتبة . ونظمتها في ساعتين لم يكن لديّ فيهما أيّ عمل أعمله . وفي المكتب عينه ، وبعد ذلك بأسابيع ، نظمت قصيدة « أخي » وكأنّها كانت تُملى عليّ إملاء . فما أظنّني غيّرت أو صحّحت كلمة من كلماتها . وهذه القصيدة ألقيتها قبل نشرها ، وبإلحاح من نسيب عريضه ، في اجتماع حافل عقدته الجالية في بروكلن للنظر في المجاعة التي كانت تجتاح لبنان ، وفي نكبة سوريا ولبنان معاً . فكان لها وقع القنبلة عند المتحمّسين للتجديد وعند المتزمّتين .

تتألّف القصيدة من خمسة مقاطع . وها أنا أورد الأخير منها على سبيل المثال ليتبيّن القارىء وجوه التجديد فيها ، إن من حيث القالب وإن من حيث الموضوع وطريقة معالجته :

أخي ، مَن نحن ؟ لا وطنٌ ، ولا أهلٌ ولا جارُ .
إذا نمنا ، إذا قمنا ، رِدانا الخزيُ والعارُ .
لقد خمّت بنا الدنيا ، كما خمّت بموتانا .
فهات الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخرْ
نواري فيه أحيانا !

ويلاحظ القارىء أن البيت الأول والثاني يرتبطان بقافية واحدة . ثم يأتي الثالث بقافية جديدة . فلا يلزمها الرابع الذي لا يتبع أيّ قافية . ويلزمها

المصراع الأخير حيث تعود الأذن فتلتقط في الحال رنّة « آنا » في « موتانا » و « أحيانا » فتأنس بها . لأنّها الرنّة التي استعذبتها منذ أول القصيدة فباتت تتوقّعها في آخر كلّ مقطع من مقاطعها . ناهيك بما في المقاطع جميعها من صور لا تصنّع فيها ولا تنميق بل وصف مؤثّر لما كانت تعانيه بلادنا من بؤس ماديّ ، وقحط روحي . إنها صور لا يُقصد منها أن تبهر العين ، وتخلب الأذن . بل أن تنفذ إلى صميم القلب والروح . ويبدو أن المحاولة نجحت كل النجاح في ما كانت ترمي إليه. فما إن ظهرت القصيدة في « الفنون » وبلغت الديار العربيّة حتى راحت الصحف تتناقلها. وكانت « الهلال » أسبقها. فقد نقلت القصيدة بعد أن مهّدت لها بكلمة لطيفة جدّاً. لقد أدرك محرّر « الهلال » بفطرته السليمة أن نسمة جديدة أخذت تهبّ على الأدب العربي من بلاد « العم سام ».

في شباك مارس

عندما يخطر في بال مارس – إله الحرب – أن يعبث ويلهو ليبدّد عنه ساعة سأم ، ينفخ في الخضمّ البشري نفخة تبدو مداعبةً لطيفة في أول الأمر. ولكنها لا تلبث أن تنقلب إعصاراً يثير ذلك الخضمّ حتى الجنون . فتضطرب أمعاؤه أيّما اضطراب ، وتروح أمواجه تخبط وكأن بعضها يحاول أن يبتلع البعض الآخر . ويهتبلها مارس فرصة مؤاتية ، فيلقي بشباكه في الأمواج الصاخبة . وليس من يعلم عدد « الأسماك » وأنواعها التي تعلق في الشباك ، وأيها تتاح له النجاة ، وأيها يقضى عليه بالهلاك .

ما ظننت يوم أعلنت أميركا الحرب على ألمانيا في الرابع من حزيران، عام ١٩١٧ ، أن حربها ستطالني من قريب أو من بعيد . فما شأن أميركا وشأني ؟ إنني رجل غير أميركي . وما شأن مارس وشأني ؟ إنّني أكرهه أشد الكره ، وأكره عبثه ولهوه . فأنا ، منذ أن وعيت نفسي ، لا أذكر أنّني تشاجرت وأي إنسان . فما ضربت ولا شتمت أحداً في حياتي . ولا ضربني ولا شتمني أحد . ومن ثمّ فأنا طالب معرفة لا طالب دماء . وأنا أسعى وراء رزقي ورزق الذين يهمّني أمرهم فلا أحصل عليه إلاّ من أضيق الأبواب وأشحّها . إنني لا أطمع في ثروة ، ولا أزاحم أحداً على الثروة . ولا أنا أنتزع اللقمة من فم غيري لأضعها في فمي ، ولا القميص عن بدن غيري لأستر به بدني .

وفوق ذلك كلّه ، فأنا اليوم في « حرب » أين من هولها الحرب الدائرة رحاها في غابات فرنسا وفي جبال الكرَبات ؟ إنّها حرب « الزحافات والعلل » ؛ حرب الجمال تدوسه التقاليد المتحجرة بنعالها ؛ حرب الكلمة

المجنحة تغدو خنفساء في يد الذين يخيفهم أن تكون لخيالهم أجنحة ، والذين لا تبلغ أبصارهم أيّ مدى أبعد من الذي تبلغه ظلالهم على الأرض . إني أريد أن أعتق الحرف في بلادي من التقليد والجمود، وأن أعتق الفكر في بلادي من أقفاص السفاسف والترهات . فما شأني وشأن الارشيدوق فرنسيس فرديناند إذا اغتاله شاب صربيّ في « سرايفو » ؟

ولكن منطق الحرب أبعد ما يكون عن أيّ منطق . وما همّها بحرب ضروس أخوضها أنا أو سواي على جبهة أو جبهات ، غير جبهتها ؟ إنّها وحدها الحرب . ولها وحدها الحق في أن تفرض الغاية والجبهة . والناس كلّهم جنودها . وما على الجنديّ إلا الامتثال لمشيئتها التي هي فوق كلّ مشيئة .

ما إن دخلت أميركا الحرب حتى صدر تشريع يقضي على جميع الشبان بين الواحدة والعشرين والواحدة والثلاثين بتسجيل أسمائهم في أقرب دائرة من الدوائر التي أنشئت خصيصاً لتلك الغاية . على أن يجري فيما بعد سحب الأسماء بالقرعة . فسجّل مَن سجّل . وتهرّب من التسجيل مَن تهرّب . وكنت في جملة المسجّلين ، لأن من طبعي التقيّد بالقانون . فلم يَطُل أن دُعيت للخدمة . ولكنني أُعفيت منها مرّتين ، وفي كل مرة لمدة نصف سنة، لأنني كنت لا أزال « في خدمة دولة حليفة » .

تلك الفترة التي عشتها في مدينة ريفيّة من مدن بنسلفانيا كانت فترة خصب روحي برغم سيف الخدمة العسكرية المصلت فوق رأسي . فالعزلة التي كنت أنعم بها هناك في كل مساء بعد انتهاء العمل في « بيت لحم » يسّرت لي الاسترسال في التأمّل . فلا الملاهي بأنواعها ، ولا النساء ، و لا أيّ جاذب آخر كانت تصرفني عن تأمّلاتي . وكان لي في أخبار الحرب وحدها ما يدفعني على التفكير أبعد فأبعد ، وأعمق فأعمق ، في نفسي ، وفي الكون ، وفي الانسان وحياته التي كانت تبدو لي أحياناً كما لو كانت أشرف ما في الكون .

فلا تلبث أن تظهرها وقائع الحرب ومشاهد المعيشة اليوميّة أخسّ من « ورقة في فم جرادة » – على حدّ قول الإمام عليّ في الدنيا .

وكان من تأمّلاتي أنّني – ولأوّل مرة في حياتي – أحسست الله قدرة في داخلي ، لا شخصاً بيني وبينه صلة المخلوق بالخالق ، والعابد بالمعبود ، والمدان بالديّان . وهذا الاحساس غمرني بفيض من الطمأنينة ؛ وبات كالجنين في الرحم وقد اكتملت أيّامه ، يلحّ في الخروج إلى العالم . ومن غير أن أعطي نفسي حساباً عمّا أعمل وجدتني ذات ليلة مدرارة الغيث أكتب التوطئة لكتاب لم تكن معالمه قد تبلورت بعد في خيالي .

كان القلم يجري بالحروف ، ومن الحروف تبرز ملامح فتًى غريب الأطوار ، في رقعة وجهه آثار من الجدري . ولذلك أسميته « الأرقش » وأسميت الكتاب « مذكرات الأرقش » . فما انتهيت من التوطئة حتّى وجدتني ، في الواقع ، كمَن وُلد له ولد وقد بات لزاماً عليه أن يتعهّده بأقصى ما يملك من الحنوّ والمحبّة .

خلقت « الأرقش » من خيالي فلم يلبث أن أصبح في حياتي أكثر من خيال . فلكم سامرته وسامرني ، وماشيته وماشاني ، وآكلته وآكلني . ولكم توسّد وسادتي ، وافترش فراشي ، وتلحّف بلحافي . لقد جعلته يعيش على مستوى البصيرة أكثر منه على مستوى البصر . ومكنته من ذلك إذ سلخته عن ماضيه إثر صدمة عنيفة وقعت له . ثم وضعته في بيئة هي أبعد ما تكون عن العالم الباطني الذي يعيش فيه ؛ بيئة تغرق في رغوة العيش من يوم ليوم . فيبدو هو فيها مهاناً ، محتقراً ، وكأنّه حرف مهمل في حاشية كتاب . ولكنه يكشف عن غناه الروحي بما يدوّنه في مذكّراته من انطباعات عن العالم الحسّي حواليه ، ومن مقارنات بين ذلك العالم والعالم الذي يعيش هو فيه بقلبه وفكره وخياله .

من بعد أن خلقت « الأرقش » والبيئة التي وضعته فيها كان عليّ أن أخلق

من مذكّراته مادة تثير فكر القارىء وتملك عليه انتباهه ، فلا يبدو عليها شيء من التصنّع والجفاف . وذلك تيسّر لي بما أدخلته في المذكّرات من أشخاص ثانويّين ، ومن مفارقات غريبة ، ومن رواسب في حياة الأرقش السابقة تطفو من حين إلى حين على سطح ذاكرته فتضفي على المذكرات لوناً من القصة وتثير فضول القارىء . وقبل أن تتهيّأ لي أيّ فكرة عن « نهاية » الكتاب أخذت أبعث بفصوله الأولى إلى نسيب عريضه الذي كان يلحف عليّ في طلب المواد للفنون . وإليك ما جاءني منه بتاريخ ١٨ كانون الثاني ، ١٩١٨ :

« . . . « الأرقش » وصل . وقد هبّت على روحي نسمات لطيفة من خلال أوراقه . فانتعشت . وأظنّ — واسمح لي أن أقول ذلك — أنّ الأرقش هو أحسن ما صدر عن روحك (مع الاحترام اللائق للآباء والبنون وغيرها) . « مذكرات الأرقش » يا ميخائيل هي بحر واسع ، خضمّ . وقد أعجبني في القسم الأخير منها القطعة الشعرية التي ختمت بها القطعة . فزدنا زادك الله من كلّ ما تشتهيه . واعلم أن الأدباء أصبحوا أسرى « الأرقش » .

ويبدو أنّني صوّرت « الأرقش » تصويراً « واقعياً » إلى حدّ أنّني لما عدت بعد ذلك بقليل إلى نيويورك ما بقيت أدري بماذا أردّ على الذين قرأوه : « كيف اهتديت إلى الأرقش في مطعم في نيويورك ونحن الذين عشنا هنا قبلك بسنين لم نهتد إليه ؟ وأين هو ذلك المطعم ؟ ومَن هو صاحبه ؟ ولماذا لم يخبر أحداً غيرك عن المذكّرات ؟ » الخ الخ . وكان جبران أشدّهم تحمّساً . فقد قال لي : « حرام أن لا يصدر هذا الكتاب بالانكليزيّة » .

إلاّ أن سيدنا « مارس » — لا صلّى الله عليه ولا سلّم — لم يكن يحفل بما تلده الأقلام . ويهمّه ما تلده الأرحام . لأنّ مواليد الأرحام كانت — وما برحت — وستبقى الصّيد المفضّل في شباكه . والوقود الأشهى لنيرانه . ومن حسن حظّه أن الأرحام لا تنفكّ تحبل وتلد . وأنّ الناس — حتى اليوم — لم

يحزموا أمرهم على تحدّيه ، وتشهيره ، والبصق في وجهه ، يا لهم من جبناء ! يا لهم من أغبياء ! يا لهم من معتوهين !

إنّهم يستميتون في الدفاع عن طهارة أرحامهم لا يلوّثها دم غريب. ولكنهم في ثورة هيستيريا وثورة جنون يبيحونها وكلّ ما تقذفه إلى الوجود لإله الحرب وجنوده وأعوانه . إنّهم يشكون في كلّ ساعة سوس الأكدار والأحزان والأوجاع ينخر أيامهم نخراً ، ويشكون الموت يبتر أعمارهم بتراً . وبغتة ، ولغير ما سبب معقول ، ينقضون بعضهم على بعض ، ويمعنون بعضهم ببعض نهشاً وتنكيلاً وتقتيلاً . وهكذا يصبحون هم السوس الذي ينخر أيامهم ، والموت الذي يبتر أعمارهم . ويمضون ، مع ذلك ، يشكون ويتذمرون ويتأفّفون ويتوجّعون ، فحكايتهم حكاية مَن يدعو الدبّ إلى كرمه ثم يروح يندب عنبه وكرمه .

قضت ثورة البلاشفة على جميع المؤسّسات الروسيّة في أميركا التي كانت تعمل لتزويد الجيش بالمؤن والمعدّات . فقضت على العذر الذي كنت أتذرّع به للتهرّب من الجنديّة ، وأقفلت الباب الذي منه كنت أرتزق . فعدت في أوائل ١٩١٨ إلى نيويورك و « الأرقش » لمّا يبلغ بعد منتصف طريقه . وعدت لأعرف من نسيب عريضه أن « الفنون » تعاني أزمة مالية ، وأنها ستتوقف عن الصدور إذا لم تأتها نجدة سريعة . وكان شريك نسيب قد تركه وحده . وكان لا بدّ من عمل قريب ، حاسم .

وقرّ الرأي على جعل « الفنون » شركة مساهمة ، وجعل قيمة السهم الواحد ١٠ دولارات . وتولّيت بيع الأسهم . وكان لي رصيد كبير من الاحترام عند تجار الجالية . فلم ينقض أسبوعان حتى كان في خزينة الشركة ٢٥٠٠ دولار ، منها ٢٠٠ دولار من جيبي . وتسلّمت إدارة المجلّة ومراسلاتها ، وتركت لنسيب أمر التحرير والطباعة وتنسيق المواد والأعداد . وهكذا دبّت روح

جديدة في « الفنون » وشعر جميع أصدقائها أنّ مستقبلها بات مكفولاً .

إلاّ أنّ الدائرة المسجّل فيها اسمي للخدمة العسكرية لم تكن غافلة عني . فما إن انتهت الأشهر الستّة الثانية التي أعفيت خلالها من الجندية بسبب عملي في « خدمة دولة حليفة » حتّى جاءني الأمر بالمثول لدى الدائرة . فامتثلت للأمر صاغراً . وكيف لا أمتثل وعاقبة العصيان التشهير والسجن ؟

كان ذلك في ٢٥ أيار من العام ١٩١٨ . وكانت « الفنون » قد أصدرت لي في كتابٍ مسرحية « الآباء والبنون » من بعد أن نشرتها مسلسلة على صفحاتها. فقلت : « لا بأس . سيكون لي ، في الأقلّ ، هذا الأثر المتواضع أتركه بعدي إذا حال الموت بيني وبين قلمي . » وشقّ عليّ أن لا يفسح « مارس » لي المجال لإنهاء « الأرقش » وأن يصرفني عن « معركة الحرف » وهي ما تزال في بدايتها .

عصيان

على أثر دخول أميركا الحرب ، ومن قبل أن يصدر قانون التجنيد بالقرعة ، تطوّع أخي هيكل للخدمة من تلقائه . لقد كان شديد التحمّس لوطنه الجديد . وكان يريد أن يبرهن لهذا الوطن عن عظيم امتنانه له ، وعن استعداده للتضحية بحياته في سبيله . وعندما جاءني منه خبر بذلك انكمش قلبي إذ رحت أتخيّله في جبهة القتال ، وأتخيّل جميع البشاعات والإهانات والرزايا التي قد تحل به . وإذا فكّرت بالفراغ الذي تركه في حياة أخيه أديب زاد قلبي انكماشاً على انكماش .

وها أنا كذلك تصطادني شباك الحرب . فماذا يكون شعور أديب ، وشعور والديّ لو هما دريا بذلك ؟ ولكنهما لا يدريان. وتلك نعمة ربانيّة . ولن يدريا حتى يلم مارس شباكه . فامّا يعرفان ان ولديهما هيكل وميخائيل قد تشوها أو قضيا في سبيل « الواجب » ، فيتولى الزمان مداواة قلبيهما ؛ وإما يعرفان أن ولديهما قد خاضا غمار الحرب وعادا منها سالمين . فيقبلان التراب ويهتفان : « نشكرك يا رب ونحمدك ! »

بعد ليلين ونهارين من قعقعة الحديد على الحديد ، ومن شرود الذهن والقلب ، استقرّ بنا القطار في طرف بريّة شاسعة من ولاية « نورث كارولينا » . وكنا جماعة من الخليط البشري المعدّ لتسيير آلة الحرب ؛ والذين استقبلونا هناك لم يبسموا لنا؛ ولا هم صافحونا ؛ ولا خطر لأيّ منهم أن يسألنا عن سفرتنا الطويلة كيف كانت ، وعمّا كان يجول في خاطر كلّ منّا . ولو سألوني لما همّهم على الاطلاق أنّني كنت أفكر في أهلي البعيدين

جداً – هناك، هناك على شاطىء الابيض المتوسط – في سفح صنين؛ وفي أخ لي في والا والا ، وآخر في معسكر في كاليفورنيا ؛ وفي « الفنون » ؛ وفي الثورة الأدبيّة والفكريّة في دنيا العرب التي كنت وحفنة من الرفاق في نيويورك نقوم بها كل ذلك هراء ، وهباء ، وقبض الريح ، أمّا المهمّ ...

أجل. المهمّ ليس ما أحمله في رأسي وقلبي . ولا ما يحمله سواي من الجنود في رأسه وقلبه . بل المهم أن تكون لنا عظام مكسوّة باللحم ، وعضلات تتحرك ، وعيون وآذان تبصر وتسمع ، وأرجل تحسن المشي ، وظهور تقوى على الحمل، وأيد تجيد الضرب بالحربة، والضغط على زناد البارودة والرشاش والمدفع. ذلك ما يحتاجه منّا « مارس ». وما تبقى: صورة الله فينا؛ جوعنا إلى الحق الذي إذا عرفناه تحررنا من عبوديّة الشر والموت ؛ طموحنا إلى الخير والطمأنينة والسعادة ؛ ما لنا وما علينا من حسنات وسيئات في علاقاتنا مع الغير – كلّ ذلك سفاسف وترهات لا بأس لو تركناها لإبليس يلهو بها .

في البرية التي ذكرت أكواخ خشبية مستطيلة انتثرت هنا وهناك وهنالك . بعضها قديم . وبعضها جديد . وبعضها لا يزال في عهدة المنشار والقدوم والشاكوش . تلك هي الثكنات التي استقبلت الذين سبقونا . والتي ستستقبلنا وتستقبل الآتين بعدنا . واستقبالها لنا لا يختلف في شيء عن استقبال الزرائب والاصطبلات للماشية . ما بينها خلائق بشرية في جيئة وذهاب . بعضهم في قيافة مدنيّة . وبعضهم في قيافة عسكرية . والذين في قيافة عسكرية بعضهم جنود بسطاء . وبعضهم صف ضباط . وبعضهم ضباط . وأنا لا أميّز الشارات التي على أكمامهم وأكتافهم وقبعاتهم . فلا أعرف الفرق بين عريف ونقيب ، وبين ملازم ثانٍ ولواء . إنّني ، في الأمور العسكرية ، لأجهل من ضب .

وكلّ ما أعرفه عن هذه الدنيا الجديدة التي تحتويني هو أنّني سأكون

فيها نكرة وأقل من نكرة . سأكون بيدقاً حقيراً ، صغيراً على رقعة شطرنج هائلة هي رقعة الارض بكاملها . أمّا الأيدي التي ستحركني فلا حصر لها ولا عدّ . ومن فوقها كلّها « اليد الخفية » التي ما برحتُ أحسّ لمسها منذ أن تفتّح قلبي قليلاً فأدركت أن ما يجري في حياتي وحياة الكون لا يجري دائماً بمقاييس من وضعي ووضع الناس وحسب . ففي حساباتي وحسابات الناس فجوات كبيرة تملأها قدرة غير قدرتنا، وعلى مستوى من الوعي غير مستوانا .

لم ينقض الأسبوع على وجودي في المعسكر حتى قيل لي ذات صباح إن وظيفتي في ذلك النهار ستكون إضرام النار تحت المرجل الذي فيه تحترق نفايات المطبخ والمائدة . وكان المرجل في العراء قرب قاعة الطعام المتصلة بالمطبخ ، وكان جنديّ غيري قد كُلّف تقطيع الخشب وتقديمه للمرجل وللمطبخ . وانطلق باقي الرفاق إلى التمارين العسكرية .

مضت ساعتان وبراعتي في إذكاء النار تحت المرجل لا تضاهيها حتى براعة إبليس في إذكاء نار جهنّم . وبغتة أخذت السماء تربدّ .ونفخت الريح . وما هي إلا دقائق حتى انفختت خزّانات الغيوم ، وغصت الأرض بالمياه . فلم يكن بدّ من الهرب. وهربت إلى أقرب باب ، وكان يؤدي إلى المطبخ . وهناك وقفت أرقب حبال المطر وأتوقّع انقطاعها لأعود إلى عملي .وبالقرب مني كان الجندي المكلف تقطيع الحطب وقد غرق في حديث مع العشّيّ ، وكان قد هرب قبلي من المطر دون أن يترك خلفه كسرة واحدة من الحطب .

ونحن كذلك ، وزخم المطر لا يزال على أشدّه ، إذا بالعشّيّ يلتفت إليّ ويأمرني أن أخرج وآتيه بشيء من الحطب ، فقلت بمنتهى البساطة :

— لم يبق من حطب مقطّع . — فجاء جوابه جافاً قاسياً :

— عندك الفأس . اخرج وقطّع .

— ولكن تقطيع الحطب ليس من شأني .

ـ وقد بات الآن من شأنك . اخرج ولا تجادل .

ـ والمطر ؟

ـ المطر؟ ! ألعلّك من الملح أو من السكر ؟ اخرج قبل أن تنطفىء النار ، فالغداء يجب أن يحضر في وقته .

ـ انتظر قليلاً ريثما يخف المطر .

ـ الغداء لا ينتظر . قلت لك هات بعض الحطب .

كان العشي رجلاً إيطالياً ، ذا كرش نافر جداً ، ووجه يشبه وجه السعدان . وعلى رأسه قلنسوة كان المفروض فيها أن تكون بيضاء . ولكن بياضها بات ذكرى لا أكثر ، وكان يخاطبني بانكليزية مهشّمة ، وبلهجة مَن له السلطان .

لقد أخذ الغضب يتأكّلني من نفسي ، ومن العشيّ ، ومن الجندية التي تخول مثل ذلك العشي أن يتأمّر على رجل مثلي . واتفق أن سمع الجدال بيني وبينه الرقيب المولج بالاشراف على المائدة . فجاء يستفسر عن الخبر . وعندما وقف عليه من العشي أمرني أن أخرج في الحال وآتي بالحطب . فبقيت مكاني ولم أفه بكلمة . وحاول أن يدفعني بالقوة إلى الخارج فلم يستطع . ولا أدري من أين جاءتني في تلك اللحظة قدرة شمشون الجبار . إنها الغضبة للعدل المداس ، وللكرامة المهانة ، وللشخصية الانسانيّة تغدو ألعوبة في يد عشي إيطالي ، ورقيب جلف في الجيش الأميركي .

وعندما أنس الرقيب من أمري ذهب وجاء بملازم ثان . وهذا ، بدوره ، أمرني أن أخرج وأقطع بعض الحطب ، وأحمله إلى المطبخ غير آبه بالمطر الغزير الذي ما انفكّ ينهمر . وإذ لم يلقَ مني جواباً تطلّع إلى الساعة على معصمه وقال : « أعطيك مهلة دقيقة » . وقبل أن تنقضي الدقيقة أعلن بمنتهى العظمة والبرودة :

« أنت موقوف ! »

واقتادني إلى صيوان كبير منفرد وأوصى الحارس أن لا يتغافل عني . ريثما تنظر المحكمة العسكرية في أمري . ذلك الصيوان كان سجني . ومن حسن حظي أني كنت فيه السجين الوحيد. في حين أن صيواناً بالقرب منه، وفي مثل حجمه ، كان يعجّ بالسجناء . وكان لي من لغطهم وهرجهم ومرجهم ، وبذاءة ألسنتهم ما حسبته أفظع من السجن بكثير. وعلى الأخصّ في العشايا عندما كانوا يؤوبون من أشغالهم الاجباريّة في النهار . ولقد حرص الملازم الذي أمر بسجني أن يقوم بواجباته العسكرية على أتمّ وجه . فجرّدني من جميع «شارات الشرف» التي لا يجيز النظام التمتّع بها لأيّ جندي يخرج عليه. ومن هذه الشارات أو «الامتيازات» شريط في أسفل القرص الأعلى من البرنيطة التي كانت تشبه برنيطة « الكَوْبوي » . ثم المسمّاة (الطماقات) ، ثمّ حقّ التحيّة للضباط الذين من واجب الجندي أن يبادرهم التحيّة كلما اتّفق له أن يمرّ بواحد منهم.

بتّ ليلتي الأولى في السجن وليس لي من رفيق إلا ما حمله إليّ البريد في النهار ، وهو عدد من « مرآة الغرب » ، الصادرة في نيويورك ، ورسالة من أخي أديب . أما العدد فكان فيه مقال عنّي من قلم إيليا أبو ماضي — وكان يحرّر في « المرآة » . وفيه أنّني مررت بسماء الجالية في نيويورك مرور الشهاب. فلم يعرفوا إلا القليل من مؤهّلاتي وصفاتي .وأما الرسالة فشكوى تثير الدمع من القلق الذي يعانيه أخي على سلامة أخويه في الجيش . ألا ليت الملازم الذي أمر بسجني كان يعرف أن سجينه « شهاب »، وأن في والا والا البعيدة، وفي بسكنتا الأبعد منها قلوباً وعيوناً معلّقة بذلك « الشهاب » . ولكنه ، ولو عرف ، لما غيّر ذلك شيئاً في تصرّفه معي ، أليس أنني جندي بسيط ؟ أليس أنّه ضابط ؟ أليس أنّ على الجندي طاعة مَن هم أعلى منه رتبة ؟

أفقت في الصباح الباكر على رِجْلٍ تركلني في خاصرتي ، وصوت يهدر فوق رأسي : « إيبي ! انهض ! أين – باسم جهنّم – تظنّك موجوداً ؟ في أوتيل ؟ ! »

ساقني الرقيب إلى الصيوان الآخر حيث كان باقي المساجين . ومن هناك ساقنا جميعاً إلى حيث كانت كومة من الرفوش والمعاول وأمرنا أن يأخذ كلّ منّا رفشاً أو معولاً . فأخذت معولاً . ومشينا بأمر الرقيب – أو بأمر البندقيّة التي على كتفه والحربة الطويلة التي في رأسها – إلى أن بلغنا فسحة من الأرض كان علينا أن نحفر فيها خندقاً بطول خمسة أمتار وعرض متر وعمق متر . وفهمنا أن هذا الخندق سيغدو مستراحاً للجنود ، فيه يفرغون نفايات أمعائهم ومثاناتهم . ثم يطمر بعد حين ويُحفَر غيره .

لم يؤلمني في الأيام الخمسة التي صرفتها سجيناً أن أعود في كل مساء إلى صيواني مكدود العضلات ، مشقّق الكفّين ، خائر القوى ، على قدر ما كان يؤلمني أن أمضي نهاري وليلي مهشّم الروح ، مشتّت الفكر ، منسحق الفؤاد . ألمثل تلك الأعمال ولدتني أمّي ؟ أذلك – وليس أكثر من ذلك – ما تبصره فيّ آلة الحرب وما تبتغيه منّي ؟ والذي درسته في بلادي ، وفي روسيا ، وفي جامعة واشنطن ؛ والكتب التي طالعتها ، والأفكار التي فكّرتها ، والمقالات التي حبّرتها ، واللغات التي حفظتها ، والآمال الوساع التي أرضعتها دم قلبي ، والمعارك القاسية التي خضتها في سبيل الفضيلة مع نفسي ومع العالم – ألعلّ كل ذلك لا شيء – لا شيء على الاطلاق في حساب الحرب وإله الحرب ؟ ! .

إلاّ أنّني كنت أحاول أن أعزّي نفسي عمّا هي فيه بتأمّلات من النوع التالي :

« الكبرياء ، والاعتداد بالذات ، والهرب من المشقّات عقبات في سبيل

الروح يا ميخائيل . وأنت تؤمن بأنّك عشت أعماراً قبل هذا العمر . ومن الأكيد أن أعمارك السابقة تحتّم عليك مثل هذه الخبرة في عمرك الحالي . فلا تتهرّب منها . بل تقبّلها راضياً ، شاكراً . لأنّك إن هربت منها اليوم فلن تهرب غداً أو بعد غد . وهي لولا حاجتك إليها لما جاءتك . ومن ثم ، فالعالم يشتعل اليوم يا ميخائيل . ولو لم تكن لك يد في اشتعاله لما كنت فيه . ولن يطفىء النار قولك إن الذين أضرموها مجانين . فأنت واحد منهم ، ويطفئها نفاد الوقود عند أحد المعسكَرين المتصارعين فيها. والوقود هو الرجال والمال. فجُدْ بنفسك ما دام غيرك يجود بنفسه . وبأيّ حق تريد أن يفتدي الغير حياتك بحياته ؟ إنّما يقضي الشرف بأن تفتدي حياة الغير بحياتك . وأنت بين المعسكرين لا مناص لك من اختيار المعسكر الذي يحارب أعداء بلادك ومستعبديها . فتقبّل ما أنت فيه دونما شكوى حتى بينك وبين نفسك » .

وكانت المحاكمة . وقد انعقدت المحكمة في صيوان كالذي عشت فيه خمسة أيام . وكان رئيسها ضابطاً برتبة عقيد . وكان عدد المحاكمين نحو العشرين . وعندما جاء دوري تلا عليّ الرئيس اتّهام العصيان في حضرة الملازم الذي أمر بسجني . وسألني : « أمذنب أنت أم غير مذنب ؟ » وتّهيأ لي أنّها فرصة نادرة لأظهر للمحكمة عظيم خبرني بشؤون الشرع والمحاماة . فألقيت دفاعاً محكماً،وبلغة انكليزية مشرقة.ومما قلته في دفاعي انّني رجل غير أميركي. وكان في مستطاعي أن أتهرب من الجندية لو أنا شئت ذلك . ولكنني لم أتهرب . ولو كنت أحسب أن الخدمة في الجيش الأميركي تعني محق الشخصية ، ودوس الكرامة الانسانية ، وتعني انعدام العدل ،أو عدلاً بميزانين ، لما رضيت أن أخـدم .

كان لدفاعي أثر بليغ في المحكمة وفي السامعين . إذ لم أكد أفرغ منـه حتى رفع الرئيس بصره إليّ وقال :

ـ يبدو لي أنهم حبسوك وجاؤوا بك إلى المحكمة خطأ.أتريد أن تخدم ؟
قلت : أريد .
قال : أنت بريء ، ولن تدوّن هذه التهمة في سجلك العسكري.انصرف بسلام .
واستدرت كما يستدير الجندي وهممت بالانصراف . فاستوقفني الرئيس ليقول بين المزح والجدّ :
ـ وأين التحيّة العسكرية ؟
قلت مبتسماً :
ـ لقد سلبوني حقّ التحية . قال :
ـ ولكنّك أصبحت حرّاً .
فحيّيته شاكراً وانصرفت .
ولأول مرة في حياتي شعرت أنّني لم أدرس الحقوق جزافاً .

قشرة بيضة

ــ لمن هذه القلادة ؟

ــ أيّ قلادة ؟

ــ قلادة الكلب .

ــ وما هو الرقم الذي عليها ؟

ــ ٣٢٥٧٣٠١

ــ هذه لي . وأين وجدتها ؟

ــ حيث يجب أن يكون صاحبها كذلك ــ في برميل الزبالة .

ويضحك القوم . ويضحك معهم صاحب القلادة . ويمدّ يده من فوق رأسي ويقول متثائباً :

ــ هاتها . لعنة الله عليها . لست أدري كيف وقعت من عنقي . لا بدّ أن السلسلة انقطعت .

ويسود الصمت هنيهة في ذلك الجوف من السفينة المتعددة الأجواف التي تقلّنا إلى ميناء ما من موانىء فرنسا . إنّه الجوف الثالث. وهو تحت مستوى الماء بكثير . والصلة الوحيدة بينه وبين الهواء الخارجي سلم لولبيّ من الحديد ينحدر إليه من ظهر السفينة .

الباخرة واحدة من ثلاث عشرة باخرة تحمل قرابة خمسين ألف جندي من جنود العم سام بعدّتهم ومؤونتهم الكاملة ، وتسير في شبه قافلة تحميها الطرادات والمدمرات من كل جانب . فالغواصات الألمانيّة كانت تذرع الأوقيانوس ليل نهار ، وخطرها كان مداهماً في كل ساعة .

— إنّي ، لانكي ! ما قولك لو خطر لغوّاصة ألمانيّة أن تحيي باخرتنا بطوربيد ؟

— حبّذا الطوربيد من غوّاصة . فهو أقلّ هولاً من الطرابيد التي تطلقها من دبرك !

— بل حبّذا الطرابيد من دبري عند الحمم التي تقذفها أمعاؤك من فمك .

— لا كانت طرابيدك ولا كانت حممه . نريد أن ننام .

— نوم الكلاب .

— أكاد أفطس . حرّ ، ودوار بحر ، ووجع رأس ، وهواء مثقل بالروائح الكريهة .

— لمجد الوطن !

— صه !

— وفي سبيل الحرية والعدالة . . .

— حكايات عجائز .

— أسمعت الأوامر ؟

— أيّ أوامر؟

— من الغد وحتى نبلغ فرنسا يتحتّم على كل جندي أن يحمل معه إلى ظهر الباخرة قشور البيض الذي يقدّم له في الصباح ليفرغه في برميل عند رأس السلّم . وإلاّ تعرّض للقصاص .

— ما أظنّني أعيش حتى الصباح . أكاد أفطس .

— إفطس ! لن يضير العم سام إذا نقص جيشه كلباً .

لقد كان الشعور شاملاً بين الجنود بأنّ ما يتحمله الواحد منهم من الشظف ، ومن المشقات والاهانات يكاد يجعله والكلب في مرتبة واحدة .

لذلك فكلمة « كلب » يوجهها رفيق لرفيقه لم تكن تُعتبر تحقيراً لشخصه بل تعبيراً عن حالة جماعيّة.ولذلك كثرت عندهم الأدوات والحاجات التي كانوا ينعتونها بأنّها خليقة بالكلاب . ومنها « قلادة الكلب » و « بسكوت الكلب » و « صيوان الكلب » وغيرها .

أما « قلادة الكلب » فاعلم — أعزّك الله وأجلّك — أنّها قرص من الالّومينيوم ، قطره نحو اربعة سنتيمترات ، يحمله الجندي في عنقه وقد حُفر عليه رقمه . إذ لم يكن بدّ لكل جندي من رقم يُعرف به في الأركان . حتى إذا مزّقته قنبلة فضاعت ملامحه ؛ أو مات ولم يكن من سبيل إلى معرفة اسمه ، قام قرص الألّومينيوم الذي في عنقه مقام تذكرة الهوية . فأحصاه الجيش في عداد القتلى ، وأبرقت الحكومة إلى ذويه تعلنهم وفاته « في ساحة الشرف » . لقد كان رقمي ٣١٨٥٦٨٩ ؛ وكنت تسهيلاً لحفظه ، أقطّعه في ذاكرتي هكذا : ٣١ — ٨٥ — ٦٨ — ٩

وأمّا « بسكوت الكلب » — يا رعاك الله — فخبز أبيض حجم الواحدة منه نحو عشرة سنتيمترات طولاً ، بعرض ستة ، وسماكة ثلاثة. وهو مجفف في الفرن بطريقة تجعل قضمه وسحنه بالأسنان ، أو كسره بالأيدي ضرباً من المحال . إنّه في مثل صلابة العظم وأكثر.فما أظن أن أنياب الكلب تستطيع أن تترك فيه علامة . حاولت مرة أن أكسر « بسكوتة » بيدي فكدت أكسر يدي . وعندها لجأت إلى حجر أدقّها به على حجر آخر . ولكن أسناني لم تقوَ على تفتيت كسرها . فاستعنت بالماء أنقعها فيه أكثر من عشر دقائق .

حذار أن تفهم من كلامي أن جميع الخبز في الجيش كان من ذلك « البسكوت » . ذلك هو التجنّي بعينه . فالجيش الأميركي ، بالنسبة إلى جيوش باقي الدول ، كان جيشاً مرفّهاً حقّاً ،والطعام الذي كان يقدّم للجندي البسيط عندنا كان الضباط في غير الجيوش يتمنّون لو يحصلون على

مثله ، ولكنّ « بسكوت الكلب » كان يُعطى لنا بمثابة خبز احتياطي قبل دخولنا خطوط النار حيث كان يتعذّر على المطبخ النظامي اللحاق بالجنود . وهناك – في خطوط النار – قد ينقطع جندي عن رفاقه ساعات بل أياماً . فيجد في ذلك « البسكوت » ما يحفظ به الرمق ريثما يأتيه الفرج .

وأما « صيوان الكلب » – رفع الله أريكتك – فقطعة من الكتان الكاكي ، مجهزة بثقوب وأوتاد وأمراس . فاذا هي انضمّت ، بطريقة معلومة ، إلى واحدة مثلها ، تكوّن من الاثنتين صيوان صغير يتّسع لجنديين . والويل للطويل منهما . فهو إذا جلس في ذلك الصيوان نطح رأسه السقف . وإذا تمدد برزت رجلاه إلى الخارج .

لقد كان لكل جندي « نصف صيوان » . وهذا النصف كان يلفّ به جميع الأغراض التي لا بدّ له منها ، ويلفّها في شكل اسطواني. وتلك الأغراض – على ما أذكر – هي : بطّانيتان من الصوف. وبدل من الثياب التحتانية. وحذاء بساق عال ونعل مكسوّ بالمسامير ،ما عدا الأغراض الخاصة التي قد يطيب للجندي أن يحملها معه . وهذه الاسطوانة كانت ، بدورها ، تُلفّ بغطاء من الكتان السميك المجهّز بأسيار قصيرة عن جانبيه ، ثمّ بسيرين طويلين يمكّنان الجندي من حمله عل ظهره مشدوداً بكتفيه . ذلك هو « الكيس » . طوله نحو ٦٠ سنتيمتراً . وفي أعلاه جيب كبير يشبه المخلاة ، وهو مخصّص لحفظ أدوات الأكل : صحفة مستطيلة من الالّومينيوم ، لها غطاء من جنسها ، وذنّب أو مسكة تطبق فوق الغطاء . وفي جوفها سكّين وشوكة وملعقة.ويتبعها كوب من الالّومينيوم للماء أو للشاي أو للقهوة.وهو مجهّز بمسكة تستعمل عند الحاجة ، وترفع بعد انقضاء الحاجة .

ذلك « الكيس » بمحتوياته هو بعض حمل جندي من المشاة . وكنت منهم . أمّا حمله الكامل فكان ، بالاضافة إلى ما ذكرت ، يشمل زنار

الخرطوش على خصره وفيه نحو خمسين رصاصة . والحربة الطويلة المعلّقة بالزنّار . والبندقيّة في كتفه . والخوذة الفولاذية على رأسه . ورفشاً ، أو معولاً صغيراً مشدوداً إلى الكيس ، وكمّامة الغاز ، والكبّوت (المعطف) .

والآن ، وقد ذكرت لك أقلّ من القليل ممّا يحتاجه الجندي في الحرب ، أريدك أن تفكّر معي في جيوش من الملايين ، وفي جميع ما تحتاج إليه من مأكل ومشرب ولباس وذخيرة وأدوات نقل ومواصلات ؛ ثمّ أن تفكّر في الذين يتبارون في التعاقد مع الحكومات على سدّ تلك الحاجات ولا رائد لهم إلا الكسب ، لعلّك تدرك أين يكمن السبب الأول والأهمّ في إثارة الحروب ، ومَن هم الذين يملكون المصلحة الأكبر في إثارتها ، وأيّ الجريمة النكراء هي جريمتهم .

فما شأني – أنا ابن يوسف نعيمه الذي يصارع الشوكة والصخرة ، ويعالج حفنة التراب في سفح صنّين لينتزع منها لقمته ولقمة عياله – أجل . ما شأني وشأن فلاح ألماني في شتوتغارت ، أو نجّار نمسوي في فيينا ، أو حدّاد مجري في بودابشت ، أو راعٍ تركي في أضَنَه ؟ وفيمَ أُسلخ عن أهلي ، وعن بيتي ، وعن عملي ، وأُهان وأُمتهن ، وأُساق برغم أنفي إلى حيث أبطش بقومٍ لا معرفة لي بهم ، ولا ضغينة في قلبي ضدّهم ، أو يبطشون هم بي ولا علم لهم حتى بوجودي ؟ ألعلّ في موت هؤلاء المساكين سعادتي ؟ ألعلّ سعادتهم في موتي ؟ أم لعلّ حريّتي في أيديهم ، وحريّتهم في يدي ؟ وها هم عاشوا ما عاشوا من السنين ، وها أنا عشت ما عشت ، وما شعرت يوماً بأنّهم حجر عثرة في طريقي ، ولا هم شعروا بأنّني حجر عثرة في طريقهم . بل كنّا نمشي كلٌّ في سبيله . وكلٌّ يحاول ، بأساليبه الخاصة ، أن يحظى بما يشتهي ، وأن يردّ عنه ما ليس يشتهي . ألعلّني وإياهم سلع رخيصة في أيدي عبّاد الفلس ؟ ذلك هو الأصحّ . فهؤلاء ،

بأساليبهم الشيطانيّة ، يغدقون على تلك السلع أشرف النعوت . فتبدو وكأنّها الجواهر النادرة :

« حماة الوطن . جنود الحرية . أبطال العدالة الإنسانيّة . الغاسلون العار بدمائهم الزكيّة . شهداء الواجب . بُناة المستقبل . الظافرون . الصالحون . الخالدون » الخ الخ .

ألا سحقاً لمخرقاتهم وأضاليلهم ، ومحقاً لمكاسبهم وأحابيلهم !

* * *

ركبنا البحر قبيل الفجر من ميناء في ولاية فرجينيا ولمّا ينقض الشهر على وجودنا في المعسكر . فالتمارين التي تلقيناها في فنون الحرب لم تتعدّ الأمور الأوليّة في الحركات العسكريّة . وهذه لم يتقنها الكثير بيننا . ولكم أذهلني أن أرى جنوداً لا يميّزون يمينهم من يسارهم . وجنوداً يجهلون القراءة والكتابة ، وليس لديهم أيّ فكرة عن الحرب وأسبابها ، والقائمين بها ، وأين تقع النمسا والمجر ، وحتى فرنسا وألمانيا . بل انّني سمعت مرّة ضابطاً يسأل ، وفي يده جريدة : « أين ، من جهنّم ، تقع هذه المدينة ؟ » وراح يهجّىء اسم فيينّا حرفاً حرفاً . . .

من التمارين التي انكمش دونها قلبي تمرين الطعن بالحربة (السنكة) فقد أقاموا لنا في الميدان شبحاً في شكل إنسان . وكان كيساً محشواً بالتبن . وراح الضابط المدرّب ، وقد ركّز الحربة في رأس البارودة ، يعرض علينا شتّى الأساليب في الهجوم من الأمام ، ومن الخلف ، ومن الجانبين ، وشتّى المراكز في الجسم البشري التي تستطيع الحربة اختراقها ، فإمّا تعطّل العدو عن الحركة ، وإمّا تعدمه الحياة . ثم راح يستدعينا واحداً واحداً ليظهر كلّ براعته في الطعن . وعندما جاء دوري طعنت الشبح في صدره فنفذت الحربة من ظهره وقد غاصت فيه حتى القبضة . ولكنني لم أستطع سحبها بسهولة .

فما كان من الضابط إلا أن أخذ البارودة من يدي وراح يُريني ويُري الباقين أن سحب الحربة في مثل تلك الحالة لا يحسن أن يتمّ بحركة واحدة . بل الأفضل أن تدير البارودة في يدك ذات اليمين وذات اليسار ، وأن تسحبها إذ أنت تديرها . وبذلك توسّع الخرق في الجسم فتزيد في تلفه ، ويسهل عليك سحب الحربة .

« هكذا . هكذا يجب أن تمزّق أحشاء ابن الكلبة » . — وراح يمثّل بحركاته ما قاله بلسانه . فكاد يغمى عليّ عندما جنح بي خيالي فتمثّلت كيس التبن بشراً سويّاً .

أما السبب في ركوبنا البحر تحت جنح الظلام فالخوف من الوشاة والجواسيس . وما كان أكثرهم في أميركا ! فالمتحدّرون من أصل ألمانيّ كانوا ، على الإجمال ، يتمنّون النصر لألمانيا، إن لم يكن جهراً فسرّاً . ومثلهم النمساويون والمجريون والبلغار وبعض الذين من أصل سكنديناڤي . لقد أظهرت الحرب لأميركا أن سكانها الذين جاؤوها من جميع أصقاع الأرض ما كانوا يكوّنون « أمّة » بالمعنى الصحيح . ولعلّ ذلك كان في جملة الاعتبارات التي حملتها على خوض الحرب . ففي اعتقاد السياسيين أن ليس كالحرب بوتقة تُصهر فيها شتّى العناصر في البلد الواحد فتخرج منها وهي أكثر تماسكاً من ذي قبل ، وأعمق شعوراً بوحدتها وبمصالحها المشتركة .

كانت القيادة سخيّة معنا في المأكل والمشرب ونحن في عرض البحر . ولعلّها شاءت بذلك أن تلهينا ببطوننا عن الأخطار المحدقة بنا ، وعن الضنك الذي كنّا نقاسيه في مراتعنا . ففي كلّ صباح فطور من البيض المسلوق ، و « الأوتميل » ، والقهوة بحليب ، والخبز الأبيض الممتاز . أما غرفة المائدة فبهو كبير تدلّت من سقفه ألواح من الخشب مربوطة بحبال . تلك الألواح كانت « المائدة » . وكانت في حركة دائمة . وكنّا نلتفّ حواليها

من الجانبين ، فنأكل واقفين . فإذا عنّ لموجة كبيرة أن « تمزح » مع الباخرة ، وكنّا في غفلة عن مزاحها ، ترنّحت « المائدة » وكلّ ما عليها فهوى إلى الأرض .

حاولت ، في أول يوم ، أن آكل من البيض المقدّم لنا . فما إن كسرت واحدة وشممت رائحتها حتى وضعتها بجانب أختها الصحيحة على اللوح ، ورحت آكل خبزي بغير إدام ، وبغير قهوة . لم تكن البيضة فاسدة تماماً . ولكنها كانت طاعنة كثيراً في السنّ . أما القهوة التي كانت تُعدّ لنا في براميل كبيرة حيث يُخلط البنّ والسكّر مع قليل من الحليب المعلّب بعصاً طويلة فما كنت أتذوّقها إلاّ نادراً جدّاً . ولحظ الجندي الواقف بجانبي ما كان من أمري مع البيض فالتفت إليّ وقال :

— ألعلّك لا تحبّ البيض ؟

قلت : لا . لا أحبّه .

قال : أتتنازل لي عن حصتك ؟

قلت : بطيبة خاطر .

وهكذا كان شأني مع البيض في كل صباح . إلى أن كان صباح صعدت فيه من بهو المائدة إلى سطح الباخرة وفي يدي قصعتي أريد غسلها عند رأس السلم . وإذا بملازم هناك يطلب إليّ أن أرفع الغطاء عن قصعتي فرفعته :

— وأين قشر البيض ؟ — قالها وكأنّه اكتشف مجرماً خطراً جدّاً . واكتشفه متلبّساً بالجريمة .

— لم آكل بيضاً . وأعطيت نصيبي منه لرفيقي

— هذه حجة كاذبة . وقد سمعتها من غيرك . أما دريت بالأوامر التي تحتّم على كل جندي أن يحمل قشر البيض من غرفة المائدة ويطرحه في هذا البرميل ؟

– بلى . دريت . ولكنني لم أترك قشراً في غرفة المائدة .
– كفى . اذهب توّاً إلى النقيب .

ذهبت إلى النقيب فوجدت عنده نحو العشرين من المتّهمين مثلي . وعبثاً حاولت أن أقنعه بأني بريء ، وأني لم أذق البيض منذ أول يوم من سفرتنا . ومن غير أن يلتفت إليّ قال وكأنّه ينطق بلسان الوحي :

– عليك أن تحرس الليلة بيت الخلاء من السادسة مساء وحتى السادسة صباحاً .

أردت أن أبصق في وجهه . أن أصيح فيه : لئيم ! خسيس ! دنيء ! رجل بدون قلب ووجدان ! كذّاب ! ولأنّك كذّاب تحسب أن ليس في الناس من لا يقول إلا الصدق – ولكنني تذكّرت السجن . وتذكّرت أنّني قرص من الألومينيوم يحمل الرقم ٣١ – ٨٥ – ٦٨ – ٩ . فقلت ، وكأنّ لساني غير لساني : سمعاً وطاعة يا سيدي ! وانصرفت .

وبيت الخلاء – عطّر الله أيامك ولياليك – بهو كبير في مقدمة الباخرة قامت فيه بمحاذاة جدرانه قنوات ترتفع عن الأرض قرابة نصف المتر أو أكثر بقليل ، وفيها تتدفّق مياه البحر فتغسلها باستمرار . في تلك القنوات كان على الجنود أن يفرغوا ما في أمعائهم ومثاناتهم . ولأن عدد الجنود على باخرتنا كان فوق الثلاثة الآلاف فباستطاعتك أن تتخيّل الازدحام في بيت الخلاء ، وفي كل ساعات النهار والليل .

بقيت طيلة ذلك الليل أذرع ظهر الباخرة ذهاباً وإياباً أمام بيت الخلاء ، وبندقيتي على كتفي ، والنجوم من فوقي تتلألأ غير آبهة بما في قلبي وفكري من ظلام ؛ والبحر لا ينفكّ صدره في اضطراب ، فكأن به مثل ما بي . وقافلتنا تجري فيه مخنوقة الأنوار . وكلما أوشك النعاس أن يطبق أجفاني فركتها بأصابعي حتى الوجع . ولكم حاولت أن أفهم منطق الأحداث التي

قادتني إلى حيث أنا فكنت كمن يحاول أن يحصي أنفاسه والشعر الذي على بدنه . والتعزية الوحيدة التي كنت أثوب إليها هي عين التعزية التي لجأت إليها من قبل : إن في حياتي ما يحتاج إلى مثل تلك التجربة . وهي لولا حاجتي إليها لما جاءتني . فعليّ أن أتقبّلها راضياً . حتى إذا استخلصت منها العبرة الضروريّة لي انصرفتْ عني لغير رجعة . وبتّ من بعد أن بلوتها أغنى منّي قبل أن بلوتها .

ولكم فكّرت في تلك الليلة بالجندية إجمالاً وما يقال في ديموقراطيتها . فهي في اعتقاد الناس تساوي بين الغنيّ والفقير ، والعالم والجاهل ، والرفيع والوضيع . ولا محاباة في ميزانها البتّة . هراء وزور وبهتان . فهي إن ساوت بين الجنود في الأكل والشرب واللباس وباقي ظروف المعيشة ، فمن أين لها أن تساوي في المقدرة على تحمّل المشقات ، وفي الشعور بالمسؤوليات ، وباللذة والألم ، والجمال والبشاعة ، والحق والباطل ، ونحو ذلك ؟

ربّ جندي تكلّفه حمل قنطار مسافة ميل فلا يتوجّع قلبه ، ولا تنهدّ مفاصله . وآخر تكلّفه حمل رطل مسافة نصف ميل فتسحن قلبه ومفاصله سحناً . أو ربّ جندي تقول له « يا أبله » فيمضي وكأنّك قلت له « يا ذا الجلالة » . وجندي تقول له « يا هذا » فكأنّك طعنته بمدية في صدره . أو ربّ جندي تسقيه القهوة وفيها الشعر والبعر والذباب ، فيشربها ويتلمّظ ويقول : « لا أطيب ولا أشهى » . وآخر تأتيه بكوب من اللبن الصرف فيتقزّز منه لأنّه اشتمّ فيه رائحة خفيفة جداً من الزبل العالق بثدي البقرة عند حلبها . لا . لا . إن آلام الجندية لا تنحصر في ما يتحمله الجسد . بل بالأكثر في ما يعانيه الروح .

في تلك الليلة التي أمضيتها في حراسة بيت الخلاء لم يخطر ببالي — ولا أظنه يخطر ببالك — أن ربّة الشعر ستأتي لنجدتي . ولكنها جاءت . وذلك

هو الأمر العجب . فمنذا يستطيع أن يتخيّل اجتماع الأولمب وبيت الخلاء ؟ وأين ؟ على ظهر ناقلة جنود أميركيّة في عرض الأوقيانوس الأطلنطي !

نعم . جاءتني ربة الشعر . ولكنها لم تتحمّل البقاء طويلاً معي . فغادرتني ولم يبقَ في ذاكرتي مما دار بيني وبينها غير هذا البيت :

قُلْ للتي فتحت باب النعيم لنا
يا ليتها أوصدت من خلفنا البابا

ولك أن تفتنّ ما شئت في تحليل العوامل النفسانيّة العجيبة التي تجمع بين باب النعيم وباب بيت الخلاء !

ما ـ ما !

نحن في بريّة بجوار « بوردو » تدعى « بو ديزير » — Beau Désert . وقد بلغناها بالقطار من ميناء « برست » على المحيط الأطلسي في شمالي فرنسا ، وذلك نحو منتصف تموز ، عام ١٩١٨ .

البريّة تغصّ بالجنود الأميركيين ، وبالمنشآت الأميركيّة ما بين ثكنات ومستودعات دقيق ، وذخائر ، وأخشاب ، وحديد ، واسمنت وغيرها . وكلها من الخشب . بعضها جاهز ، وبعضها في طور التجهيز . وأكبرها وأهمها مستشفى عسكري يتسع لمئات الجرحى الذين كانوا يفدون إليه من الجبهة في كل يوم .

أخبار الجبهة لا تبشر بقرب انتهاء الحرب . فالعدوّ لا يزال قويّاً . وقد ألحق بجيوشنا خسائر فادحة في معركة « سان ميهييل » . ومعنويّاته التي كانت قد تحطّمت أبشع التحطيم على أسوار « فردين » — Verdun — عادت فارتفعت كثيراً بعد ثورة البلاشفة في روسيّا وانهيار الجبهة الشرقية . فبات على أميركا أن تحمل حمل روسيّا في الحرب . ومن الشرق — شرقنا — تتسرّب من حين إلى حين أخبار متقطّعة أكاد لا أصدقها . فحملة الترعة — ترعة السويس — التي عقد عليها الأتراك والألمان أكبر الآمال فشلت أفظع الفشل. وفي مكة — أجل ، في مكة ! — أعلن الشريف حسين ثورته على الباب العالي وانضمامه إلى الحلفاء الذين قطعوا له العهود بتحرير العرب واستقلالهم . إنّه لنبض جديد ، نبض مبارك ، هذا الذي يسري في الشرق ، وفي العالم — نبض الحرية والانعتاق من الاستغلال والعبوديّة . وإنّها لمثقلة

بالأحداث الجسام هذه الأيّام التي نعيشها .

ولكنّ الجندية هي الجندية . وهي تقول للجندي : أنت لي أولاً ، ومن ثمّ لنفسك . ولك ، بينك وبين نفسك ، أن تفكّر كما تشاء . وأن تحلم بما تشاء . وأن تعبد من تشاء . على أن تكون طوع بناني ساعة أدعوك ، وعلى أن تقوم بما أفرضه عليك ساعة أفرضه عليك ، ومهما كلّفك من تعب البال ، ووجع القلب ، وإرهاق الفكر والعصب — حتّى ولو كلّفك حياتك .

والجندية كانت رفيقة بنا منتهى الرفق في تلك البرية بالقرب من بوردو . فلم تكلّفنا أكثر من حراسة المنشآت الأميركية هناك . والحراسة على بعد مئات الأميال من خطوط النار ، مهما رافقها من المشقّة والانزعاج ، تكاد تكون نزهة بالنسبة لما يقاسيه المحاربون في الخنادق . فنوبة الحارس قلّما تطول أكثر من ست ساعات ، وأصعبها نوبة نصف الليل حتّى السادسة صباحاً .

والحراسة تقضي على الحارس أن يكون متيقّظاً أبداً . والويل له إذا مرّ به الضابط المفتّش فلم يجده حيث يجب أن يكون ، أو وجده نائماً . فقصاصه قد لا يقلّ عن الموت رمياً بالرصاص إذا كان في إهماله ما يعرّض حياة الجنود أو مصالح الجيش للخطر . وعليه أن يمشي ذهاباً وإياباً طول الخطّ المكلّف بحراسته ، وبندقيّته ، مع الحربة المشرعة ، على كتفه ؛ وألاّ يسمح لأحد بالاقتراب منه — وعلى الأخصّ في الليل — إلاّ من بعد أن يتأكد من أنه « صديق » لا « عدو » . فينتهره أولاً بصوت عالٍ : « قف ! مَن الآتي هناك ؟ » فإذا جاءه الجواب : « صديق » ردّ عليه بقوله : « اقترب أيها الصديق لأتبيّنك » وعندها يسأله عن كلمة السر . فإذا عرفها تركه يسير في سبيله . وإلا أوقفه ونادى بأعلى صوته ضابط الحرس مردفاً نداءه برقم القطاع المولج بحراسته . فيتناول النداءَ أقربُ الحراس وينقله

بدوره إلى الذي يليه . وهكذا إلى أن يبلغ المركز . فتأتي قوة وتقتاد الغريب لتنظر في أمره .

وإذا انتهر الحارس أحداً وطلب إليه الوقوف فلم يقف فعليه أن ينذره ثانية وثالثة بإطلاق الرصاص . وله الحق — بل من واجبه إذ ذاك — أن يطلق الرصاص .

كانت لي مع الحراسة مواقف مضحكة ، ومواقف مبكية . وها أنا أروي لك حكاية ثلاثة من تلك المواقف .

ذات مرة كانت نوبتي من نصف الليل وحتى السادسة صباحاً . وكانت مهمتي حراسة مستودع ما كنت أدري ما فيه . ولكنني ، على ضوء النجوم ، تبينت أكياساً كثيرة مكدسة بجانب جدار من جدرانه ، وهي تعلو عن الأرض قرابة المتر أو أكثر . تلمستها فإذا بها ناعمة جداً ، ثم رحت أعد خطواتي ذهاباً وإياباً لأقطع الدقائق الطويلة التي كان علي أن أفنيها حتى الساعة السادسة . وحسبتني من النشاط بحيث لن يزعجني قتل ثلاثمائة وستين دقيقة .

ولكنني ما قتلت المائتين من تلك الدقائق حتى أضربت رجلاي عن المشي ، وكتفي عن حمل البارودة . ولم يكن لي أين أجلس ، أو أين أتكىء . فاتكأت على الأكياس ، وألقيت بعقب البارودة إلى الأرض ، وأشعلت ١
سيجارة ، غير جاهل أنني في كل ذلك أخالف النظام ، وأعرض نفسي للعقوبة إذا اكتشف أمري . لتفعل القيادة ما تشاء ! فالأوامر التي صدرت إلي من كتفي وقدمي هي فوق أوامر القيادة . ويبدو أن التساهل الذي أبديته نحو قدمي وكتفي أثار حسد أعضائي الباقية ..

فالرأس يريد أن يلقي بثقله على شيء ما — ولو على حجر. وهذه الأكياس بجانبه ناعمة ، ناعمة . وهو ثقيل ، ثقيل . إنه في مثل ثقل الجبل . وليس

يعرف ثقله إلا العنق الذي يحمله . والساقان تريدان أن تتمدّدا كيفما كان وأينما كان — ولو على بيدر من الشوك . وههنا أكياس في مثل نعومة ريش النعام . فعلامَ لا تتمدّدان عليها ؟ والأجفان تصرّ من زمان على الانطباق ، فتفتحها الأصابع عنوة ودونما شفقة . يا ويلها وويل الذين أقاموها حرّاساً على هذه الأكياس ! أليس من حقّها على الأكياس أن تحرسها لعشر دقائق — لخمس — لدقيقتين ، من بعد أن حرست هي الأكياس مائتين واربعين دقيقة ؟ بلى . بلى . . .

ما هذا ؟ وأين أنا ؟ أفي يقظة أم في منام ؟ إنّه وقع أقدام تقترب مني . وإنّه الفجر . والساعة هي السادسة . أمن الممكن أني نمت ساعتين ؟ أجل . وهذا هو الحرس الجديد قادم ليخلف القديم .

وأقفز من على الأكياس إلى الأرض . وأتلقف بارودتي بسرعة البرق وأضعها على كتفي . فلا أخطو خطوتين حتى يدركني العريف على رأس الحرس الجديد . فيبادرني بالتحيّة : « عمْ صباحاً يا نعيمه ! » وهي تحيّة غير مألوفة في مثل تلك الظروف . ثمّ يردف بالسؤال : «كنتَ نائماً ؟ » فأتلعثم ولا أجد ما أقول أكثر من :

— لا . . . هه . . . ولكن . . .

— وأين سدارتك ؟

وأنتبه إلى أنّني حاسر الرأس ، وأنّني ، في وهلتي ، نسيت سدارتي على الأكياس . فأتناولها خجلاً وأضعها على رأسي . فيقول لي العريف غير قادر أن يخنق الابتسامة على وجهه وفي صوته :

— انفضها جيداً من الطحين ، وانفض سترتك وبنطلونك . يبدو أنّ الطحين هو الذي حرسك الليلة بدلاً من أن تحرسه . إياك أن يغلبك النوم مرة أخرى وأنت تؤدي وظيفتك .

بارك الله فيه . لقد كان رجلاً طيّباً .

وكانت ليلة وقعت نوبتي فيها من السادسة مساء وحتّى نصف الليل . والنقطة التي وُكلت إليّ حراستها كانت طريقاً ضيّقاً في البريّة خارج المعسكر طوله نحو ثلاثمئة متر . وكانت الليلة كثيفة الضباب ، كثيرة الرذاذ ، فما أستطيع أن أميّز من الطريق أبعد من طول قامتي . واشتدّ الظلام ، فما أبهت به على قدر ما أبهت بالرطوبة تحمل الصدأ إلى بارودتي . ونظافة البارودة كانت في نظر القيادة أهمّ بكثير من نظافة الجندي .

مرّت ساعة وأنا بألف خير — لا يتعبني المشي ، ولا يؤذيني الرذاذ ، ولا تخيفني الظلمة . وبغتة سمعت حركة عن يميني . فتوقفت وأرهفت سمعي فلم يأتني أيّ نبإ جديد بأي حركة . وأيقنت أن أذني خدعتني . إلاّ أنني ما إن عدت إلى المشي حتّى عادت الحركة . وما إن توقفت حتّى توقفت . عندئذٍ أخذت تساورني شتّى الأفكار ، وشعرت بشيء من الخوف : إنّه بالتأكيد جاسوس يترقّبني ويرافق حركاتي . ولن أمكنه من غايته . فإذا بدرت منه حركة بعد فإنني سأستعمل صلاحياتي . فأنذره ثلاثاً ثمّ أطلق الرصاص . ولكن على من أطلقه وأنا لا أبصر شيئاً في الظلمة ؟ سأطلقه في الهواء وذلك كافٍ لإفساد خطّته . وجاءت الحركة هذه المرّة أوضح من قبل وأقرب .

— قف ! من الماشي هناك ؟

لا جواب .

— قف ! من الماشي هناك ؟

لا جواب .

— قف ! وإلا أطلقت النّار . — قلتها بكلّ ما أملك من قوّة الصوت . وإذ لم ألق جواباً رفعت البارودة إلى كتفي بعد أن دفعت رصاصة إلى حلقومها.

وكدت أكبس على الزناد عندما صكّت أذني شخرة قويّة ، منكرة . لقد انكشف « الجاسوس الرهيب » عن كديش يرعى وحده في الليل . . .

وأمّا النوبة الثالثة التي أريد أن أحدّثك عنها فقد وقعت لي داخل المستشفى العسكري من السادسة مساء وحتى نصف الليل . وكان المستشفى ، في ذلك المساء ، قد استقبل قطاراً طويلاً من الجرحى بينهم عدد كبير من الألمان . وكنت قد شهدت بأمّ عيني عمليّة إنزال الجرحى من القطار ونقلهم على الحمّالات إلى المستشفى . فانعصر قلبي ، وتشتت ذهني ، وأظلمت عيناي من هول ما سمعت وما رأيت . فهذا جندي ترك ساقه اليمنى في مكان ما من الجبهة . وآخر بات فكّه الأسفل شظايا من العظام المعلقة بأسيار من الجلد . وثالث نشبت ضلوعه من صدره . ورابع لا يدري كيف أصبح بدون كفّين ، أو بدون أنف وعينين . إنها الحرب وحدها تستطيع أن تفتنّ مثل ذلك الافتنان في تشويه الجسم البشري . وخيالها هو الخيال الذي لا حدّ لقدرته في مسخ الجمال والكمال ، وفي اختلاق الأوجاع وقلب الأوضاع .

كان عليّ أن أقتل ساعاتي الستّ ذهاباً وإياباً في ممر ضيّق ، طويل ، تقوم عن جانبيه غرف مليئة بالجرحى . ولكم سألت نفسي عن الحكمة في حراسة أولئك الجرحى . أما يكفيهم ما هم فيه من عذاب جسداني ونفساني؟ وأيّ الخطر يمكن أن يأتي منهم على الجيش وسلامته ؟ ولكن من أين لي ، وأنا الجندي البسيط ، أن أرى ما تراه القيادة ؟ فقد يكون بين الجرحى من الألمان مَن تسوّل له نفسه القيام بعمل تخريبي ، أو الهرب ، أليس أنّهم أسرى؟ والأسير ينبغي أن يكون تحت الحراسة مهما تكن حالته الصحيّة . وعلى كل حال ، فوظيفتي الحراسة . وليس من حقي أن أسأل أو أن أفهم .

صراخ ، وأنين ، وعويل ، وبكاء ، وضراعات ، واستغاثات ، وممرضات ، وأطبّاء . وماذا غير ذلك في مستشفى يعجّ بالجرحى من

جبهة القتال ؟ بلى . هناك قساوسة وكهنة كذلك ، وفي البزّة العسكرية. يا لها من سخرية ! فالدولة التي ما استنكفت عن تجنيد أبنائها ، وعن إباحة أجسادهم للرصاص والقنابل والغربان وبنات آوى ، وأرواحهم لشياطين الحقد والبغض والهدم والتنكيل ؛ والكنيسة التي شاركت الدولة في ما فعلته ، وباركت ما فعلته ، وبذلك حالفت الشيطان ضد الله ، — تلك الدولة وتلك الكنيسة تحرصان منتهى الحرص على أن توفّرا لكلّ جندي محتضر — إذا أسعفته الظروف — جميع المراسم الدينيّة المألوفة في ساعة الموت . فكأنّهما ، وقد باعتاه بروحه وجسده لإبليس ، تحاولان في آخر دقيقة ، وعندما لا يبقى له من أمل في الحياة ، أن تستردّاه من إبليس ، وأن تبعثا فيه الأمل برحمة الله في حياة غير هذه الحياة . يا للدين ، ما أفظع الجرائم التي تُرتكب باسمه !

« ما — ما ! . . » — ذلك الصوت ، منذ أن دخلت المستشفى ، يطغى على سائر الأصوات التي تلتقطها أذني. إنّه أعلاها وأعندها وأفجعها. والحنجرة التي ينطلق منها حنجرة مزّقها الوجع . أتوقف ، والبارودة على كتفي ، أمام الحجرة التي ينبعث منها الصوت فأبصر ، في جملة ما أبصر ، سريراً تمدّد عليه فتى في نحو التاسعة عشرة من عمره . رأسه مضمّد حتى الحاجبين . وكذلك ذراعه اليمنى الممدودة فوق اللحاف . بشرته شقراء ، ووجهه وسيم المقاطع . ولكن الألم قد عبث بوسامته . أمّا عيناه فمطبقتان . وأمّا أنفه فلا تزال عليه بقايا من الدم المتحجّر . وأخجل من نفسي ومن بارودتي حتى الانسحاق . فما قيمتي وقيمتها في ميزان تلك الصرخات المتتابعة « ما — ما ! . . » ؟ وهل تلك الصرخات غير شهادات عليّ وعلى بارودتي وعلى كلّ من حمل بارودة، وعلى الذين من ورائي ووراء بارودتي ، والذين من وراء ذلك الجريح وبارودته ؟

وأسأل الممرضة عن الجريح فأعرف منها أنّه جندي ألماني ، وأنّه مصاب

بكسور في جمجمته ، وجروح في ذراعه ؛ وأن شظيّة من قنبلة عطّلت إحدى كلوتيه ، وأخرى استقرّت في مثانته . وأنّه، منذ جيء به إلى المستشفى ، مـا انفكّ يصيح« ماما ! » ولم ينطق بكلمة سواها .

« ما — ما ! ما — ما ! ! ! ! »

وأحاول أن أتخيّل تلك الـ « ماما » في بيت ما — في قرية ما — في مدينة ما — في بلد ما . فلا أستطيع أن أتخيّل امرأة بعينها ، في مكان بعينه ، وزمان بعينه . ويلوح لي أنها كل امرأة، وفي كل زمان ومكان . بل يلوح لي أنها أكثر من امرأة . إنها الأرض ، والشمس ، والقمر وجميع النيّرات في الفضاء بكلّ ما عليها ، وما فيها ، وما بينها . إنها الحياة التي منها كلّ حياة يستغيث بها ذلك المسكين من العابثين بأقداسها ، الجاحدين فضلها ، المشوهين جمالها طمعاً في منجم من الذهب أو الفحم أو الحديد ، أو في بئر من النفط ، أو غابة من المطاط ، أو سوق يبيعون فيها سلعهم التافهة .

أين أذنك يا غليوم ؟ أين أذنك يا ولسن، ويا لويد جورج، ويا كلمنصو؟ وأنتم يا دهاقنة المال والأعمال في العالمين الجديد والقديم — أين آذانكم ؟ أما تسمعون صراخ هذا الجنديّ ؟

ألا بئست الآذان آذانكم . وبئس الصيد صيدكم ، والصنانير التي بها تصطادون ، والطعم الذي به صنانيركم تزودون : حريّة — عدالة — سلام — بحبوحة — رخاء — سعادة . ألا طهّرتم آذانكم من فحيح شهواتكم ، وقلوبكم من رياء ألسنتكم ؟ لعلّكم إذ ذاك تسمعون نداء الانسانية المعذبة : ما — ما ! ولعلكم ، إذ تسمعون ، تفهمون فترعوون ، يا أيها الظالمون .

تطمين من الغيب

ما من نعيم أرضي يدوم . و « نعيمنا » في « بو ديزير » بلغ منتهاه صبيحة يوم من أواسط تشرين الأول (أكتوبر) عندما صدرت الأوامر بالرحيل . فارتحلنا مشياً على الأقدام ، وليس مَن يدري إلى أين ، ولماذا . وهل يدري بيذق على رقعة الشطرنج ، عندما تحركه يد اللاعب ، لماذا تحرّكه ؟ ولعلّ ذلك الغموض الدائم في تنقّلاتنا كان من الأسباب الأوليّة في الانقباض النفساني الذي لازمني طيلة خدمتي في الجيش .

في عصر ذلك النهار بلغنا نقطة تجمّع فيها العديد من الجنود غيرنا . وهناك وقفنا في صفوف طويلة وراح ضابط من ضبّاطنا يقرأ أسماءنا بصوت عال فيقول للواحد قف هنا . وللآخر قف هناك . وخالجني شعور بأنّ الذي نشهده يشبه إلى حدّ بعيد ما ورد في الانجيل عن يوم الدين حيث يجري فصل « الخراف » عن « الجداء » . فالخراف للجنّة . والجداء لجهنم . وما كنت أدري أيّنا « الخراف » وأيّنا « الجداء » . ولكنني دريت في المساء عندما أركبوا قسماً منّا قطار شحن كُتبت على كل شاحنة من شاحناته بأحرف فرنسية كبيرة هذه الكلمات : « ثمانية أحصنة — أربعون رجلاً » . إن الجبهة في حاجة إلى الامدادات . ونحن في طريقنا إليها . وأغلب الظنّ أن الشاحنة التي كانت من نصيبي كانت تحتوي أكثر من أربعين جندياً. إذ لم يكن في استطاعتي ، إذا جلست على أخشابها القاسية ، أن أمدّ رجليّ أبعد من مسافة قدم أو قدمين فكيف بالنوم ؟

أذكر من تلك الرحلة الطويلة ، المضنية ، أنّنا توقّفنا ذات ليلة في محطة

كثيرة الخطوط الجانبية . فخرج بعض الذين في شاحنتنا وإذا بهم يعودون بعد قليل حاملين شتى المقاعد الفخمة المكسوّة بالجلد والمزودة بالرّفّاصات. لقد نهبوها من حافلة الدرجة الأولى في قطار فارغ للركاب كان واقفاً على أحد الخطوط الجانبية . وما هي إلا دقائق حتى عاد غيرهم وقد ملأوا «مطراتهم» كونياكاً . لقد وجدوا في جانب من المحطّة براميل كثيرة . ففتحوا أحدها ، و إذا به مليء بالكونياك . فنهبوا منه ما نهبوا . وما تبقّى تركوه يسيل على الأرض . أوَليس من حقّ الأرض أن تسكر هي الأخرى كما يسكرون ؟ فلتسكر بالكونياك من بعد أن سكرت بالدم . ثم أليس من حقّ الجندي في الحرب ، وقد وضع حياته وجميع مقدراته على كف عفريت، أن يتفلّت من قيود الشرع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأن يمتهن كلّ عزيز وشريف من القيَم الانسانيّة والخلقية في دنيا تستهتر غاية الاستهتار بعزّته وكرامته وقيمته كانسان؟ أليس ذلك ما تلقّنه إياه الحرب في كل ساعة ، وتدفعه عليه دفعاً في كل دقيقة ؟ أليست جريمة الحرب في أنها أبشع جريمة عرفها الناس على الاطلاق ؟ وحسبها بشاعة ، وهي الجريمة النكراء ، أن تتبختر في أرجوان البطولة ،وأن تلبس تاج الفضيلة ،وتحمل صولجان الحقّ والعدل والحرية.

انتهت رحلتنا الطويلة ، البطيئة بالقرب من قرية فرنسية مأهولة كانت آخر محطة استطاع قطارنا بلوغها . ومن بعدها كان علينا أن ندرك القطاع المحدّد لنا مشياً على الأقدام . بتنا ليلتنا في تلك القرية لننزح عنها في اليوم التالي. وهنا أودّ أن أستميح القارىء عذراً إذا أنا نقلت له فقرة من فصل كتبته من زمان بعنوان « الموجّه الأعظم » . والفصل مدرج في كتابي « النور والديجور » وإليك تلك الفقرة [1] :

« . . . وبتنا ذات ليلة في قرية فرنسية حيث بقينا حتى عصر اليوم التالي

١ النور والديجور – طبعة ثانية – ص ١٣٦ – ١٤٠ .

إذ صدرت الأوامر بالانتقال إلى نقطة ثانية تبعد عن تلك القرية نحو العشرين من الكيلومترات . وكان علينا أن نقطع المسافة مشياً على الأقدام ، وعددنا نحو الألف أو أكثر . وكأنّ القيادة أشفقت علينا من قطع تلك المسافة وعلى ظهر كلّ منّا عُدّة تبلغ زنتها عدة أرطال . فرأت أن تنقل العُدد في سيارات شحن لتخفف عنّا مشقّة السير في الظلام .

« . . . مشينا وليس في أكتافنا غير البندقيّة وعلى أجنابنا غير الحربة . ونحن لا نعرف إلى أين نمشي ، وأين نبيت ليلتنا . وعند الغروب أخذت السماء تمطرنا رذاذاً ما لبث أن تحول مطراً هطّالاً . ونحو الساعة التاسعة ، وفي ظلمة تكاد تُنشر بالمنشار ، وفي بحر من الوحل ، بلغنا أكمة عليها بضع بنايات خشبية عرفنا أنها ثكنة أميركية حديثة ، وأنّنا سنبيت ليلتنا فيها . وكان محظوراً علينا تحت طائلة العقاب الصارم أن نشعل في الليل ناراً مهما تكن ضئيلة . فلا سيجارة ولا عود ثقاب . وذلك خشية طيّارات العدوّ . أما بنايات الثكنة فكانت تلوح من نوافذها أنوار مخنوقة .

« وارتفع صوت ضابط من ضباطنا في ذلك الليل الدامس الممطر ، البارد من أواخر تشرين الأول . وفهمنا من الصوت أنّ حقائبنا التي حملتها الكميونات سنجدها مكدّسة في كومة واحدة على مقربة منّا . وأن على كل جندي أن يقترب من الكومة فيأخذ منها أول حقيبة تلمسها يده في الظلام ويحملها إلى أقرب بناية حيث يجري فرز الحقائب في ضوء المصابيح فيعرف كلّ حقيبته من الرقم الذي تحمله (وهو عين الرقم الذي على قرص الالّومينيوم في عنقه) . وكان أني عندما رزمت حقيبتي الاسطوانيّة استعصى عليّ ربط سير من أسيارها . فاستعنت بدبّوس لسدّ ثغرة تركها السير في أسفلها .

« وقبل أن أتقدّم من كومة الحقائب لآخذ منها واحدة وأمضي في سبيلي خطر لي خاطر ما أظنّ أن مثله خطر بجندي غيري . أما كيف جاءني

ذلك الخاطر ، ومن أين ، ومَن الذي أوحى به إليّ فلا أدري . فقد قلت في نفسي : إذا اتّفق وكانت الحقيبة التي سأرفعها بيدي حقيبتي بعينها فذلك سيكون لي علامة بأنّني لن أصاب بأذى في الحرب . وكنت ، ومشاهد المستشفى العسكري ماثلة في ذهني ، أخشى التشويه والتعطيل عن العمل أكثر مما أخشى الموت .

« خطر لي ذلك الخاطر في لمحة الطرف وقبل أن أخطو خطوتي الأولى نحو كومة الحقائب . وما إن خطر لي حتى رحت أؤنّب نفسي أعنف التأنيب قائلاً إن ما خطر لي ما كان غير خاطر صبياني . ومن العار عليّ أن أعيره أقلّ اهتمام . فنصيبه من النجاح ما كان أكثر من واحد في الألف . فكيف أفتح باباً للوساوس أنا في غنى عنه ؟ إنّه لخاطر عابر . فلأنبذه من فكري . ورحت أحاول طرده فما ينطرد . بل كان يلحّ عليّ إلحاح صورة النبع المتدفّق على مَن يوشك أن يقضي عطشاً .

« أخيراً تناولت حقيبة وطرحتها على ظهري ومشيت مع الماشين ، وأنا أحاول أن أصرف فكري عن ذلك الخاطر الغريب فلا ينصرف . وإذا بيدي ، وأنا سائر في الظلام تحت المطر ، تتحسّس الحقيبة على ظهري . فأزجرها وأردّها المرة بعد المرة إلى الوراء . ولكنّها في النهاية تتغلّب عليّ فتنحدر من أعلى الحقيبة إلى أوطأ فأوطأ .

« ما هذا ؟ . . إنّه السير الذي استعصى عليّ شدّه . . . ويخفق قلبي خفقة بعيدة القرار . ولكنّ فكري يبقى في شكّ . فقد يكون في حقيبة غيري سير استعصى على صاحبه . وتعود يدي مرة أخرى إلى الحقيبة فتنحدر إلى أسفلها حيث تلمس الدبّوس الذي سدّت به الثغرة . فينقشع عن فكري كل شك . ويرتقص قلبي في داخلي . وتعتريني رعشة من الرهبة والدهشة والخشوع . إن الحقيبة التي على ظهري كانت حقيبتي ! . . »

هذه هي الحرب

لم ندرِ ، ساعة ودّعنا تلك القرية الفرنسية ، أنّنا نودّع آخر معلم من معالم « المدنية » . فمن بَعدها ما بقينا نبصر أطفالاً ونساء وشيوخاً ، ولا أي إنسان في لباس مدني . ولا نسمع مواء قطة ، أو قوقأة دجاجة ، أو خوار بقرة ، أو رنّة ناقوس ، أو صفير قطار . فحيثما ساقتنا الأوامر مشينا إمّا في طرق حفرتها القنابل وحوّلتها الأمطار سواقي من الأوحال . وإما في حقول لا خضرة فيها ولا حياة ، وقد فعلت بها المدافع فعل الجدري برقعة الوجه . وإما في غابات تعرّت أشجارها من جذوعها فجثت بقاماتها المهشمة ، المشوية بالنار ، وكأنها النادبات في مأتم الطهر والجمال . وإذا مررنا بقرية أو مدينة مررنا ببقايا من سقوف وجدران تطلّ من بعضها فجوات كانت نوافذ أو أبواباً في سالف الزمان . تلك المنازل كانت بالأمس آهلة بالسكان . أما الآن فالسكون المخيّم فيها سكون أخرس ، أبكم . سكون رهيب بعمقه . ساحق بحزنه .

عصر السادس والعشرين من تشرين الأول كنا – نحن القادمين من بعيد لإمداد الجبهة بدم جديد ولحم جديد – واقفين في صفوف طويلة وسط غابة من غابات « الأرغونّ » . وكان ملازم أول يسأل كلاًّ منّا بمفرده عن اسمه ومهنته . وتحصيله من الدرس ، واللغات الي له إلمام بها . وعندما سمع مني أنّني أعرف الروسيّة والعربيّة والفرنسية بالاضافة إلى الانكليزية ، وأنّني أحمل شهادة في الحقوق ، تبسّم وقال : « إذاً نحن زميلان » . وطلب إليّ أن أتنحّى جانباً . ومن بعد أن انتهى من مهمّته قال لي : « انتظرني

ريثما أعود » . وانتظرته . فعاد ليعطيني قصاصة من الورق وليأمرني بأن أحملها إلى ملازم آخر . وقد جاء في القصاصة ما نصّه : « ناقل هذه البطاقة هو الرجل الذي حدّثتك عنه » .

تلك القصاصة التي لا أزال أحتفظ بها في جملة ما أحتفظ به من آثار حياتي في الجندية كانت لي مفتاح فرج كبير . فقد كان منها أنني بتّ ليلتي تلك في صيوان واحد مع رقيب تكشّف لي عن خرّيج في الحقوق من جامعة « فرجينيا » . وللحال شعرت بشيء من الانفراج في الكربة النفسانيّة التي لازمتني منذ أن لبست البزّة العسكرية . لقد عشت خمسة شهور في غربة فكرية قاسية ، وفي قحط روحي هائل . فمعظم رفاقي نصيبهم من الثقافة ضئيل . وأحاديثهم قلّما ترتفع فوق ما يأكلون ويشربون ، أو ما يعانون من الطقس ومتاعب الحياة الجندية . وها هو رجل أستطيع أن أتحدّث إليه في غير تلك الأمور ، وبلغة أرقى من التي يستعملها الجنديّ العادي . وذلك وحده كافٍ لأن يخفّف من حدّة غربتي وقحطي . سألت الرقيب :

ــ هل لك أن تخبرني لماذا أحالوني إليك ؟

ــ ستكون واحداً منّا .

ــ ومَن أنتم ؟

ــ نحن عصبة من ثمانية . شغلنا الاستكشاف وتزويد الأركان بالمعلومات عن سير المعارك .

ــ وكيف تفعلون ذلك ؟

ــ لنا ضابط خاصّ بنا . وهو يوزّع العمل علينا . فيرسل اثنين في نوبة لا تدوم أكثر من ساعتين ويعيّن لهما المكان الذي منه يرقبان سير المعركة . وعليهما أن ينقلا إلى القيادة ، إمّا بالتليفون أو بواسطة الرسل ، كل حركة يستطيعان استكشافها من حركات جيوشنا وجيوش العدو ،

لتعرف القيادة كيف توجّه النار ، وإلى أين ترسل الامدادات .

ـ وهذه الرقابة تتمّ بالعين المجردة أم بالآلات؟

ـ بالعين حيث تكفي العين . وبالآلات حيث لا بدّ من الآلات .

ـ وهل هؤلاء الرقباء معرضون للخطر ؟

ـ بكل تأكيد . إنّهم عيون الجيش وآذانه . والعدوّ لا يطيب له شيء مثلما يطيب له تعطيل عيون عدوّه وآذانه . لكنهم ، عادة ، يبقون على مسافة خلف خطوط النار .

ـ يبدو أنّك عتيق في مهنة الاستكشاف .

ـ خضت معركتين قبل التي سنخوضها قريباً . أمّا أنت فيبدو أنّك لم تعرف الجبهة بعد .

ـ لا . لم أسمع بعد قصف المدافع وهدير الطيارات .

ـ ستسمع . ستسمع معزوفة جهنّم .

جاء صباح اليوم التالي صباحاً غير مألوف في تلك الأصقاع بشمسه ودفئه ، وعلى الأخص في ذلك الفصل من السنة . فجلت جولة قصيرة في المخيّم ، وعندما عدت إلى الصيوان كدت أصعق لمنظر رفيقي جالساً على الأرض في مدخله ولا شيء يستّر بدنه على الاطلاق . فقد كانت ثيابه ملقية على الأرض بجانبه ، وفي يده قميص يقلبه وكأنّه يفتش في طيّاته عن شعرة ، أو شوكة ، أو حسكة كانت تخدش جلده .

ـ ما هذا الذي أنت فيه يا صاحبي ؟ فجاءني جوابه هادئاً رصيناً :

ـ هذا ـ هذا . هذا هو القمل .

ـ القمل ؟ ! !

ـ نعم . القمل . ألعلّك لم تبتل به بعد ؟

تقززت نفسي من ذكر تلك الحشرة الكريهة . وكدت أصيح بالرجل :

« إنّها لقباحة منك وقلّة حياء أن لا تنذرني بما أنت فيه . إذن لما رضيت أن أنام وإياك في صيوان واحد» . ولكن صوته الهادىء جعلني أخجل من ثورتي ضدّه .

ـ سيكون لك نصيبك من القمل . القمل في الجبهة عنوان الشرف . وهو « شرف » لا مفرّ منه . وكيف تفرّ منه والنظافة في واد وأنت في واد ، وثيابك التحتانيّة تكاد تهترىء على بدنك ولا سبيل إلى نزعها وغسلها ، ولا بدل لديك منها ؟ هذه هي الحرب يا صاحبي .

بعد عشرين ساعة كنّا في طريقنا إلى خطوط النار. وقد بلغنا، عند الظهر ، مزرعة صغيرة ، مهجورة ، كان الاسطبل الكبير فيها لا يزال قائماً بجدرانه وسقفه . وكان وقت الغداء فصدرت الأوامر بالاستراحة في فسحة واسعة بالقرب من الاسطبل ويتناول الغداء هناك ، وكان المطبخ المتنقّل قد توقف في متوسّط تلك الفسحة . فراح الجنود ، وقد أخذ منهم الجوع والتعب ، يتوافدون على المطبخ فيقفون أمامه في صفوف طويلة ، وقصاعهم في أيديهم . فما إن يأخذ واحدهم نصيبه حتّى يجلس على الأرض وهو لا يصدق أنّه سيُسكت ضجيج معدته . لقد كان الجو حوالينا صافياً ، ساكناً ، وفي استطاعة النظر أن يسرح بعيداً .

ما كاد القليل منّا يملأ قصاعه ويبدأ يأكل حتّى دوّى بغتة انفجار هائل اهتزّت له الأرض تحت أقدامنا . وإذا بنا نبصر على بُعد ثلاثمئة متر عموداً ضخماً من التراب والدخان يرتفع أمتاراً كثيرة في الفضاء ثمّ يتبعثر ويهوي كما يهوي الماء الغزير من الفوّارة الكبيرة . وللحال ران على الجميع صمت رهيب . فالذي كان يمضغ توقف عن المضغ . والذي كانت الملعقة في يده تفتّش عن بعض الحساء في القصعة جمدت يده . والذي كان يرتقب دوره ليأخذ نصيبه من المطبخ بات وعيناه لا تتّجهان إلى المطبخ بل إلى حيث ارتفع

وهوى عمود الدخان والتّراب .

وعقب الانفجار آخر ، وآخر ، وآخر . وأخذت أعمدة التّراب والدخان تقترب منّا في شكل مروحة . لقد كان هناك قوم جياع . ولكنهم ، في مثل رفّة الجفن ، لاذوا بالفرار تاركين المطبخ وما فيه تحت رحمة القنابل الزاحفة من حيث لا يدرون . الجوع خير من الموت . والجوع – حتّى الجوع – يهرب من وجه الموت . والمهمّ ، المهمّ هو أن لا يهرب النفَس من صدرك .

الاسطبل الكبير يموج بالهاربين من الموت ، وفي جملتهم أنا . وكذلك البيوت القليلة المتبقية في المزرعة . والعجيب أنّني ، والذعر بادٍ على وجوه الجميع وفي أصواتهم المخنوقة ، ما كنت أحسّ أي انقباض في قلبي . بل رحت أتسلّى بما أشهدهَ حواليّ من حركات وما أسمعه من همسات .

– ابتعد عن الحائط .

– انطرح أرضاً .

– تعال نختبىء تحت هذه العربة المهشمة. فخشبها قد يحمينا من الشظايا .

– لعنة الله على « البُوْشْ » . لقد حرمونا غداءنا .

– وعلى « الضّفادع[1] » . ما شأننا بحروب الجانبين ؟

وبغتة ارتجّ الاسطبل بمن فيه . لقد هبطت قنبلة على بيت بالقرب منا. ولأول وهلة خلتها هبطت علينا . وعلى الأثر سرت إشاعة أن القنبلة قتلت ضابطين وخمسة جنود وجرحت آخرين .

– هذه هي الحرب .

– لا كانت الحرب . . .

وساد في الاسطبل سكون رهيب . إنّه الموت يرفرف فوق رؤوس

[1] « البوش » كنية اختلقها الفرنسيون للألمان في الحرب العالمية الأولى . وهي للتحقير . وأما « الضفادع » فكنية اختلقها الجنود الأميركيون للفرنسيين .

الجميع . مضت ساعة والقنابل تقترب حيناً ، وحيناً تبتعد ، ثم كانت فترة هدوء . فصدرت الأوامر باستئناف السير . إنّنا لا نزال في طريقنا إلى الخطوط الأماميّة .

مشينا في أرض مكشوفة ، والقنابل تتطاير من فوق رؤوسنا فلا نسمع إلا صفيرها المنكر . وقبيل الغروب بلغنا سفح أكمة . فقيل لنا إنّنا سنبيت ليلتنا هنالك ، ولا سقف فوق رؤوسنا إلا السماء . وإذا بالذين كانت لهم خبرة بالحرب يأخذون معاولهم ورفوشهم ويروح كل واحد يحفر حفرة ليرقد فيها . فحذوت حذوهم . وأنا كذلك إذا بضابط عصبة الاستكشاف يأتيني لا آمراً، بل متوسلاً بأن أوسع الحفرة جهد المستطاع لعلّها تتّسع لي وله . ثم لا يستنكف عن مساعدتي في الحفر : الله ، الله ! أين عنفوان الضباط وغطرستهم؟ إنّهم في خطوط النار يصبحون كالحملان . فالقنابل لا تميّز بين جندي وجنرال . وفي استطاعة الجندي ، إذا هو غضب على ضابطه ، أن يقتصّ منه بشتّى الوسائل ، فيعدمه الحياة إذا شاء ، ويعزو ذلك لرصاصة من رصاص العدو ، أو لأيّ من الأحداث غير المرتقبة التي تطرأ في ساحة القتال .

وقبل أن ننام قال لي الضابط إن رجال عصبتنا سيتولّون حراسة المعسكر في الليل ، وإن نوبتي ستكون من الثامنة وحتى العاشرة . وأمّا نقطتي فستكون على رأس الأكمة التي ننام في سفحها .

أنا على قمة الأكمة . الليل مظلم ، والبرد قارس إلى حدّ أنّني ، وقد التففت بكبّوتي السميك ، أرتجف كالورقة ، لذلك أعود إلى حفرتي فآتي بالبطانية التي كنت افترشتها هناك فألتف بها فوق الكبّوت ، وأمضي أوسّع بين خطواتي وأسرع في مشيي إلى ما دون العدو بقليل . فيدفأ جسمي ، ولكنّ يديّ لا تدفآن وهما تتناوبان حمل البارودة . ويزحف الجوع كذلك عليّ . فأذكر أن في جيبي بسكوتتين من « بسكوت الكلاب » . وآخذ واحدة وأحاول

قصمها فأراني كمن يقضم الحديد . ولكنها تسيل لعابي وتزيد في جوعي . فأنحني إلى الأرض أفتشها في الظلام عن حجر فلا أجد حجراً . وأفطن إلى عقب البارودة و « السنكة » . فأضع البارودة على الأرض ، وأضع البسكوتة على عقبها وأنهال عليها ضرباً بالسنكة . فيتنتّت جانب منها . وأجمع الفتات فأضع بعضاً منه في فمي وأمضي في مضغه وسحنه بأضراسي إلى أن يتاح لي ازدراده . إنّها لعمليـة شاقّة . ولكن ماذا تفعل بالجوع إذا استفحل ؟

الأكمة تطلّ من جانبها الثاني على وادٍ عميق. في قعر ذلك الوادي دمدمة لا تنقطع من رصاص البنادق ورصاص الرشاشات . من بعيد تزأر المـدافع الثقيلة — مدافعنا ومدافع العدو . وبين الفينة والفينة يشتعل الأفق بالأنوار الملوّنة بجميع ألوان قوس قزح ترسلها دوائر الاستكشاف علامات لجيوشها المحاربة في الظلام . إنّها لمتعة نادرة للعين في مثل ذلك الليل ، لولا أنها تحمـل الموت لآلاف المحاربين .

على ضوء تلك الأنوار يتكشف لي خط طويل من الأشباح المتحركة . الخط يمتد من قعر الوادي ويصعّد في الأكمة فيمرّ جانب منه على مقربـة منّي . إنّهم رجال الاسعاف يسيرون اثنين اثنين — واحد من الأمام وواحـد من الخلف ، وعلى أكتافهم الحمّالات . وعلى الحمّالات الجرحى والقتلى . ومن حين إلى حين تطرق مسامعي أنات الجرحى لتختلط بأزيز الرصاص ، وصفير القنـابل ، وزئير المـدافع . والله وحـده يـدري مَن مِـن أولئك الجرحى سيعود إلى الحياة ، وكيف . وأيّ التراب سيضمّ أولئك القتلى الذين لن يبقى لهم من أثر غير صليب يقوم فوق مثواهم ، وغير قرص من الالومينيوم يُسمّر إلى ذلك الصليب .

وتختلط الصور في مخيّلتي ، والأصوات في مسمعي . وتختلط عـلـيّ مشاعري وأفكاري . فلا أصدق أن الذي أراه وأسمعه حقيقة ، وانّني أنا

الذي يراه ويسمعه . ويخالجني شك في أنّني أنا — أنا . لا . لا. إن الواقف على هذه الأكمة لا يمكن أن يكون ذلك الصبي الذي ولد في بسكنتا وترعرع في الشخروب ؛ ولا ذلك الفتى الذي درس في الناصرة ، وفي بولتافا ، وفي سياتل؛والذي اتخذ القلم سلاحه الأوحد في الحرب على الجمود، والجهل، وفي الدفاع عن حرية الابداع وعن جمال الحق والحياة . ذلك الفتى لا يمكن أن يكون شريكاً في البشاعة الّتي تتمثّل ههنا تحت جنح الظلام . إنها لبشاعة يخجل منها حتى الوحش .

اشهد يا ليل . اشهدي يا نجوم . ان الانسان أحطّ من الحيوان. إن الـذي يزهو بعقله يغدو في الحرب بدون عقل . فهو يشوّه الصحيح ثمّ يعود فيحاول تصحيح ما شوّه . وهو يقتل الحي ليعود فيندب الحيّ . وهو يدمّر ما بناه ليعود فيرمّم الذي دمّره .

ههنا ما قيمة المحبة ؟ — لا شيء . ما قيمة الحق ؟ — لا شيء . ما قيمة العدل ؟ — لا شيء . ما قيمة الطهر؟ — لا شيء . ما قيمة الروح؟ — لا شيء. ما قيمة الله ؟ — لا شيء . ههنا القيمة كل القيمة — للفلس .

لماذا ؟ لماذا ؟؟ لماذا ؟ ؟ ؟

وإلى متى هذا الجنون ؟

ودرو ولسن يريد أن يرد العالم إلى رشده . ولكن من بعد أن يستسلم الألمان دون قيد أو شرط . وهو يريد أن تنتهي الحرب « لا غالب ولا مغلوب » — Peace Without Victory — وأن يُبنى عالم ما بعد الحرب على أساس « حق تقرير المصير » . وأن تُشرف على تنظيم ذلك العالم منظمة مؤلّفة من جميع دول الأرض .

الألمان يتراجعون في كل مكان . ولكنهم يحاربون إذ هم يتراجعون ويكبّدون الخسائر ويتكبّدون . وجليّ أن الحرب أوشكت على النهاية . فأيّ

خير يُرجى بعد من هذا الرصاص وهذه القنابل ؟ وأيّ الحسرة هي حسرة الذين ستشوّههم آخر قنبلة أو آخر رصاصة . أو حسرة أهل الذين ستودي بحياتهم تلك الرصاصة الأخيرة ، أو القنبلة الأخيرة ! ذلك هو الظلم بعينه .

ولكن . . . لماذا ؟ لماذا ؟ ؟ لماذا ؟ ؟ ؟ ؟

« مرحباً »

« مرحباً »

« جئت لأحلّ محلّك »

« أهي الساعة العاشرة ؟ »

« العاشرة تماماً » .

وأعجب لنفسي كيف لم أسمع خطى رفيقي تقترب مني قبل أن أسمع تحيّته ، وأعجب للساعتين كيف تصرّمتا دون أن يرهقني عدّ دقائقهما . وأعود في الظلمة إلى حفرتي فأجد رفيقي فيها قد التوى على نفسه في شكل كعكة ، وأسمعه يغطّ كأن ليس هنالك بَرْد ولا حرب . وأهبط إلى جانبه على مهل مخافة أن أوقظه . ويغلبني النعاس فأغفو لأستفيق صباح اليوم التالي وأسير مع رفاقي النهار كله وبعضاً من الليل فلا نستريح إلاّ في ياخور كبير فُرشت أرضه بروث الخيل . وننام – أنا ورفاقي – على ذلك الروث وكأنّه الفراش الوثير . فلا يزعجنا هدير المدافع من شتّى العيارات ، وشتّى الاتجاهات . لقد ألفناه . ومن ثمّ فالتعب لا يرحم . والنعاس لا يرحم .

« غاز ! غاز ! غاز ! »

ما كان ذلك الصوت ليوقظنا لولا الانفجار العنيف الذي سبقه .لقد وقعت قنبلة من الغاز السامّ على الياخور الذي نحن فيه فأحدثت فجوة كبيرة في جانب من سقفه وقتلت من قتلت وجرحت من جرحت من رجالنا ، ونشرت في المكان رائحة كريهة . وللحال اندفع الباقون منّا يفتّش كلّ واحد

عن كمامته ليحكم وضعها على وجهه وأنفه وفمه مخافة أن يتسرب الغاز القتّال إلى رئتيه . أكاد أختنق . فأنفي مسدود ، وفي فمي خرطوم من المطاط أعضّ عليه وأحاول أن أتنشّق الأوكسجين بواسطته . وأنا ما تعوّدت أن أتنفّس بفمي . ليتني لم ألبس الكمامة . . .

بعد نصف ساعة جاءت الأوامر برفع الكمامات . الحمد لله ! لقد بقي من الليل نحو أربع ساعات . فلننم ! ولتنبح المدافع ما طاب لها النباح !

بقينا في خطوط النار حتى مساء التاسع من تشرين الثاني . وفي كلّ يوم كان العدو يتقهقر أسرع فأسرع ، فنتعقّبه أبعد فأبعد في أرض كثرت فيها الأخاديد والحفر ، وتناثرت على أديمها جثث الخيل والآدميين ، وشظايا القَنابل ، والأسلحة السليمة والمحطّمة ، والخوذ الفولاذية . ولكم مررنا بمدافع كبيرة مركّزة على قواعد من الباطون وبالقرب منها أكداس من القنابل المعدّة لها . ولكم دخلنا بيوتاً في بعض القرى والمدن فوجدنا فيها موائد ممدودة والأكل الذي عليها لم تمسّه يد ، وقناني النبيذ المعتق ، والشارتريز والشمبانيا وما أشبه لا تزال أختامها عليها . ولكننا قلّما كنّا نجرؤ أن نتذوق شيئاً منها . فقد شاع عن الألمان أنّهم كانوا يسمّمون المآكل والمشروبات التي يتركونها بعدهم . مثلما كانوا يتركون قنابل في شكل أقلام . فلا يلتقطها الجندي الأميركي حتى تنفجر في يده .

لقد كان همّ جنودنا في تلك الأيام أن يجمعوا ما استطاعوا من بقايا العدوّ ليحتفظوا بها تذكارات للحرب ؛ لا همّ أكانت خوذة ، أم سيراً ، أم علبة سيجارات ، أم قلماً ، أم زرّاً ، أم أيّ أثر ألماني يهون حمله .

خرجت عصبتنا من خطوط النار دون أن يصاب أحد من رجالها بأيّ أذى . وفي ليلة التاسع من تشرين الثاني وجدنا أنفسنا في بيت مهجور من مزرعة مهجورة . وكان في قبو البيت قشّ كثير . فافترشنا القشّ ونمنا

شاكرين الله على أنّنا لن نُكره في الصباح على تعقّب العدو تحت وابل من الرصاص والقنابل .

نحو نصف الليل أيقظني جاري ليهمس لي همساً :

« انتهت الحرب . لقد أُعلنت الهدنة ! »

وسرت الوشوشة في البيت كلّه . فما لبث الهمس أن تحوّل صياحاً ، والصياح أن انقلب نشيداً من الأناشيد الكثيرة التي كان يحبّها الجنود :

« نحن هنا ، لأنّنا هنا ، لأنّنا هنا »

وفجأة انطلق مدفع يزمجر ، ثم ثان ، ثم ثالث ، فبلع الشباب ألسنتهم ، وكأنّهم النار سكبت عليها الماء .

مشينا اليوم التالي بكامله . وكنّا نسير نحو المؤخّرة . وقبيل ظهر الحادي عشر من تشرين الثاني ، إذ كنّا نسير في شارع موحل من قرية متهدمة ، التقانا ضابط فرنسي كان يسير وحده . فحيّانا . وبصوتٍ عالٍ ، ووجه يطفح بشراً قال :

La guerre est finie !

انتهت الحرب !

لقد كان لنا أن نقفز فرحاً — أن نرقص — أن نغنّي ، ولكن التعب الذي كان قد أخذ منّا ، والجوع الذي كان يعضّنا ، والوحل الذي كنّا غارقين فيه حتّى الكواحل ، والوسخ العالق بايدينا وشعور لحانا ، والقمل الذي كان يرعى في أبداننا — كلّ هذه انتزعت منّا حتّى الشعور بالفرح ، فكيف بالقدرة على التغنّي به ؟ لذلك تابعنا سيرنا وكأن بشارة الهدنة كانت لسوانا .

في ذلك اليوم رقص الملايين من الناس في شتّى بقاع الأرض ، وغنّوا ، وسكروا ، وعربدوا . إلاّ الذين تذوّقوا طعم الحرب . أولئك ظلّوا صامتين .

استحمام؟

– متى تنتهي هذه « النزهة » ؟

– عندما ننتهي نحن . عندما لا تبقى لنا أرجل تقوى على المشي .

– ظهري ينقصم .

– هذا السير اللعين – سير البارودة – يخرط كتفي خرطاً . عبثاً أنقلها من كتف إلى كتف . لقد انهدّت الكتفان .

– مجنون . اطرحها عنك .

– وبماذا أجيب القيادة إذا هي طالبتني بها ؟

– لتذهب القيادة إلى جهنّم . وهل لها أن تحاسب جنديّاً خارجاً من خطوط النار عن بارودته ؟ ضاعت وكفى !

ويطرح الجندي المنهوك بندقيّته جانباً ، ويمضي يقرع الطريق بحذائه المثقل بالمسامير والوحل ، وقد تورّمت رجلاه من المشي ، وراح يحسّ الحقيبة على ظهره كما لو كانت في مثل ثقل الجبل .

من بعد إعلان الهدنة بقينا عشرة أيام نمشي مشياً موصولاً ، فلا نستريح إلاّ في أوقات الأكل ، وفي الليل الذي كنّا نمضيه حيثما اتّفق أن تدركنا الظلمة – مرّات في العراء ، ومرّات في مزارع وقرى مهجورة ، متهدمة . وقد كنا نسير في كل يوم بين ٣٠ و ٤٠ كيلومتراً ، والمثل اللبناني يقول : « الأوقية على البعد قنطار » . أي أن الحمل الزهيد جدّاً يغدو باهظاً جدّاً كلما طال المشي وطال المجال . لذلك كان لا بدّ لنا من تخفيف أثقالنا . ولذلك حذوت حذو الكثير من رفاقي فتخلصت من بارودتي وخوذتي وخوذة ألمانيّة

كنت احملها تذكاراً . وزدت على ذلك بأن دفنت بطانيّة في حفرة اتخذتها مرقداً لي ذات ليلة ، فقد حاولت في الصباح أن أرزمها ، كالمعتاد ، مع رفيقتها في حقيبتي . فلم تطاوعني أصابعي في شد الأسيار لشدّة الصقيع . فآثرت دفنها متمنّياً أن يهتدي إليها أحد الفرنسيين في الجوار فلا تذهب سدى .

أخيراً ، استقرّ بنا المقام في قرية فرنسية تدعى **Cry-sur-Armanson** حيث أخذنا نعود بالتدريج إلى الحياة الجندية العادية التي ما خلت يوماً من المشقّات والإهانات والمضض النفساني . وقد احتفظت من الفترة التي أمضيتها في تلك القرية ببعض المذكّرات التي كنت أدونها بالانكليزية تدويناً خاطفاً ، وبمنتهى الإيجاز ، فكأنّها رؤوس أقلام . وها أنا أنقل إلى القارىء بعض ما جاء فيها دون ذكر اليوم والتاريخ — إلاّ حيث تدعو الحاجة :

« نقيم هنا في بيت كبير ، قديم ، مهجور — لعلّه كان قصراً فيما مضى . والمكان المخصّص لعصبتنا أسوأ مكان فيه . . . القمل يسلبني لذّة النوم . ثيابي التحتانيّة تتهرّأ على بدني . وليس مِن بَدَل . »

« خرجت ورفاقي السبعة في نزهة بجانب الترعة التي تمرّ من هنا . صادفنا صيّاد سمك فابتعنا منه كيلوين بخمسة فرنكات ، وطلبنا إلى ربة بيت فرنسية أن تُعدّ لنا عشاءً من السمك ففعلت . وما كان أشهى ذلك العشاء وأسعدنا به ! لقد اشترينا السعادة بخمسة فرنكات ! . . »

«أريد أن أكتب بعض الرسائل . ولكن الورق والمغلّفات لا وجود لها . انقطاع الرسائل عنّي يقلقني . لأول مرّة في حياتي الجندية أراني فارغ الجيب تماماً . ولأول مرّة أراني مكرهاً على الاستدانة . لقد استدنت عشرة فرنكات من رفيق في عصبتنا اشتريت بها جرابات وسيجارات . تكتسحني موجة من

الحزن العميق كلما فكّرت في هذه الأيام التي أهدرها من حياتي هدراً . . . »

« جرت اليوم تمارين من التاسعة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر . مطر ، وبَرْد ، وإتلاف وقت ثمين ، أمّا الحصيلة فثياب مبلّلة ، ورِجلان كالجليد ، وحذاء فيه من الماء مثل وزنه ، وأكثر . نفسي في غثيان . كتبت إلى هنري . لا رسائل من أيّ صديق أو نسيب . . . »

« أكرهنا أمس على غسل ثيابنا التحتانية في النهر لنتخلّص من القمل . القمل لا يقتله الماء البارد . أمس واليوم أسير وليس على بدني ثياب تحتانيّة . إنّي أنتظرها لتجف . في النهار أنشرها على السياج . وفي الليل أنام عليها لعلّ حرارة جسمي تجفف شيئاً من رطوبتها . . . »

« تسري في المعسكر اشاعات أنهم قد يرسلوننا إلى روسيّا . . . وإشاعات انّنا سننتقل قريباً إلى أحد الموانىء البحرية لنبحر من هناك إلى اميركا . . . البَسْط عند رفاقي يعني السكر . دبّرت لهم الليلة عشاءً ممتازاً في بيت مزارع فرنسي . فأكلوا وشربوا حتى لم تبق لهم أرجل تقوىء على المشي . وذلك هو « الكَيْف » الذي يبتغونه . . . »

« أجفلت عندما أخبرني أحد الرفاق أنّه قرأ شيئاً عن أخي في جريدة أميركية تصدر في باريس . ثمّ تبين لي أن الذي قرأه لم يكن غير إعلان من أخي هنري يسأل فيه عنّي وعن مصيري . . . يا لقلبه الحنون ! إنّه قلق عليّ مثلما أنا قلق عليه . كلانا في فرنسا ، ولكنّ واحدنا لا يعرف شيئاً عن مقرّ الآخر ومصيره . . . أتابع آخر الأخبار في الجرائد الفرنسية . . . في إحدى خطبه للجنود قال ولسن مرّة : « عندكم قوّاد وليس عندكم أسياد » . ليته كان هنا ليبصر ما يفعله ويقوله قوّاده . . . »

« اليوم رأس السنة — ١٩١٩ . فهل يكون بداية عصر جديد في تاريخ العالم ؟ هل ينجح ولسن في إقامة « جمعية الأمم » ؟ يبدو أن حلفاءه بدأوا

منذ الآن يعاكسونه . إنّهم لا يريدون الاعتراف بحرية البحار . إنّهم يطالبون بتعويضات باهظة . إنّهم يريدون الانتقام من العدو . إنّ « المودة » التي يريدها ولسن أن تسود علاقات الأمم تبدو صرخة في واد ونفخة في رماد . . . »

« سمعت أحد رفاقي يقول اليوم : « إذا نشبت حرب جديدة وشاؤوني أن أتطوّع لها فعليهم أن يحرقوا العالم ، ثمّ أن ينخلوا رماده ليجدوني » . ذلك هو لسان حال كلّ جندي . . .

« يبدو لي أن الحرب التي شهدنا نهايتها منذ أمد قريب لن تكون غير التوطئة لحرب جديدة . بل إن هذه الحرب قد ابتدأت الآن . إنها حرب العبد ضدّ سيّده ، وحرب المظلوم ضدّ ظالمه ، فأسياد العالم اليوم لن يلقوا سلاحهم ما دام في العالم محرومون يطالبون بحقوقهم . والمحرومون قد أخذوا يطالبون بحقوقهم بلسان « البروليتاريا » . فكري وقلبي يدفعانني بالتدريج إلى « اليسارية » المتطرّفة . ولكنّني لا أبوح بذلك لاحد . الجندي الأميركي لا تشغله على الاطلاق مشكلات الانسانيّة الكبرى . حياتي في الجيش تحترق احتراق الشمعة . وليس في الجوّ ما يبشّر بخلاص قريب . لم يبق لي إلاّ أن أنسى نفسي .فالجندية هي الجحيم لرجل عيناه مفتوحتان وفكره لا ينام . »

« . . . في الساعة الثانية والربع بعد نصف الليل سمعنا صوت الرّقيب الأوّل يهدر في آذاننا : «انهضوا ! وإلى الخارج ! » ظنَنّا أن العالم عاد يشتعل . ثمّ تبين أن أحد الجنود قضى حاجته « الكبيرة » على حافّة الخندق المخصّص لتلك الغاية — لا فيه . فارتأى النقيب ، بثاقب حكمته ، أن يعاقب مائتي جندي بجريرة جندي واحد ، فيحرمهم النومْ ، ويدفعهم في برد كانون الثاني على طمر ذلك « الكنز » . ورفش واحد من التّراب كان يكفي لطمره . إنّه لاستخفاف صارخ بالناس وبالكرامة الانسانيّة . وإنّه لمن المؤسف أن يكون الجندي العوبة في أيدي ضبّاطه . . . »

« جرت اليوم محاولة ثانية لتطهيرنا من القمل بواسطة حمّامات دعاها الجنود « حمامات ذات الرئة » . نزعنا ثيابنا ورحنا نغتسل تحت مرشّات من الماء الفاتر . ولكنها مرشات ما كانت تجود علينا إلاّ بقطرات معدودة من الماء كأنها البخيل يجود بدريهماته . لذلك كانت النتيجة صفراً . أمّا الانزعاج فكان كبيراً جدّاً . . . تسري إشاعات بأنّهم قد « يشحنوننا » إلى ألمانيا . وأخرى بأننا قد نرافق الرئيس ولسن في عودته إلى أميركا . . . »

« تجادل خمسة من رفاقي في أمر « الخطيئة » . فسأل الواحد إذا كان التدخين خطيئة في نظر الكتاب المقدس . وتعجب آخر لله كيف خلق الفرنسيين وهم شعب مليء بالخطايا . . . »

« كتبت أمس إلى غانم وسأكتب إلى ثابت بشأن القضية السورية التي تشغلني كثيراً[1] . . . كتاب عبد المسيح جدّد ذكريات نيويورك . من حين إلى حين تعاودني الرغبة في الكتابة فتمنعني عنها الظروف التي أنا فيها . تدفّقت الرسائل عليّ دفعة واحدة — أربع من أديب ، وأربع من هنري . إحدى رسائل هنري كادت تفجر الدمع من عينيّ . لم يكن المسكين واثقاً من أن أخاه ميخائيل لا يزال بين الأحياء .

« رفاقي في الجندية لا يبالون بأخبار مؤتمر الصلح . عبثاً أحاول أن أثير اهتمامهم بقضايا العالم الكبرى . كلّ همّهم ينحصر الآن في العودة إلى بلادهم . . .

---

١ شكري غانم شاعر لبناني عاش ومات في باريس . ومن آثاره الأدبية مسرحية « عنتر » بالفرنسية . كان على اتصال برجال السياسة في فرنسا .

أيوب ثابت ، السياسي اللبناني ، كان في نيويورك ابان الحرب حيث سعى لتأليف لجنة من المهاجرين دعوناها « لجنة تحرير سوريا ولبنان » كان هو رئيسها ، وجبران سكرتيرها للمراسلات الأجنبية ، وكنت سكرتيرها للمراسلات العربية .

«كتاب من أديب . لقد أرسل لي طرداً للميلاد فيه بعض الشوكولاته وخاتم ذهبيّ قدّمه إليّ محفل والا والا وقد حفر عليه اسمي . وها نحن في السابع عشر من شباط والهدية لم تصل . ومن الأكيد أنّها لن تصل[1] .

« ٢٥ شباط ١٩١٩ — وهذا أمل يتحطّم . كانت القيادة قد أعلنت عن رغبتها في إرسال عدد من الرجال الجامعيين في الجيش إلى جامعات في فرنسا وإنكلترا وإيطاليا وغيرها من البلدان الأوروبية الحليفة ، وكنت قد قدمت طلباً للالتحاق بالسوربون . وبعد ظهر اليوم التقاني الملازم « هيكس » الذي قدّمت طلبي عن يده فأوقفني ليعلن لي عميق أسفه وعظيم دهشته لأنّني لم أكن من المختارين . . . إلى أين تقودني أقداري ؟ أراني ، من بعد أن طالعت رواية « زيسكا » لماري كوريللي ، لا أستطيع التهرّب من التفكير في القوى غير المنظورة التي تسيّر حياتنا . لقد أثار الكتاب كلّ ما فيّ من ميول صوفيّة . وكم كنت أتمنّى لو يتاح لي التعبير عنها . ولكن أنّى لي ذلك وأنا حيث أنا ، والحياة التي أحياها توافه في توافه ؟

« الأحد ٢ آذار ١٩١٩ — عاد الحلم فتحقّق . فبعد ظهر اليوم نسافر أنا وثلاثة آخرون من فيلقنا إلى Rennes لنلتحق بجامعتها بدلاً من السوربون . رفاقي ينظرون إليّ بشيء من الحسد . الذين ما كانوا يشعرون بوجودي من قبل يتوقّفون الآن ليصافحوني ويهنئوني . . . بعد اليوم سأكون جندياً بالاسم والمظهر لا أكثر . . . »

تلك الساعة كانت من أسعد الساعات في حياتي . وقد جاءت أبدع كفّارة عن كلّ ما قاسيته في الجندية من عنت ومشقّة ومذلّة وحرمان .

حقّاً إن الصبر مفتاح الفرج .

---

١ بعد شهور أعاد البريد الخاتم لأخي أديب . فحسب المسكين أنني غدوت بين المفقودين . أما الشوكولاتة فكانت من نصيب غيري

جندي في جامعة

كنّا أربعة من فيلق واحد . أحدنا من جامعة كاليفورنيا . والثاني من جامعة فرجينيا . والثالث من جامعة هارفارد . وأنا من جامعة واشنطن . ولم تكن بيننا معرفة سابقة . لكنّنا ما إن ركبنا القطار — وفي الدرجة الثانية — حتّى تعارفنا ، وتقاربنا ، فكانت بيننا صحبة وثيقة دامت طوال إقامتنا في الجامعة وتعدّتها إلى ما بعد ذلك بسنين .

بلغنا Rennes صباح الرابع من آذار ، ١٩١٩ ، من بعد أن مكثنا يوماً في باريس تفقّدنا فيه ما استطعنا من آثارها البارزة . ولم يفتنا أن نمضي سهرة في مقهى من مقاهي «مونمارتر» . لقد كنّا كالعصافير أفلتت من قفص ، أو كالمنفيين في برية قاحلة وقد رُدّوا إلى أوطانهم وذويهم . وهل أقسى من الغربة بين قوم لا تجمعك بهم لغة أو غاية ؟ وهل أدعى إلى الشعور بالفرج من أن تتبدّل غربتك أنساً إذ تراك بين قوم تفهمهم ويفهمونك إذا أنت حدّثتهم ، أو هم حدّثوك في غير شؤون دقيقة أنْت فيها ؟

تقع Rennes في مقاطعة تدعى Bretagne في شمال شرقي فرنسا . وهي المدينة التي فيها أعيد النظر في قضية دريفوس الشهيرة . ولأنها عريقة في القدم فهي لا تخلو من آثار ذات قيمة . أهمّها الكاتدرائيّة وقصر العدل . والجامعة التي فيها جامعة محترمة بين جامعات البلاد ، وإن لم تكن من أشهرها وأكبرها . أمّا عدد سكانها فنحو ٨٠،٠٠٠ نسمة .

في تلك المدينة الهادئة كان علينا أن نمضي ما تبقّى من السنة الدراسيّة ، أي نحو أربعة شهور . فنحصل ما نستطيع تحصيله ، كلٌّ على قدر طاقته

ورغبته . فغاية الحكومة الأميركية من إرسالنا إلى شتى الجامعات الأوروبية لم تكن رفع مستوانا الثقافي على قدر ما كانت لفتة عطف منها على حليفاتها ، وخطوة « لتوثيق عرى الصداقة » معها . ومن ثمّ فلم يكن لدى الحكومة من الوسائل ما يمكنها من نقل مليونين من جنودها في فرنسا في أقلّ من عام . وليس للجنود ما يعملونه في خلال تلك المدة . فعلامَ لا تتيح الفرصة لبعض الجامعيين في الجيش لتحصيل ما يمكنهم تحصيله في تلك المدة، وإن يكن زهيداً ؟

كان عدد الطلاب الأميركيين في « رينّ » نحو ١٨٠ طالباً . وقد أُعطيت لكلّ منهم ، بالإضافة إلى راتبه الشهري، تخصيصات لتكاليف الأكل والسكن. فكان لهم الحق أن يستأجروا غرفاً حيثما شاؤوا ، وأن يأكلوا ويشربوا أينما طاب لهم الأكل والشرب . وقد استأجرت لي غرفة في بيت مدير « الليسيه » . وكانت غرفة فيها مدفأة كبيرة يوقد فيها الحطب . وفيها سرير كبير فراشه من الريش ووساداته من الريش . حقّاً إنها لقفزة هائلة — من الجحيم إلى النعيم.

ولكن نعيمي الأكبر لم يأتني من غرفتي الفسيحة . ولا من المدفأة الجميلة . ولا من فراش الريش ووسائد الريش . بل من الحمّام ! فقد كان همّي الأول — وليس في البيت حمّام — أن أهتدي إلى الحمّام العمومي . فاهتديت . وكان حمّاماً فيه الماء الساخن ، وفيه اللّيف ، وفيه الصابون ، وفيه البخار وكلّ ما يمكن أن يشتهيه جسم معذّب ، مهان ، لم ينغمس في الماء منذ بضعة شهور . ولا تسل عن شعوري ، عندما اخترق البخار جلدي فرحت أفتّت الوسخ المتجمّع عليه فتائل طويلة وسميكة ، ثم أمضي أفركه باللّيفة والصابونة فأحسّني كمن ينزع عنه أعباء ثقيلة ، كريهة . أو كمن يلبس جلداً جديداً ! وإني لأذكر دهشتي — وبهجتي — عندما رحت أفرك قدميّ وإذا بشيء في مثل حجم الجوزة ينفصل من مؤخّرة كلّ عقب من عقبيهما ، تاركاً مكانه فجوة في مثل حجمه. لقد تحجّر الجلد هناك من كثرة المشي والوسخ .

بعد التشريفات التي ابتدأت بحفلة استقبال أقامها لنا المحافظ وانتهت بحفلة مماثلة أقامتها الجامعة انصرفنا إلى الدرس . وقد اخترت أن أدرس تاريخ فرنسا ، وتاريخ الأدب الفرنسي والفنّ الفرنسي ، والقوانين الدستورية في فرنسا ، بالإضافة إلى درس في اللغة الفرنسيّة رتّبته الجامعة خصّيصاً للطلاب الأميركيين الذين لم تكن للأغلبية الساحقة منهم أيّ معرفة حتّى بالهجاء الفرنسي . ولذلك كانوا يحسدونني على القليل الذي أعرفه من تلك اللغة ويتخذونني لهم ترجماناً .

لقد كان من ذلك القليل الذي كنت أعرفه من الفرنسية أن كلّفني رفاقي الأميركيون في كلية الحقوق إلقاء كلمة شكر بلسانهم في حفلة أقامها لهم زملاؤهم الفرنسيون . ويبدو أنها جاءت كلمة موفّقة . أو أنّ الطلاّب الفرنسيّين استكبروها جدّاً من جندي أميركيّ . فأقبلوا عليّ يهنئونني ويعجبون « لطلاقتي » وحسن بياني . وفي جملة المهنّئين كانت طالبة فرنسيّة عليها مسحة قوية من الذكاء والجمال والأريستوقراطية . وهذه الفتاة — وسأدعوها مادلين ، وهو غير اسمها الحقيقي — لم تلبث أن قامت بيني وبينها علاقة كادت تتجاوز حدود المودة البريئة لو أنّني شئت لها ذلك .

كانت مادلين تتحين الفرص لتصطادني وحدي في حديقة الجامعة . فإمّا نجلس هناك معاً في ظلّ أرزة قالت لي إنها من أرز لبنان . وإمّا تدعوني إلى بيتها حيث كان والداها يستقبلانني بمنتهى البشاشة . ومن وقت لآخر كنّا نخرج في نزهة ضمن المدينة ولكن برفقة والدتها . فالتقاليد الفرنسيّة كانت تحظر على الفتاة أن تمشي مع فتًى غريب عنها إلا إذا رافقهما أحد من أهلها بصفة « شابرون » .

ويبدو أن مادلين باتت بَرِمة بمصاحبة والدتها لنا في جميع نزهاتنا . لذلك جاءتني ذات يوم تقول إنها رتّبت الأمور بطريقة تسمح لي ولها

أن نخرج في نزهة بعيدة خارج المدينة . وكان النهار من نهارات الربيع الفاتنة بدفئها وصفائها وهوائها . والمكان الذي اختارته مادلين كان بريّة لا رقيب فيها إلاّ الأشجار والأزهار والأطيار ، وإلاّ الأعشاب الطريئة التي افترشناها غير آبهين بأنّنا نجني على شبابها وعلى أشواقها إلى التمتّع مثلنا بربيع الحياة وبركاته .

ونحن كذلك ، إذا بي أعود فجأة اثنتي عشرة سنة إلى الوراء — إلى غابة حول دير في جوار بولتافا . وإلى وضع كنت فيه هناك يشبه الوضع الذي أنا فيه الآن إلى حدّ بعيد . ترى هل تكون لي القوة لأفعل هنا ما فعلته هناك،فأعف عن فتاة تستميت بين يديّ وتستسلم لي بكلّيّتها ؟ وكيف أعف وفي دمي جوع وأيّ جوع ؟ إنّه جوع الحياة إلى الحياة . إنّه الجوع الذي لولاه لا حياة .

وها هو الجسد الحيّ الذي بين يديّ . إنّه يمور بمثل الفتنة التي يمور بها هذا النهار من الربيع . إنّه يضجّ ويستغيث . إنّه يتمنّى لو يستطيع أن يتّحد بجسدي اتحاداً لا انفصام بعده . والرجفة التي تسري منه إليّ تجعلني أرتجف ارتجاف الورقة على الغصن . والنار التي تشويه تشويني . التراب من تحتنا ، والشمس من فوقنا ، والأشجار والأزهار من حوالينا تدعونا إلى ما تدعو إليه الطير والفراش عندما تكون في مثل حالتنا . إنها الطبيعة بأسرها تدفعنا دفعاً على الانصياع إلى زخم الشوق المتأجّج فينا. ففيمَ العناد ؟ ولماذا التردّد ؟

ولكنّ صوتاً في داخلي ما انفكّ يزجرني. لقد ابتدأ ذلك الصوت همساً فلم يلبث أن انقلب هدراً :

« عار عليك يا ميخائيل أن تشتري لذّة دقيقة بندامة عمر . هذه الفتاة التي بين يديك طيف عابر في حياتك . والصلة التي تربطك بها ليست الحبّ

الذي يقدّس كلّ صلة . غداً تعود إلى بلادك — إلى عملك — وتنساها . فلتكن الذكرى التي تتركها لها ذكرى معطرة بالشهامة والإباء . ولتبقَ لك في قلبها شمعة ومبخرة . وليكن الانسان فيك أقوى من الحيوان . اصرف فكرك عن الشهوة تقتلها في الحال . لا تغذّها بوقود من خيالك تنطفىء من تلقائها . . . »

وكان أن انتصر الانسان فيّ مرّة أخرى على الحيوان — ولكن بشقّ النفس.

مساء ذلك اليوم عدت إلى غرفتي . وإذا بربة البيت تهرول إليّ لتقول إنّ أبي جاء مرّتين يسأل عنّي في خلال غيبتي . يا الله ! أبي ! ! ذلك هو المستحيل . فأبي في بسكنتا البعيدة . إذاً مَن عسى الزائر أن يكون ؟

عدت إلى المرأة أسألها عن الزائر وأوصافه الخارجية . وإذا به يرتقي الدرج إلى الدور الثاني حيث كانت غرفتي . فما إن أبصرته حتى انطلقت نحوه بسرعة السهم ، وضممته إلى صدري ، وضمّني إلى صدره ، وبقينا كذلك دقيقة لا نستطيع النطق بكلمة . ولا تسل عن دهشة المرأة وخجلها عندما عرفت منّي أن الزائر كان أخي لا أبي . . .

كان أخي هنري معسكراً مع فرقته في ميناء « برست » على بعد ١٥٥ ميلاً من « رين » . وقد غادر البر الأميركي بعد مغادرتي له بشهور . ولكنه لم يدخل خطوط النار . وظلّت المواصلات بيني وبينه مقطوعة إلى ما بعد الهدنة . وعندما عرف أنّني سأكون في جامعة « رين » لأربعة أشهر حصل على مأذونيّة لزيارتي . وقد صرف معي ثلاثة أيام. وكان برتبة رقيب أول ، ومحترماً جدّاً بين رفاقه . ولكم حمدنا الله معاً على اجتماعنا حيث لم يكن يخطر لأيّ منّا أن نجتمع ، وعلى نجاتنا من اخطار الحرب وويلاتها ، وعلى سلامة أهلنا في لبنان من المجاعة وأهوالها . والأمر الوحيد الذي عكّر علينا بهجة ذلك اللّقاء المفاجىء هو الخبر الذي كنت تلقيته حديثاً عن وفاة ستّي

أم يوسف . رحمات الله على روحها وعظامها .

لقد صحّ حدسي عن مادلين . إنّها غارقة في حبّي إلى ما فوق أذنيها . ولكنّ حبها لا يلاقي حبّاً مماثلاً من جانبي . ألعلّني بتّ غير قابل للاشتعال بنار الحبّ ؟ أم أنّ مادلين ليست الشرارة القادرة على إضرام تلك النار ؟

ومادلين تفكّر في الزواج ، وتبني القصور بالخيال .. لقد اتّضح لي ذلك عندما وجدتني وإيّاها وحدنا في بيتهم بعد نزهتنا في البريّة بأيّام .

« إنيّ لا استطيع العيش بدونك بعد اليوم ، فأنت ملء فكري وقلبي وكلّ حياتي . »

ذلك ما قالته لي في تلك الخلوة . فما بقيت أدري بأيّ الكلمات أبدّد أوهامها من غير أن أفطر قلبها وأسحن روحها سحناً .

« لست حقيقاً بهذا الحبّ الذي تغدقينه عليّ يا مادلين . إنّه لكنز عظيم لي ، وقوّة لا تثمّن . ولكنّني عابر سبيل . ووراء أجفاني حلم كبير ، بعيد . وأنا ما أزال من تحقيقه في أوّل الطريق . ذلك الحلم هو كلّ ما أملك في هذه الدنيا . فلا مال ، ولا عقار ، ولا وظيفة ، ولا جاه ، ولا حسب ونسب . والزواج في مثل هذه الحالة عبء ثقيل ، وضرب من الجنون » .

« سأكون لك أتبع من ظلّك ، وأخفّ من ظلّك » .

« حتّى الظلّ يا مادلين يمكن أن يكون عبئاً . . . »

عندها ارتمت المسكينة في حضني وراحت تجهش بالبكاء وتردّد : « ميشال . . . ميشال . . . . دربنا قصير . ولكنه جميل . وكنت أودّه أن يطول أبعد بكثير — إلى الأبد . . . ستبقى لي نبراساً في حياتي . ستبقى صديقاً لي . . . ألا تعدني بذلك ؟ »

فوعدتها . وفي الواقع دامت المراسلة بيننا نحو سنتين من بعد عودتي إلى نيويورك . وقد قطعتها مخافة أن أفسد على الفتاة مستقبلها . ولست أدري

ماذا حلّ بها فيما بعد ، وأين هي اليوم — أفي هذه الدنيا ، أم وراء حدودها ؟

لم تصرفني علاقتي مع مادلين ، ولا علاقاتي مع رفاقي ، ولا دروسي ، عن التفكير في مشكلاتي الخاصة — مشكلات النفس ، وقضايا المستقبل . فكنت كلما فكّرت في الحرب التي انتهت ، وفي نصيبي منها ، شعرت بفداحة الشرور التي يرزح الناس تحت أثقالها. فماذا كانت حصيلة أربع سنوات من القتال ؟ عشرات الملايين من القتلى ، والجرحى ، والمشوّهين ، والمعتوهين ، واليتامى ، والأرامل ، والدور والمزارع العامرة وقد باتت خراباً يباباً . وبلايين الأموال التي هُدرت رصاصاً، وقنابل، وبنادق، ومدافع ، وبواخر وبوارج استقرّت في قاع البحار . ناهيك بالأيدي التي تعطلت عن العمل ، والأفكار التي تعقّمت ، والقلوب التي باتت مباءات للحقد والكره والنفاق والغش وشهوة الانتقام.

وها هم « الأربعة الكبار » الجالسون في قصر « فرساي » يجمعون ويطرحون ، ويضربون ويقسمون ، ويوهمون أهل الأرض أنهم وحدهم الذين أوتوا الحكمة من ربهم والسلطان لخلق عالم جديد من أنقاض العالم القديم . فما هو العالم الذي يخلقونه ؟

إن بين الأربعة واحداً يملك شيئاً من صفاء البصر ، وليس في قلبه طمع في أي دولة أو ضغينة ضد أي دولة . وهو يعرف أن العالم الجديد لا يمكن أن يُبنى على الحقد والمكر والجشع . وإذا هو بُني كذلك فمصيره الانهيار . لذلك يرتأي أن تنتهي الحرب « لا غالب ولا مغلوب » ، ولا غرامات وتعويضات . وهو يريد لجميع الشعوب المحكومة من غيرها أن يكون لها الحقّ في تقرير مصيرها ، وفي إختيار الحكم الذي ترتضيه لنفسها ، ويريد أن تشرف على العالم الجديد مؤسسة دعاها « عصبة الأمم » أو « جامعة الأمم » . وأن تكون لتلك المؤسّسة القوّة المادية والمعنوية الكافية لتنفيذ مقرّراتها . فلا تستطيع أيّ دولة ، أو كتلة من الدول ، أن تزجّ بالعالم في حرب كبيرة أو صغيرة .

ولكنّ ودرو ولسن « معلم مدرسة » .أي شيء محتقر في أعين السياسيين. والسياسة ، في عرف هؤلاء ، لا يمكن أن تنظر إلى العالم — ويجب ألاّ تنظر إليه — بعين صافية، بل بعين رمداء، فلا ترى منه غير ما تحسبه منفعة لها وكسباً وإن كان فيه الضرر كل الضرر ، والخسارة كلّ الخسارة لغيرها . ولأنّ السياسة عينها رمداء فهي لم تتعلّم حتى اليوم أن « منفعة » تضرّ الغير هي ضرر لصاحبها أو لطالبها .

لذلك سخر كلمنصو ولويد جورج في قلبيهما من ولسن « المعلم » ، وجارياه إلى حدّ بلسانيهما . فكانت « عصبة الأمم » ولكن بدون أعصاب وأظافر وأنياب . وكانت « العصبة » مطية سلسة القياد لانكلترا وفرنسا في تنفيذ مآربهما . ثمّ كان « تقرير المصير » ولكن من بعد أن تقمّص جسداً عجيباً دعوه « الانتداب » . وكان ما هو أدهى من ذلك بكثير . كان « تصريح بلفور » . وتصريح بلفور يقضي بأن يدخل رجل غريب بيتاً آهلاً بالسكّان — وأن يدخله عنوة وبقوة سلاح صاحب الجلالة البريطانيّة — ثم أن يقول لسكّانه : « لا تجزعوا . فالبيت سيبقى بيتكم . ولكنه سيكون بيتي « القومي » . ولا شيء أكثر من ذلك » . إنّه وعد لا تستطيع بذله — فكيف بتنفيذه — حتى عفاريت سيّدنا سليمان .

وتمضي السياسة المنافقة تضحك في سرّها حاسبة أنها ربحت جولة كبيرة مع الضعف والسذاجة ، وأنها ستسمن بما ربحته ، وتدخل السعادة من أوسع أبوابها . فلا تلبث أن تدرك أنّ سمنتها ما كانت غير ورم ، وأن الباب الواسع الذي ولجته لم يكن غير باب الضيق والوجع . ولكنها لا ترعوي . وتمضي تزيد في نفاقها نفاقاً .

لقد كان همّ ساسة فرساي أن يتقاسموا أسلاب الحرب . وما دروا أن حركة جديدة تمخّضت عنها الحرب ستعود فتستلبهم أسلابهم. تلك هي

الحركة التي قام بها البلاشفة في بتروغراد . ولعلّهم دروا. وإلاّ لما حاولوا خنق تلك الحركة في المهد . ولكنّهم باؤوا بالفشل . ونمت الحركة واشتدّ ساعدها . وها هي اليوم تقضّ عليهم مضاجعهم ، وتفسد صفو بالهم ، وتكرههم على تعديل مخططاتهم .

وكيفما كان الأمر فالحرب قد رفعت كابوس الحكم التركي عن بلادي وما جاورها من البلاد العربيّة . وتلك حسنة من حسناتها . فهل يكون الانتداب كابوساً أفظع من الكابوس التركي ؟ وأنا – ماذا يكون مصيري بعد أن أسرّح من الجنديّة – وقد بات ذلك قريباً ؟ أأعود إلى لبنان ؟ وماذا أعمل في لبنان ؟ ومن أين المال لابتياع تذكرة السفر ؟ أأعود إلى نيويورك ؟ وماذا أعمل في نيويورك ؟ لقد توقّفت « الفنون » عن الصدور . ويبدو أنها لن تعود . وها هي الرسالة التي جاءتني من نسيب عريضه قد عصرت قلبي عصراً . أتنطفىء الشعلة التي أوقدناها بانطفاء الفنون ؟ لا وألف لا ! بل يجب أن تضطرم أعلى فأعلى ، وأوسع فأوسع . وأي بأس إذا كان جيبي فارغاً من المال ؟ سأجد لي عملاً أكسب منه رزقي . أمّا قلمي فيجب أن ينهض من جديد . لقد أخرسته الحرب سنة كاملة . وعنده الكثير مما يريد أن يجري به – أن يحيا لأجله .

وأهلي ؟ أخي نجيب فات وقت دراسته . إنّه اليوم في عامه التاسع عشر . وقد أغلقت في الحرب المدرسة الانكليزيّة التي كان يتعلّم فيها . وأختي غالية تعلّمت ما تعلّمته في المدرسة الروسيّة التي أغلقت هي الأخرى إبان الحرب. وأختي قد تتزوّج قريباً . يبقى أخي الأصغر – نسيب . فهو في الخامسة عشرة . وينبغي أن يدخل مدرسة داخلية . بل ينبغي أن يتابع الدرس حتى نهاية الجامعة . وعليّ أن أقوم بتكاليفه .

إي . كريم هو الله . . .

جبهات جديدة

بدت لي « والا والا » قطعة من جنان الخلد عندما رجعت إليها في أواخر تموز من العام ١٩١٩ . فدموع الفرح التي استقبلني بها أخي أديب وزوجته ، والغبطة التي غمرتني لدن ضممت إلى صدري كلاً من صغارهما وقد أصبحوا ثلاثة — صبيّين وابنة ؛ والدفء الذي تسرّب إلى قلبي من ذلك الجوّ العائلي ، والطمأنينة التي لفّتني بها الهدوء المهيمن في تلك المدينة الريفية ، الهانئة ، والشعور بأنّني دخلت أقسى تجربة في حياتي فخرجت منها أقوى مما كنت — كلّ ذلك أشاع في نفسي الراحة والسلام . ولكن إلى حين .

فلم ينقض الشهران حتى أخذت أفكر في العودة إلى نيويورك . لقد بات لي في تلك المدينة الصاخبة حلم أخضر هو بمثابة الواحة في الصحراء . وبات لي فيها رفاق عزاز — رفاق الطريق ورفاق الجهاد . وها هو جبران ، وقد استطال بقائي في والا والا ، يلحّ عليّ في الإسراع بالعودة إلى نيويورك للعمل على ردّ الحياة إلى « الفنون » :

« . . . وهناك يا ميخائيل أمور كثيرة تبتدىء وتنتهي بك كلما فتحنا حديث مجلة الفنون . فإذا كنت تريد إحياء المجلة عليك أن ترجع إلى نيويورك وتكون « الزنبرك » وراء كلّ حركة . لأنّ نسيباً لا يستطيع أن يفعل شيئاً في الوقت الحاضر . . .

« الخلاصة ، إنّه على وجودك في نيويورك يتوقّف نجاح المشروع . وإذا كان رجوعك إلى نيويورك يستلزم التضحية فالتضحية في مثل هذه الظروف هي العزيز الموضوع على أقدام الأعز . والمهمّ الموقوف على مذبح

الأهمّ . وعهدي أن العزيز في حياتك هو تحقيق أحلامك . والأهمّ في حياتك هو استثمار مواهبك . . . »

عدت إلى نيويورك ولا أمل لي بردّ الحياة إلى « الفنون » ، وليس لديّ أيّ خطّة لأيّ عمل أرتزق منه ، وجيبي لا يحتوي من المال أكثر من نفقة شهر واحد . ولكنّ شوقي إلى استئناف الجهاد ، بعد أن صرفتني عنه الجندية ، كان بغير حدود . ومثله إيماني بجدوى ذلك الجهاد ونبل أغراضه . لقد كنّا نؤثر لو تكون لنا مجلة من طراز الفنون . أما وقد بات ذلك متعذّراً إلاّ بالاستجداء وبذل ماء الوجه لدى الذين يملكون المال ، ولا يملكون ذرة من التقدير للأدب ، فأيّ بأس إذا نحن اتخذنا صحيفة أخرى منبراً لأقلامنا ، وإن تكن دون مستوى « الفنون » بكثير ؟ فالمهمّ أن تحمل تلك الصحيفة صوتنا إلى العالم ، وأن يكون بيننا وبين صاحبها تجانس وتقارب في الروح والهدف .

وها هي « السائح » — جريدة نصف أسبوعية ، ضئيلة الحجم ، قليلة الشأن بين صحف الجالية . تغلب عليها مسحة الهزل والخفّة حتى في معالجة الشؤون الطائفيّة والإقليمية التي كانت تصرف لها جلّ اهتمامها . ولكنّ صاحبها فتى يدور في فلك الحركة الجديدة ، ويتفهّم أهدافها ، ويتحسّس القوى التي تزخر بها ، ويشوقه أن تكون له يد فيها . وبالتالي فبينه وبين القائمين بتلك الحركة وشائج من المودّة الصافية . فقد بات مكتبه ، من بعد احتجاب الفنون ، ملتقى لهم . هناك يجتمعون ، وهناك يتباحثون ويتناقشون . فآناً يجدّون منتهى الجدّ ، وآونة يهزلون ويضحكون ، وعلى الناس — حتى على أنفسهم — يتهكّمون . وبالأخصّ إذا جرى الحديث عن المال والمتموّلين . فجميع الذين تألّفت منهم « الرابطة القلمية » فيما بعد لم يكن بينهم — في ذلك الزمان — واحد يملك من المال ما يفيض عن حاجته من يوم ليوم ،

أو من شهر لشهر . بل إن بعضهم ما كان يملك أُجرة الترامواي أو « الصبواي » . ولكي تعرف ما كان بينهم وبين الدولار من عظيم الجفاء دعني أروي لك الحكايتين التاليتين على سبيل المثال :

في اليوم الذي أُعلنت فيه الهدنة نزل جبران من « صومعته » ليجتمع بالرفاق وليفرح معهم بانتهاء الحرب . وهل يكون الفرح فرحاً إلاّ إذا شعشعت الوسكي في الكؤوس ، ودبّ دبيبها في الرؤوس ؟ ولكنّ الجيوب خالية من الفلوس . فكيف العمل ؟

وفتقت الحيلة لجبران . فأخذ لوحة من « الكَرْتون » ورسم عليها بالحبر فتاةً تحمل علماً فضفاضاً ، وقد خطّ عليه هذا البيت :

« على أنقاض ماضينـــا سنبني مجـد آتينـــا »

وكانت الفتاة تمثّل سوريا وقد نهضت من كبوتها الطويلة وراحت تنعم بالحرية وتتطلّع بثقة إلى المستقبل . وعرض جبران الصورة بالمزاد لعلّها تأتي بما يبرّد عطشه وعطش الرّفاق . وكان بين الحضور شاب حمصيّ لا ينتمي للأدب ولكنّه يستلذّ مجالسة أهله . فابتاع الصورة بقنّينة من الوسكي . وكان تصفيق ، وكان فرح كبير . . . أما الصورة فهي اليوم في حوزتي .

والحكاية الثانية كان يرويها لنا رشيد أيوب عن نفسه ، ويرويها بأسلوبه الخاص ، ومع الكثير من « التوابل » . فقد كان له بين تجّار الجالية صديق يتعاطى بيع الفونوغرافات والأسطوانات . وكان يطيب لرشيد قتل حصّة من يومه في مخزن صديقه . وكثيراً ما كان يرافقه في الصّباح من بيتـه إلى مقرّ عمله .

ذات صباح بلغ الرجلان باب المخزن وإذا على العتبة شيء ما إن رآه التاجر حتى أدار وجهه عنه ، وسدّ أنفه ، وأخذه غثيان شديد . وأدرك

رشيد أن ذلك الشيء لم يكن غير براز قطّة . وكان يعرف مقدار تقزّز صاحبه من مثل تلك القذارة . فاستخرط في الضحك وقال :

ـ ماذا يكون لي منك إذا أنا أرحتك من هذه القذارة ؟

فأجابه رفيقه وقد ركبه القيء :

ـ غداء شهيّ ـ ومع الوسكي .

وأزال رشيد القذارة . فأكل غداء طيّباً وشرب من الوسكي على قدر ما شاء . وقال لصاحبه : هذا باب رزق لم يكن يخطر لي في بال . سبحان مقسم الأرزاق ! . .

وتكرّر الحادث في اليوم التالي . فتكرّر الأكل والشرب بالمجّان . فراح رشيد يحسد نفسه على النعمة التي جاءته بها تلك القطة ويتمنّى لو يعقد معها اتّفاقاً على مدى حياتها . ولكنّها خانته في اليوم الثالث . ولكم حزّ في نفسه صباح ذلك اليوم أن يدرك وصاحبه باب المخزن فلا يبصر شيئاً على العتبة . لذلك وقف يحكّ رأسه ويتنهد كمن أفلت منه حلم لذيذ . فقال له صاحبه :

ـ لماذا التنهّد ؟ ولماذا حكّ الرأس ؟ فردّ عليه رشيد :

ـ سرعان ما تتبخّر السعادة . . . ومن أين نأكل اليوم ونشرب ؟

فكان جواب التاجر :

ـ هات براز قطّة وكل واشرب . . .

***

لم يكن لي بدّ من التفكير في عمل أرتزق منه . والعمل ، في عالم يسوده نظام الغاب ، لا يأتيك على طبق من الفضّة . ولا هو يفتش عنك . بل عليك أن تسعى إليه وأن تفتّش عنه . وأين أفتّش وكيف ؟ إن في طبعي من الخجل والأنفة ما يجعلني أنفر من عرض نفسي على الغير ، ومن التحدّث عن صفاتي ومؤهّلاتي . ذلك المأزق أنقذتني منه توصيات القنصل الروسي عندما قدمت

إلى نيويورك منذ ثلاث سنوات . فمن ينقذني منه اليوم ؟

أمِن المعقول أن لا يكون في بابل القرن العشرين مَن هم في حاجة إلى شاب مثلي ؟ قد يكون في هذه البناية ، أو في تلك ، أو في هاتيك شركة أو مؤسسة تفتّش عن رجل مثلي بالتّمام . ولكن كيف الوصول إليها ؟ أيترتّب عليّ أن أكون منجّماً أو نبيّاً لأعرف ما هي وأين هي تلك الشركة أو المؤسسة التي يرضيها أن تبتاع معرفتي ووقتي بمبلغ صغير أو كبير من المال ؟ أم يترتّب عليّ أن أقف على قارعات الطرق وأصيح بأعلى صوتي :

« يا — هو ! يا ناس ! يا بشر ! يا أهل الله ! ههنا إنسان يريد أن يعيش بشرف — أن يأكل خبزه بعرق جبينه . وهو خريج كلّيّة الآداب ، وكلّيّة الحقوق . ويتقن من اللغات العربيّة ، والروسيّة ، والانكليزية ، وله المام بالفرنسية . وهو لا يسكر ، ولا يقامر ، ولا يسرق ، ولا يقتل ، ولا ينافق ، ولا يضمر الشر لاحد ، وليس فيه أيّ عاهة جسديّة ، أو عقليّة ، أو روحيّة . ولكنّكم حرّمتم العيش عليه إلاّ إذا كان في جيبه فلوس ؛ ولكنّكم خلقتم الفلس وجعلتموه معياراً لصفات الناس ومؤهّلاتهم ، ولحقّهم في حصّة من بركات الأرض والسماء ؛ ولأنّ هذا الإنسان لا يملك الفلوس وتملكونها أنتم فهو يعرض نفسه عليكم . أوَليس بينكم من يبتاع صفاته ومؤهّلاته ولو بدريهمات تردّ عنه الجوع والبرد وتصون له ماء وجهه؟ »

أم أنّه يترتّب عليّ ، إذا أنا شئت الحصول على عمل ، أن أعلن عن نفسي في الجرائد مثلما تعلَن الأحذية والأقمشة ومصائد الفئران؟ أو أن أقرع الأبواب يوماً بعد يوم حتى إذا انفتح لي باب وتعطّف عليّ مدير خلفه بدقيقة من وقته خرجت من عنده وليس لي ما أعلّق عليه أملي أكثر من كلمات جافّة : « آسف . ليس لك عندنا عمل . ولا بأس إذا أنت تركت لنا عنوانك . فقد نتصل بك إذا نحن احتجنا إليك يوماً ما » ؟

جبهة العمل – تلك هي الجبهة الأنكد والأقسى من سائر الجبهات . فما أكثر ما يضنيك التفتيش ويذلّك ويزعزع إيمانك بنفسك لتجدك في النهاية تعمل عملاً لا تجانس على الإطلاق بينه وبين مزاجك وذوقك والأشياء التي هيّأتك لها الطبيعة . وتمضي تعمل عملك ونفسك في انقباض دائم لأنها غريبة عن العمل الذي تعمل . فما قولك بالذين يفتّشون الأيام والشهور عن عمل فلا يجدون ما يعملون ؟ وبالذين يحملهم القنوط على الاستجداء ، أو السرقة ، أو النهب ، أو التشرّد ، أو ارتكاب أبشع الجرائم وأفظعها ؟

حقّاً ، إنّه لعالم يعيش كيفما اتّفق ، والغريب أنّه يدعو ذلك النمط من العيش حريّة ونظاماً ! . . فأيّ الحريّة هي حرية الذين يُكرهون على القيام بأعمال لا قرابة البتّة بينها وبين أجسادهم وأرواحهم؟ وأيّ النظام هو النظام الذي في ظلّه لا يتزاوج العامل والعمل تزاوج الأوكسجين والهيدروجين في الماء ؟ أو أنهما لا يلتقيان ولا يتزاوجان على الإطلاق .

ثمّ إنّك إذ تراك تحارب على جبهة العمل ، تراك تناضل كذلك على جبهة السكن . فمشكلة السكن ، وعلى الأخصّ في المدن الكبيرة ، باتت اليوم من أعقد المشكلات وأبعدها أثراً في حياة الناس الجسدانية والنفسانية . ففي حين تعيش قلّة من سكان المدن في قصور تنعم ببحبوحة من الشمس والهواء ، تعيش الكثرة منهم في أوكار – أو أوجار – بينها وبين الشمس والهواء والسماء ما يشبه الجفاء . ذلك لأن هذه النعم التي وهبتنا الطبيعة فيضاً منها باتت ، بفضل الفلس ومكره ودهائه وقساوة قلبه ، تُباع بالمثقال ، أو بالفتر والقيراط . فمن شاء فسحة مقدارها كيت وكيت من زرقة السماء ، أو شاء مقدار كيت وكيت من الهواء الطلق ومن أشعّة الشمس عليه أن يدفع ثمنها كيت وكيت من المال. وإلاّ فهي براء منه، وهو منها براء – مهما يكن شوقه إليها ، أو تكن حاجته ملحّة إلى الاستمتاع ببركاتها . فقد يكون إنساناً

تتأكّل رئتيه الجراثيم ، وقد يكون فنّاناً لنور الشمس وزرقة السماء في ميزانه من القيمة أضعاف أضعاف ما لهما في ميزان أهل البطر وسكّان القصور . ولكنّه لا يملك الثمن . فيطوي جناحيه على الحرمان ، ويرضى من عيشه بما تيسّر ، أو بما تيسّره له الفلوس التي في جيبه .

إلاّ أنّ « اليد الخفيّة » — وقد يرضيك أن تدعوها « الحظ » — أنجدتني في هذه المرّة كذلك مثلما أنجدتني في مرّات سابقات ، ودونما أقلّ سعي أو تفتيش من جانبي . والوسيط الذي استَعْمَلَتْه لم يكن غير الدكتور أيّوب ثابت الذي ، بعد سنين ، اختاره الفرنسيون رئيساً لدولة لبنان في فترة حرجة أوشك الحكم فيها أن ينتقل من الفرنسيين إلى الوطنيين . فقد التقيت الدكتور ذات يوم في الطريق وإذا به يستوقفني ليسأل إذا كنت أرضى أن أعمل في محلّ تجاريّ . ولم أك قد لمّحت له من قبل ولا بكلمة عن أنّني في حاجة إلى عمل . وراح الدكتور يحدّثني عن إخوة ثلاثة من اللبنانيين يعملون في حقل الاستيراد والتصدير من جزر الفيليبين وإليها ، ويعيشون في معزل عن الجالية اللبنانيّة والسورية ، ولهم من الثروة الشيء الكثير . والمهمّ أنّهم رجال شرفاء ، وهم يفتّشون عن شاب له مثل أخلاقي ومؤهّلاتي .

في اليوم التالي كنت والدكتور ثابت نتناول الغداء مع كبير الإخوة الثلاثة وبدعوة منه . وفي اليوم الذي بعده كنت في الدور الثاني عشر من بناية شاهقة تشرف على مصب الهدسن وعلى تمثال الحريّة الذي لم يجذبني مرة واحدة لزيارته في خلال السنوات الخمس عشرة التي أقمتها في نيويورك . والغريب أنّي لم أسأل « وليّ نعمتي » الجديد عن الأجر الذي سيدفعه لي ، ولا هو سألني عن الأجر الذي أريده .

دخلت دنيا التجارة وأنا « كالأطرش في الزفّة » . لا أعرف عن البضاعة التي كان عليّ أن أهتمّ بتصريفها أكثر من أنها قمصان نوم للسيدات ،

وفساطين للصغار من سن ستة أشهر وحتّى السنتين . وجميعها من القماش الأبيض ، وعليها أشكال من التطريز بالإبرة . وقد أُخبرت أن تطريزها يجري في جزر الفيليبين البعيدة . ولكن ما نوع قماشها ، ومن أين ، وكيف يُنسج ويُطرّز ويُشحن ، وكيف تُحسب تكاليفه وتحدّد أسعاره ، وكيف يتمّ الاتّصال بين البائع والشاري ، وتدوّن الطلبات ، وتجري المحاسبات ، وما معنى الحسومات والمضاربات – أمّا هذه الأمور وكثير غيرها فما كنت أعرف عنها شيئاً . ولكنّني لم ينقضِ الشهر حتّى بتّ أعرف عنها كلّ شيء ، وأعرف كيف أروّج لها بالرسائل ، وبالاتصالات الشخصيّة مع الزبائن في نيويورك وغيرها من المدن القريبة والبعيدة . ولكم وجدتني وحقيبة النماذج (المساطر . العينات) في يدي ، أنتظر دوري ساعة وساعتين لمقابلة الشخص المولج بشراء مثل تلك البضاعة في مخزن من المخازن الكبيرة ، وكأنني أنتظر جبريل أو مار بطرس ليفتح لي باب السماء . . .

ذلك ما حدا بجبران أن يكتب إلي مرّة : « كلّما فكّرت بك متجوّلاً في « الداخلية » كممثل لبيت تجاري شعرت بنوع من الألم . غير أني أعلم أن هذا الألم هو من بقايا الفلسفة القديمة . فأنا اليوم أؤمن بالحياة وبكل ما تجلبه الحياة ، وأحقّق أن جميع مآتي الأيام والليالي حسنة وجميلة ونافعة . »

وفي رسالة أخرى :

« أسعد الله صباحك أيّها التائه بين منازع الأرض ومرامي السماء . وبعد فقد سمعت صوتك منادياً على بضاعتك في الأسواق والساحات – يا الله عالخام . يا الله عالشيت والعنبر كيس – ولقد استحسنت نغمة صوتك يا ميشا . وأنا أعلم أن الملائكة تسمعك وتدوّن مناداتك في الكتاب الأبديّ . »

كان الإخوة الثلاثة يسكنون قصراً فخماً في ضاحية جميلة من ضواحي نيويورك ، وبأجر سنوي مقداره أربعون ألف دولار . وكانوا يملكون

سيّارتين من أفخم السيارات وقد جاؤوا لهما بسائق من الفيليبين . وكانوا ، وليس بينهم متزوج ، يعيشون في عزلة تامة عن الناس ، إلاّ فيما يتعلّق بتجارتهم. ويبدو أنّهم أحبّوني . حتى باتوا يلحّون عليّ في تمضية ليلة أو ليلتين من كلّ اسبوع في ضيافتهم . والذي حيّرني من أمرهم هو أنّهم ، وقد فتحوا لي قلوبهم ، لم يفتحوا أيديهم برغم ما كانوا عليه من سعة في العيش والتجارة . فالرّاتب الذي خصّصوه لي لم يتجاوز مئة دولار في الشهر على مدى سنتين . ولم يبلغ الثلاثمائة إلاّ في السنة الرابعة من خدمتي لهم التي استمرّت خمس سنوات. ولو أنّه بلغ الألف لما ضايق ذلك أصحابي في شيء ، ولكان أنفع لهم ولي من أن تتبخّر ثروتهم بعد حين نتيجة لوقوعهم في أحابيل نصبها لهم بعض الذين كانوا يتعاملون معهم من تجار ومصارف .

ولكن الدولار ساحر ، ماكر ، فاجر . فما أكثر ما يسطو على الوجدان فيتركه مشلولاً ، وعلى البصيرة فيعميها ، وعلى القيّم الانسانيّة فيقلبها رأساً على عقب . وما أكثر ما يجافي حيث ينبغي أن يصافي ، ويتجبّر حيث يحسن به التواضع ، وينثر القهقهات حيث يجب أن ينثر الدموع !

لقد كان عليّ ، وقد أمّنت لنفسي دخلاً شهرياً من مئة دولار ، أن أؤمّن لنفسي مسكناً يتناسب وذلك الدخل . والتفتيش عن مسكن في نيويورك يكاد يكون أشقّ من التفتيش عن عمل . إذ انّه يقتضيك مطالعة الإعلانات في أكثر من جريدة ، ويقتضيك الكثير من المشي ، ومن صعود السلالم ونزولها ، ومن الكلام مع رجال ونساء من شتّى العناصر والألوان والأمزجة . وقد تصرف النهار ، والنهارين ، والأسبوع في التفتيش فلا تهتدي إلى ضالّتك . فهذه غرفة تعجبك ولكنها فوق ما يتحمله جيبك . وهذه تناسب جيبك ولكنها لا يرضيك أصحابها . وأخرى يرضيك أصحابها ولا يرضيك شكلها وأثاثها ، أو الحيّ الذي هي فيه ، أو بُعدها ، أو تسهيلات

النقل منها وإليها . وتنتهي بأن ترضى بما هو دون رغبتك بكثير .

هكذا انتهيت إلى غرفة في أعالي جزيرة مانهاتان ، لم يرضني منها إلاّ قربها إلى نهر الهدسن،وإلاّ أن السيدة التي اكتريتها منها استقبلتني بمنتهى اللطف . وقد فهمت من حديثي القصير معها أنّها المرة الأولى تؤجر فيها غرفة . فكأنّها كانت تخجل من أن تعترف لي بذلك . وفهمت أن ليس في البيت غيرها وغير زوجها . وأن لا أولاد لهما ، ولا أقارب أو معارف يكثرون من التردّد عليهما . إنّها ، من حيث الهدوء الذي كنت أرغب فيه ، لغرفة ممتازة . ولكنها ضيّقة ومظلمة . وبينها وبين الشمس حُجُب كثيفة من الجدران . فهي في الدور الرابع من وكالة كثيرة الأدوار . ولا نافذة فيها إلاّ على حوش تكتنفه وكالات كثيرة شاهقة . أمّا الأجر الذي اتّفقنا عليه فكان ستّة دولارات في الأسبوع . لا بأس . فحسبي أن يكون لي وكر صغير في هذه المدينة التي كلّها أوكار . ثمّ حسبي أن يكون وكري من الهدوء بحيث أستطيع أن أنصرف في المساء إلى الجهاد على جبهة الفكر وجبهة الحرف ، أمّا جبهة القلب فما كنت أحسب لها أيّ حساب ، ولا كنت أدري أنّني قد دخلتها عندما دخلت ذلك الوكر الوضيع .

العجين يختمر

قبل أن غادرت نيويورك للالتحاق بالجيش أصدر رشيد أيوب ديواناً من الشعر دعاه « الأيّوبيّات » . فكتبت عنه كلمة نقد في « الفنون » . وكانت الكلمة في غير صالح رشيد ، وقاسية إلى حدّ ما ، ورشيد ابن بسكنتا . وكان عليّ ، في نظره ونظر الناس ، أن أكون لطيفاً معه . وقد حاول البعض أن يستغلّوا ذلك النقد ليوغروا صدره عليّ . ولكن رشيد كان أعقل من أن يعاتبني أو يجافيني ، ولو أنّه عاتبني لأفهمته أنّني في قضايا الأدب والفنّ والذوق والحقّ لا أراعي أيّ إنسان — حتى نفسي . فشعره في ذلك الديوان كان لا يزال في مجمله من النوع التقليدي بأوزانه وقوافيه وموضوعاته وتشابيهه واستعاراته . لقد كان يفتقر إلى تلك الخميرة التي تجعل من الكلمة الفطير خبزاً صالحاً للفكر والقلب والخيال ، وتلك الخميرة اهتدى إليها رشيد بعد حين . فكان يردّد في شتّى المناسبات : « أشهد من على السطوح بأنّ ميخائيل نعيمه هو الذي علّمنا كيف يكون الشعر » .

والواقع أنّ الهوّة سحيقة جدّاً بين رشيد أيوب في « أغاني الدرويش » و « هي الدنيا » وبينه في « الأيّوبيّات » .

كذلك كان شأن إيليا أبو ماضي ، قبل أن تختمر موهبته بالخميرة الجديدة ، فقد كان ، قبل أن باشرت نشر مقالاتي النقدية في « الفنون » و « السائح » وقبل أن نشرت قصيدة « النهر المتجمد » و « أخي » ، ينظم الشعر وأقصى ما يصبو إليه أن يأتي شعره محاكاة لشعر البارودي وشوقي وحافظ والمطران من المحدثين ، أو لشعر البحتري وأبي تمام والمتنبّي من

القدامى . فكان ينظم القصيدة من خمسين بيتاً وأكثر على قافية واحدة ، وفي موضوعات مبتذلة ، ومن غير أن يأتي بأيّ جديد في المعنى وفي التصوير ، وفي التزام الصدق مع نفسه ومع القارىء ، والأمانة للحياة حتّى في أبسط مجاليها .

كان إيليا قد سبقني بقليل إلى نيويورك عام ١٩١٦ فاتخذ له عملاً في جريدة « مرآة الغرب » ، ومسكناً في بروكلن . وذات ليلة من خريف ذلك العام دعاني لتمضية السهرة في غرفته . وهناك راح يقرأ لي ديوانه الأول المطبوع في مصر . وقد قرأه من أوّله إلى آخره . وعندما لم يسمع منّي كلمة تقدير أو إعجاب التفت إليّ وقال :

— ما رأيك ؟ قلت :

— هذا شعر يحدّثني عن سليقة قويّة ، وذاكرة حادة ، ومهارة في رصف الكلام والقوافي ، وضبط الأوزان ، ولا شيء أكثر من ذلك .

— وماذا تريد أكثر من ذلك ؟

— أريد أن يدخل الشعر نفسي فيبعث فيها إمّا القلق ، أو الدهشة ، أو الوحشة ، أو الغبطة ، أو الحزن ، أو الشكّ ، أو اليقين ، أو النشوة بلمحة شاردة من الجمال ، أو كلّ هذه مجتمعة . أريده أن يكون فلذة من كبد الشاعر لا رغوة من دماغه ، أن يكشف لي مجاهل في نفسي — آفاقاً بعدها آفاق ، وأغواراً تحتها أغوار . أريده أن يزيد في ثروتي الروحيّة والجماليّة بما فيه من قوّة الروح والجمال لا أن يثير إعجابي بما فيه من متانة السبك وبراعة الصناعة وحسب . إن ديوانك هذا يا إيليا ليس شعراً . أمّا أنت فشاعر شاعر .

والذي يطالع « ديوان إيليا أبو ماضي — الجزء الثاني » وقد صدر عام ١٩١٩ ، يجد البون شاسعاً بين قصائد فيه نظمها إيليا قبل أن تختمر

شاعريّته بالحميرة الجديدة ، وأخرى نظمها من بعد أن تمّ ذلك الاختمار . ففي الأولى لا يستنكف إيليا من القول في رثاء أحد رجال الدين :

« يا مؤنس الأموات في أرماسها
في الأرض بعدك وحشة وخمول
لا الشمس سافرة ولا وجه الثرى
حالٍ ولا ظلّ الحياة ظليل » .

أو في مدح الجريدة التي كان يحرّر فيها :

« هي الشمس تبدو كلّ يوم جديدة
يروح بها ليل ويأتي بها فجر
لكلّ فتاةٍ خدرها وسوارها
ولكن هذي كلّ قلب لها خدر »

وفي الثانية يأتيك بمثل قصيدته المشهورة :

« أيهاذا الشاكي ، وما بك داء ،
كيف تغدو إذا غدوت عليلا ؟ »

ولكي تعرف أيّ انقلاب هو الانقلاب الذي حدث في شاعرية أبو ماضي بعد اتّصاله بالثورة على الجمود والتقليد حسبك أن تتصفّح ديوانه الذي نحن بصدده . فأول ما يطالعك فيه رسم لتاجر لبناني في نيويورك تبرّع للشاعر بتكاليف طبع الديوان . ولذلك سجّل له في صدر الديوان « إهداء » لا يختلف في نسجه بشيء عن شعر المدّاحين الذين كانوا يقفون على أعتاب الأمراء والخلفاء . ففيه الغلوّ في الاعتداد بالذات والإغراق في المدح والتزلّف :

«سِفر تجول العين من صفحاته
في روضة خلاّبة سحريّه
تفنى الأزاهر في الرياض وهذه
كالدهر باقية وكالأبديّه

* * *

أنت امرؤ صاغ المهيمن روحه
من جوهرين — اللطف والحرّيه
لك همّة مثل الزمان كبيرة
ويد كمنسكب الغمام سخيّه
إنّي أرى آثار فضلك بيننا
مثل النجوم كثيرة وسنيّه» الخ .

فما أبعد هذا «الشعر» عن الشعر الذي جاء به فيما بعد إيليا أبو ماضي في «الجداول» و«الخمائل» ! حتى لتكاد تجزم بأن قائل هذا هو غير قائل هذاك . ثمّ إن روح الشاعر ، وقد جرفتها النزعة الجديدة ، باتت تخجل بالزلفى من أيّ نوع وفي أيّ مناسبة ، وتعتبرها حطّاً من كرامتها وتحقيراً لفنّها . وذلك كسب كبير للشعر والشاعر معاً . فليس أدعى للأسف من أن يمتهن فنّان فنّه لاستدرار العطف والفلس من ذوي السلطان والمال . والشعر ، حتى أجوده ، ليبدو زائفاً ومصطنعاً ومهاناً إذا لم يكن الحافز لنظمه غير منفعة عابرة تأتي الشاعر عن طريق دغدغة الكبرياء في نفس حاكم أو ثري . فالحافز للنظم هو اللّقاح الذي به تتلقّح قريحة الشاعر . والشاعر الذي لا يجد لقريحته لقاحاً غير استجداء العطف ، أو المال ، أو التصفيق لَشاعرٌ يجني على نفسه وعلى شعره . وكان من الخير له لو هو عقّم قريحته .

ذكرت اثنين من شعراء المهجر في نيويورك اللذين تأثرا بالخميرة الجديدة . وهنالك ثالث هو ندره حدّاد . وهذا الشاعر على ما فيه من عناصر إنسانيّة ممتازة ، لم يكن من سعة الخيال ، وقوة العارضة ، وامتداد الفكر ، وعنف الصراع النّفساني بحيث استطاع أن ينتج شعراً مميّزاً باتجاه خاصّ ،أو بلون يضفي عليه صبغة ليست لغيره ، إلاّ أن فعل الخميرة الجديدة ظاهر في كلّ ما نظم .

أمّا نسيب عريضه فقد سبق أقرانه بسنين إلى الاختمار بخميرة التجديد . والذي ساعده في ذلك معرفته للغة الروسية ، وأصالةٌ شعرية في نفسه جنحت به باكراً إلى التجديد ، وإلى تنكّب المطروق والمألوف في الموضوع والاسلوب ، وإلى ارتياد العالم الباطني . وهو عالم قلّما حفل به الشعر العربي إلاّ في عهد الطفرة الصوفيّة . ولولا انشغاف نسيب بالأدب — والأدب المتجدّد بالأخصّ — لما كانت « الفنون » . ولولا « الفنون » لما كانت تلك الانطلاقة الرائعة للحركة الأدبيّة الجديدة . فلا بدّ لكلّ ثورة من بوق ، و « الفنون » كانت البوق الأول للثورة الأدبيّة التي انطلقت من المهجر ، لذلك فنسيب عريضه يجب أن يُعتبر — وبحقّ — داعياً من دعاتها وركناً من أركانها .

وأمّا أمين الريحاني — وإن حالت ظروف وأسباب دون انضمامه إلى « الرابطة » — فمن الحيف إنكار فضله على الحركة الأدبيّة المهجريّة في بدء نشأتها . فقد كان الرجل ذا مزاج ثوري . واحتكاكه بالأدب الانكليزي زاد في ثورته على كلّ متحجّر وبالٍ في تقاليد العرب الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة واللغوية والأدبية. وقد قام الريحاني في أوّل عهده بالكتابة بمحاولات في الشعر المنثور والقصة . وهذه المحاولات كانت تُعَدّ في وقتها تجديداً جريئاً . ولكنّه لم يوفّق فيها توفيقه في المقالة .

التجديد ! تلك هي الخميرة التي راحت تفعل فعل السحر في قلوب

حفنة من الرجال جمعتهم ظروف غريبة في ديار غريبة ، وأوقدت الحياة في صدر كلّ منهم جذوة الإيمان بالحرف وقدرته الخارقة على الخلق والإبداع. ولو شاء أيّ الناس أن يحلّل تلك الظروف لما استطاع . فهي قد تبدو لبعضهم كما لو كانت ظروفاً اعتباطيّة ، عمياء ، لا تنطوي على أيّ توجيه أو تخطيط . وقد تبدو للقليل نتيجة حتميّة لأسباب ظاهرة أو خفية ، أو استجابة عفويّة لحاجات في نفوس أولئك الرجال ، ونفوس الآلاف من الذين كان عليهم أن ينقلوا الخميرة الجديدة إلى قلوبهم وأفكارهم .

وكيفما كان الأمر فالحركة الجديدة قد انطلقت في طريقها . وكان لانطلاقها مثل قوة انطلاق القذيفة من المدفع . وها هي أصداؤها تعود إلينا من سان باولو، ومن بوينس ايرس ، ومن بيروت ، ودمشق ، والقاهرة ، وبغداد ، وحتّى من المغرب والجزيرة العربيّة . ومن حسن حظّها أن تلك الأصداء لم تكن جميعها تقديراً وإعجاباً وتصفيقاً . بل كانت هنالك أصوات تزأر عليها ، وتحاول تحطيمها . فتارة تتّهمها بالركاكة ، وطوراً بالاستهتار والتجنّي على قواعد اللغة ، وبحور الشعر ، والمقدّسات الموروثة عن الأسلاف . فلو أنّ الحركة الجديدة في بدء نشأتها لم تقابَل إلاّ بالتقدير والتكبير لكان من الممكن أن تتقاعس أو تتراخى . ولكن ما لاقته من مقاومة من قبل المترمّتين والمتعنّتين والمتحجّرين زاد في حماستها واندفاعها . ومن هنا كانت مقالات « الحباحب » و « نقيق الضفادع » و « الزّحافات والعلل » وغيرها من المقالات التي دخلت في « الغربال » .

ثم إن تلك المقاومة كان لها بعض الفضل في تكتّل القائمين بالحركة الأدبيّة في نيويورك ، وفي إذكاء شعورهم بأنّهم يحملون رسالة جديدة إلى العالم العربي . فكانت « الرابطة القلمية » .

أفاقَ القلب

من بعد أن تغلّب البيض على الحمر ، وأصبحوا أسياد العالم الجديد دون منازع ، فتق لهم أن يكرّسوا يوماً في السنة « يتوجّهون فيه بقلوبهم إلى الله » ويشكرون له نعمة الغلبة وباقي النعم التي أسبغها عليهم . وبات ذلك اليوم عند الأميركيين عيداً ، ومن أحب أعيادهم إلى نفوسهم . وبات من تقاليدهم أن يُصدر الرئيس في كلّ عام منشوراً يحدد فيه يوم العيد ، ويعدّد النعم الكثيرة التي من أجلها يليق بهم ، بل يتوجّب عليهم ، أن يرفعوا آيات الشكر إلى ربّهم . وذلك ما يدعونه « يوم الشكران » . وقد جعلوه يوم الخميس الأخير من شهر تشرين الثاني من كلّ عام .

ذلك العيد ، كغيره من الاعياد ، لم يلبث أن انقلب عيداً للبطون . والتقاليد تقضي بأن يأكل الناس فيه طيور الحبش . وهكذا بات يوم الشكران يوم مجزرة هائلة لتلك الفصيلة المسكينة من الطير التي ننسبها نحن إلى الحبشة ، والمصريون إلى اليونان فيقولون « الديك الرومي » . وينسبها الروس إلى الهند . والأميركان إلى تركيا . وقد ينسبها غيرهم إلى بلدان أخرى .

في مثل ذلك اليوم من العام ١٩١٩ دعتني ربّة البيت الذي اكتريت لي فيه وكراً صغيراً إلى تناول الغداء معها ومع زوجها . وكنت في خلال المدة القصيرة التي انقضت على وجودي في بيتهما لا أبصرهما إلاّ لماماً عندما أعود إلى البيت في المساء وأغادره في الصباح. وجلّ ما عرفته عنهما أنّهما قدما نيويورك من مدينة ريفية في الولاية . وأن الزوج يعمل عملاً متواضعاً في شركة التنوير وبأجر زهيد ، وأنّهما لم يُرزقا أولاداً في خلال السنوات

التي مرّت على زواجهما .

تولاّني شعور غريب إذ وجدتني جالساً إلى مائدة سخيّة مع ذينك الزوجين . لكأنّني عدت أحد عشر عاماً إلى الوراء – إلى غيرا سيموفكا . وكأنّني بين هذه المرأة وهذا الرجل كما كنت بين فاريا وكوتيا يوم تناولت غدائي الأول في بيتهما . إنّهما يتفحّصان وجهي وحركاتي ، ويصغيان إلى حديثي لعلّهما يعرفان شيئاً عن هذا الغريب الذي يعيش وإياهما تحت سقف واحد : – مَن هو ؟ ومن أين ؟ وماذا يعمل ؟ وما هو مستواه العقلي والاجتماعي ؟ وغير ذلك من الفضول الذي يثيره عادة أول التقاء بين الغرباء .

وأنا ، من جانبي ، رحت أقابل بين فاريا وكوتيا وهذين الزوجين . وسأدعو الزوجة « بيلاّ » والزوج « هاري » . إنّها تبدو لي في نحو الثلاثين . وجهها المستدير ناعم هادىء ، لا أثر فيه لأيّ المساحيق إلا القليل من البودرة ، ولا شيء فيه تنفر منه العين . إنّه جميل . ولعلّ أجمل ما فيه هو الفم بشفتيه الدقيقتين ، القرمزيّتين . ثم العينان الزرقاوان الواسعتان اللتان لم تفقدا بعد حلاوة الحياء . ثم مسحة من الحزن والألم المكبوت تطفو عليه لمحة وتغيب لمحة فتجعله يبدو كوجه فتاة استبدّ بها حلم بعيد المنال ، أو مات في قلبها حلم جميل ، لذيذ . أما صوتها فيسيل عذوبة وأنوثة . وأمّا حركاتها فتنمّ عن ذوق لطيف ، وإحساس دقيق . وباستطاعتك أن تجزم بأنّها حركات إنسان قد يتقبّل الجروح من يد غيره ولكنّه لا يمكن أن يجرح أحداً . وأمّا قامتها فمعتدلة وفوق المتوسّط من قامات النساء .

وعلى نقيض « بيلاّ » ، ونقيض « كوتيا » هو « هاري » . لو رأيته في الشارع لقلت انّه رجل كباقي الرجال . ولكنك إذ تتأمّله وتصغي إليه عن كثب تبصر في وجهه الفظاظة والغلاظة ، والقسوة في عينيه ، وتسمع في حديثه ما هو أقرب إلى البلاهة ، أو إلى سذاجة الأطفال ، منه إلى حديث

رجل في الأربعين من عمره . إنّه يعيش في بطنه ولبطنه . فما من لذّة في الكون تفوق في اعتباره لذة الاستمتاع بغداء أو عشاء شهيّ . وقد عرفت من بيلاّ فيما بعد أنّه كان يدمن شرب المسكرات إلى حدّ أن حياتها معه باتت لا تطاق، وبات لا يستطيع القيام بأيّ عمل يكسب منه رزقه ورزق زوجته. مما أكرهه في النهاية على اللجوء إلى علاجات معقّدة أبعدته عن السكر فترة من الزمن ليعود إليه كلما زال فعل العلاج . وهكذا كانت تلك المسكينة تعيش معه في خوف مستمر من أن يعود في المساء إلى البيت فيشبعها عربدة وشتماً وإهانة . وقد لا يتورّع عن ضربها .

يا الله ! ههنا كذلك – كما في غيرا سيموفكا – رجل وامرأة لا يجمع بينهما أيّ جامع . لا الذوق ، ولا العقل ، ولا المزاج ، ولا العاطفة . بل إن بينهما تباعداً كالّذي بين الماء والزيت . ولكنّ القانون المدني والقانون الكنسيّ قد وجدا مسوّغاً لجمعهما في رباط يعزّ فكّه . وذلك المسوّغ هو أن أحدهما ذكر والآخر أنثى . . . أيكون شأني معهما كما كان مع فاريا وكوتيا ؟

بعد شهر بالتقريب – في ليلة الميلاد – عدت إلى البيت ، فما كدت أفتح الباب حتى أقبلت بيلاّ ترحّب بي وتدعوني لمجالستها في الصالون :

– تعال نتحدّث قليلاً إذا لم يكن لديك عمل أحبّ إلى قلبك من ذلك .

– عملي أن أخرج بعد قليل في طلب العشاء .

– ما قولك لو تناولت العشاء معي هذه الليلة ؟ سيكون عشاء بسيطاً جدّاً ، لا شموع ولا شجرة ميلاد .

– ذلك منتهى اللطف منك . وأين السيد هاري ؟

– سافر إلى مدينته ليمضي الميلاد وعطلة رأس السنة مع والدته. إنه وحيدها. وهي عجوز لا تطيق أن تستقبل الميلاد ورأس السنة والفصح إلاّ وابنها

بجانبها . وهي تكرهني .

– ولماذا تكرهك ؟

– لأنّني أكرهها .

– ولماذا تكرهينها ؟

– لأنها كانت السبب في زواجي . . .

وسكتت . فسكتُّ . وطال السكوت فاستأنفت الكلام وقالت :

– كنت لطيمة لا أزال في مدرسة داخلية ، ودون سنّ الرشد – في نحو السادسة عشرة – عندما أقنعت أمُّ هاري الوصيّ بأنّه من الخير له أن يرفع عنه مسؤولية الوصاية على فتاة ، فيزوّجني من ابنها . وانها ستترك لنا ثروتها من بعد وفاتها . وثروتها كانت ذات قيمة في ذلك الزمان . فاقتنع الوصيّ . وكان ما كان .

– وأنت نادمة على ما كان .

– وما نفع الندم ؟ في استطاعتي أن أساكن رجلاً أعمى ، أو أعور ، أو أبكم ، أو أبله . وليس في استطاعتي أن أساكن رجلاً سكيراً ، عربيداً ، فظّ الطباع ، قذر اللسان . إني ارتجف كالورقة ، وينعقد لساني ، ويهرب قلبي إلى أخمصيّ كلما دخل هاري البيت وفاحت منه رائحة الوسكي . إنّ ما يعروني إذ ذاك من اضطراب النفس والأعصاب لفوق ما يمكن أيّ إنسان تحمّله أو وصفه .

– كم مرّ على زواجكما ؟

– ثلاث عشرة سنة .

– ثلاث عشرة سنة عشتها في خوف دائم ؟

– أجل . عشتها في خوف دائم .

– ولكن ها أنا في بيتكما منذ ثلاثة شهور . ولم أسمع بعد عربدة أو خصاماً.

– لقد انقطع عن السكر بعد المعالجة الأخيرة . وكانت طويلة وعنيفة . ومن ثمّ فهو يخجل منك . إن وجودك في البيت ضمانة لي .

– ولكنني عابر سبيل . وقد أذهب عنكما غداً أو بعد غد .

– لا . لن تذهب . إنّك أكثر من عابر سبيل .

– ومن أين لك تلك الثقة ؟

– من أين ؟ . . قلبي دليلي .

انقضت عطلة الميلاد وأنا وبيلاّ في عرس من اللذّة والغبطة . لقد انهارت وكأنّها من كرتون ، جميع السدود التي أقمتها في وجه شبابي ووجه قلبي منذ أن انقطعت علاقتي بفاريا قبل ثماني سنوات . تلك كانت سنوات قحط وكبت عشتها بفكري دون قلبي . وها هو دم الشباب يغلي في عروقي ويفور ، فلا تستطيع أي اعتبارات دينيّة أو اجتماعيّة أن تحدّ من غليانه وفورانه . إنّها لتبدو له ترهات وخيوط عنكبوت ، وتبدو هباء في مهبّ إعصار . إن يكن هنالك من إثم فهو إثم الطبيعة التي جعلت ذلك الدم قابلاً للالتهاب بشرارة تنطلق إليه من دم فيه مثل ما فيه من الحرارة ومن قابليّة الغليان والفوران .

ومن ثمّ فههنا كذلك امرأة أوثقتها التقاليد العمياء إلى رجل لا تجانس بينها وبينه البتّة . بل إنّها وإيّاه الزيت والماء . فهي من ذلك في جحيم . وهو أبعد ما يكون عن النعيم . وتلك المرأة قد وجدت فيّ القوت والشراب لكلّ ما جاع وعطش في جسدها وفي روحها . وقد وجدتُ فيها مثل ما وجدته فيّ . وما هي التي كوّنت جسدها وروحها وأودعتهما ذينك الجوع والعطش . ولا أنا المسؤول عن جوع جسمي وروحي وعطشهما .

تلك العلاقة التي دامت خمس سنوات بيني وبين « بيلاّ » كانت الحافز لي على نظم قصائد عدّة من القصائد المدرجة في « همس الجفون » وأوّلها « أفاقَ القلب » حيث أصوّر الصراع بين فكري وقلبي . فقد كنت ، قبل

أن عرفت بيلاّ وأطلقت لقلبي العنان في حبّها ، أحيا حياة فكريّة بحتة . فأصرف كلّ همّي إمّا إلى الحركة الأدبيّة الناشئة ، وإمّا إلى التأمّل في الوجود وأسراره ومعانيه . فحيناً أسأل نفسي : « مَن أنتِ يا نفسي ؟ » فأراها في كلّ شيء وأرى كلّ شيء فيها . وأنتهي إلى أنّها والله واحد . ولكنّني لا أجرؤ أن أجاهر بذلك . فأكتفي بالقول إن نفسي « جزء من إله » أو « فيض من إله » . وحيناً تنتهي بي تأمّلاتي في متاعب الحياة ومشكلاتها إلى أنّها ناتجة جميعها عن تخدير النفس بالأماني . فأقول في قصيدة « حبل التمنّي » :

« غير أنّي ، وإن كرهت التمنّي ،
أتمنى لو كنت لا أتمنّى » .

أمّا من بعد أن بات لقلبي رفيق ، وبات قلبي يتذوّق نشوة الشعور بأن لا حياة لرفيقه إلاّ به وفيه ، فقد أصبح من حقّه أن يتسلّم أعنّة حياتي . وكفى الفكر أن يستأثر بها زماناً وحده . ولذلك أخاطب القلب فأقول :

« أقلبي احكم ولا ترهب
فما لي منك من مهرب
فأنت اليوم سلطاني
وأنت اليوم ربّاني .
أدِرْني كيفما ترغب
ودمّر كلّ أسواري
وفضّح كلّ أسراري
وإن تعثُر فلا تندم
وإن تأمر فلا ترحم
وزد ناراً على نارِ

وخلِّ الناسَ بالناسِ
تقيس البحر بالكاسِ
وقل للفكر إن القلب
بحر شاسع ، طامٍ
يقاس بغير مقياسِ »

ثمّ أنصح لكلّ من خلا قلبه من الحبّ أن يفتّش لقلبه عن رفيق :

« أسفي عليك فلا الذهابْ
سهل لديك ولا الإياب
ستظلّ تخبط في ضباب
حتى ينير لك الطريقْ
قلبٌ يكون لقلبك الواهي رفيق » .

وبدلاً من الجفاء الذي كان مستحكماً بين الفكر والقلب يستعين الآن القلب بالفكر في تحليل ما حرّمته التقاليد والشرائع . فينجده الفكر بالمنطق . وهكذا يمضي القلب يخاطب شريكه في الحبّ فيقول :

« قلْ أطعنا في كلّ ما قدْ فعلنا
صوت داعٍ إلى الوجود دعانا
فجنينا من الحياة ، ولكن
قد أعدنا إلى الحياة جنانا
وأكلنا منها ، ولكن أكلنا
وشربنا لحومنا ودمانا
ومضينا ولا ندامة فينا

وتركنا كؤوسنا لسوانا .
فإذا كان في الحياة حرامٌ
فحرام مَن مثلنا أن يهانا
وحرام مَن مثلنا أن يدانا .

يا رفيقي — رفيق جسمي وروحي —
وشريكي في نعمتي وشقائي
قُلْ رأينا طهارةً وجمالاً
لا فساداً في صنع ربّ السماء
فأبحنا للنفس كلّ مناها
وتركنا الحرام للفقهاء ! »

وأكثر من ذلك . فالفكر الذي ، تحت ضغط القلب ، حلّل المحرّمات باسم الحبّ هو عينه الذي راح ، من فرط حنوّه على القلب ، يرود الآزال والآباد فلا يجد مناصاً من التسليم بأن ما يجري الآن وفي هذا المكان إنّما يتّصل اتّصال السبب والنتيجة بكلّ ما جرى وسيجري في كلّ زمان ومكان ، من الأزل وإلى الأبد . فقلبان يتعارفان ويتحابّان لا بدّ أن يكونا قد تعارفا واتّحدا في ضمير الله ، وقبل أن يكونا من لحم ودم . ولذلك أخاطب « بيلاّ » في قصيدة أهديتها إليها بعنوان « إلى M. D. B. » فأقول :

«أنا السرّ الذي استترا
بروحك منذ أن خطرا
ببال الكائن الأعلى
خيال العالم الأدنى
فكوّن من ثرًى بشرا »

وأختم القصيدة بالمقطع التالي :

« فهاتي يداً . وهاكِ يدي
على رَغَدٍ ، على نَكَدِ

وقولي للأولى جهلوا :
معاً كنّا من الأزلِ
معاً نبقى إلى الأبد ! »

ولا يهمّني أن يؤنّبني الخليل بن أحمد على خطف « الياء » في « هاتي » .

إلاّ أن الفكر ، وإن انّصاع في فترات خوف أو تراخ إلى القلب ، كان لا ينفكّ من حين إلى حين عن التشويش على القلب . ولعلّه لم يكن الفكر ، بل كان صوتاً فوق صوت الفكر — وأعند منه وأقوى . لعلّه كان صوت الضمير . أو لعلّه كان حاسّة أدقّ ، وأرهف ، وأسمى من الضمير بكثير . وهي التي تأبَى على صاحبها أن يبتاع لنفسه أيّ لذّة ، مهما حلت ، بألم يسبّبه لغيره مهما خفّ ، ومهما كان نوعه . فالحبّ هو الجوهر الفرد الذي منه الكون ، وبه يقوم . إنّه الجمال فوق كلّ جمال ، والحقّ قبل كلّ حقّ ، والقوّة التي منها كلّ قوّة ، على أن لا تشوبه شائبة ، ولا تستأثر به شهوة عابرة . والذي يشوب حبّنا هو وجود شخص ثالث لا يستطيع أن يحسّه كما نحسّه ، ولا أن ينظر إليه بالعين التي ننظر بها إليه . ولأنّه لا يستطيع ذلك ، ولأنّه يحسب نفسه صاحب الحقّ في بيلاّ ، بما فيه قلبها ، فحبّنا يسبّب له آلاماً . وآلامه تؤلمنا كلينا — وتؤلمني بالأخصّ . وهذه الآلام تجد لها منفذاً في قصائد أنظمها عندما يلحّ الألم في أن يكون له صوت ، وتلحّ النفس في الخلاص من الألم . من هذه القصائد واحدة دعوتها « التائه » وحاولت أن

أصوّر فيها الوحشة الروحيّة التي كانت تحيق بي كلّما قام لي من نفسي محاسب لنفسي :

« أسير في طريقي في مهمهٍ سحيقِ
ووحدتي رفيقي ووجهتي الفضا

* * *

بل في ضلوعي نارُ تثيرُها الأقـدارُ
يا ليتهـا تختارُ سوايَ مَوقِـدا

* * *

فهي التي تحييني وهي التي تُفنيني
وهي التي تسقيني من جمرها ندى

* * *

ربّاهُ هل يُلامُ مَن ريّهُ أوامُ
ونوره ظَـلامُ إنْ قلبُه كبا ؟

* * *

أخالقي رحماكا بما برت يداكا !
إن لم أكن صداكا فصوتُ مَن أنا ؟ »

ومن تلك القصائد كذلك « ترنيمة الرياح » و « العراك » و « لما رأيت الناس » و « تخدير أفكار » . وكلها في « همس الجفون » .

وممّا زاد في تشويش حالتي النفسانيّة أنّ فتاة لبنانيّة اعترضت طريقي في تلك الفترة من حياتي . والفتاة كانت ، في نظر الكثير ممّن عرفوها ، جميلة ، بل فاتنة . ومن الأكيد أنّها كانت تبصر نفسها بعين الزهو والإعجاب فتبالغ في التبرّج ، وتتكلّف الفصاحة في النطق ، والأناقة في الحركة ، والغوص

في قضايا فنيّة أو أدبيّة أو فكريّة بعيدة عن إدراكها . وقد شاقها جدّاً أن تصطادني زوجاً لها . فراحت تلاحقني بشتّى الوسائل – بالدعوات ، والمقابلات ، والمراسلات . فلا تلاقي من جانبي أيّ ميل أو استعداد . ولأنّني لم أشأ أن أكون فظّاً فأقضي على آمالها بكلمة ، تمادت في عنادها وفي ابتكار الأحابيل تبثّها في طريقي .

وما درت المسكينة أن الحيل التي كانت تلجأ إليها لإغرائي هي عينها التي كانت تنفّرني منها . فالتبرّج ، والتصنّع ، والتكلّف في الكلام والحركات والتظاهر بأكثر ممّا في النفس أو بعكس ما فيها ، صفات إذا تجلّت لي كلّها ، أو بعضها ، في امرأة كانت كافية لتقيم بيني وبينها جبالاً من السدود ولا جبال حملايا ، حتّى وإن كانت المرأة في مثل جمال فينوس . فلم يكن يستهويني في المرأة مثل العفوية في الكلام ، والتصرّف ، والحركة . ومثل العافية الجسديّة والروحيّة تتدفّق من جسدها وعينيها . وعلى الأخص إذا اقترن ذلك بفيض من العاطفة الحارة ، وبمسحة من الحسن في ملامح الوجه وفي تناسق أعضاء الجسد ، ثمّ بشيء من الحشمة والدعة .

لقد كان من عناد تلك الفتاة وأحابيلها أنّها استأجرت لذاتها مسكناً في وكالة تبعد بضعة أمتار عن الوكالة التي كنت أسكنها . ولم تكن غايتها إلاّ أن تبقى قريبة مني ، وأن تترصّد حركاتي في رواحي ومجيئي، وتعرف إذا كانت هنالك امرأة تشغلني عنها .

ذات يوم دعتني تلك الفتاة لزيارتها في بيتها الجديد . وما إن ضغطت زرّ الجرس حتّى فتحت لي الباب . وإذا بي أجدها منطرحة على الأرض خلفه كما لو كانت في إغماءة من الإرهاق الجسدي أو الانفعال النفساني . وقفت مكاني أتأمّلها وفي داخلي ما يؤكّد لي أن الاغماءة كانت مصطنعة لعلّها تستدرّ عطفي وشفقتي ، أو تثير الشهوة في دمي . وطال وقوفي . وطالت « الإغماءة ».

وأخيراً حملتها إلى مقعد في غرفة الاستقبال . وعندما أيقنَتْ أن حيلتها أخفقت، وأنّني لن أقع في الشرك ، فتحت عينيها ببطء وقالت متنهّدة :

ـ الحمد لله . أنت هنا .

ولكن حمدها جاء معكوساً فقد ودّعتها بعد قليل وداعاً لا لقاء بعده .

الرابطة

لا بدّ لكلّ ثورة من بوق يذيع أهدافها والجهود التي تبذلها لتحقيق تلك الأهداف . ذلك البوق وجدته الحركة الأدبيّة المهجريّة في « الفنون » أوّلاً ، ثمّ في « السائح » من بعد احتجاب الفنون . وعلى الأخص في الأعداد الممتازة التي كانت تصدرها « السائح » في مطلع كلّ عام .

إلاّ أن القائمين بتلك الحركة كانوا في حاجة إلى تحديد أهدافهم وتوحيد جهودهم كيما يصبح لهم ولحركتهم كيان معنوي ، إن لم يكن تجاه أنفسهم ، فتجاه العالم الذي كانوا يودّون مخاطبته والتأثير في مجاري حياته الأدبيّة والفكريّة . وهكذا وُلدت « الرابطة القلميّة » في العشرين من نيسان سنة ١٩٢٠ . وقد حرصنا منتهى الحرص على أن لا ينضوي تحت لوائها إلاّ رجال تقاربت أذواقهم ، وتآلفت أرواحهم ، وانتفى التحاسد من قلوبهم . ولا همّ بعد ذلك إذا تفاوتت مواهبهم كلّ التفاوت ، واختلفت أساليبهم كلّ الاختلاف . فالمهمّ أن تبقى العصبة متماسكة ، متجانسة ، متساندة .

ولأنّنا لم نجد أكثر من عشرة رجال توافرت فيهم تلك الصفات فقد اكتفينا بهم . وأولئك العشرة ، مرتّبين حسب السنّ ، هم : رشيد أيّوب . ندره حدّاد . جبران خليل جبران . وليم كاتسفليس . وديع باحوط . الياس عطا الله . نسيب عريضه . ميخائيل نعيمه . إيليا أبو ماضي . عبد المسيح حدّاد . والعشرة اختاروا جبران عميداً . واختاروني مستشاراً . ووليم كاتسفليس خازناً . أمّا أمين الريحاني فلم نضمّه إلى « الرابطة » لسببين : أولهما أنّه كان

---

١ انظر فصل « الرابطة القلمية » في كتابي « جبران خليل جبران » .

متغيّباً عن نيويورك عند تأسيسها . وثانيهما — وهو الأهمّ — أنّه كان على خلاف بلغ حدّ الجفاء مع جبران .

كلّفني الإخوان وضع دستور للرابطة . فوضعته ومهّدت له بكلمة أبيّن فيها أهداف الجمعيّة . وإليك بعض ما جاء فيها :

« ليس كلّ ما سُطّر بمداد على قرطاس أدباً . ولا كلّ من حرّر مقالاً أو نظم قصيدة موزونة بالأديب . فالأدب الذي نعتبره هو الذي يستمدّ غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها . . . والأديب الذي نكرمه هو الأديب الذي خُصّ برقّة الحسّ ، ودقّة الفكر ، وبُعد النظر في تموّجات الحياة وتقلّباتها ، وبمقدرة البيان عمّا تحدثه الحياة في نفسه من التأثير . . .

« إنّ هذه الروح الجديدة التي ترمي إلى الخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني . . . هي أمل اليوم وركن الغد . كما أن الروح التي تحاول بكل قواها حصر الآداب واللغة العربيّة ضمن دائرة تقليد القدماء في المعنى والمبنى هي في عرفنا سوس ينخر جسم آدابنا ولغتنا . وإن لم تقاوم ستؤدّي بها إلى حيث لا نهوض ولا تجديد . . .

« إذا ما عملنا على تنشيط الروح الأدبيّة الجديدة فلا نقصد بذلك قطع كلّ علاقة مع الأقدمين . فبينهم من فطاحل الشعراء والمفكّرين مَن ستبقى آثارهم مصدر إلهام لكثيرين غداً وبعد الغد . إلاّ أنّنا لسنا نرى في تقليدهم سوى الموت لآدابنا . لذلك فالمحافظة على كياننا الأدبي تضطرنا للانصراف عنهم إلى حاجات يومنا ومطالب غدنا . وحاجات يومنا ليست كحاجات أمسنا » .

لقد كنّا نتوخّى للرابطة أن تقوم بأعمال كثيرة . وفي جملتها « أن تهتمّ بنشر مؤلّفات عمّالها ومؤلّفات سواهم من كتّاب العربيّة المستحقّين ، وبترجمة المؤلّفات المهمّة من الآداب الأجنبيّة . وأن تمنح جوائز ماليّة في الشعر والنثر والترجمة تشجيعاً للأدباء » . ولكنّها لقلّة مواردها ، لم تعط

أيّ جائزة ، ولم تنشر غير كتاب واحد هو « مجموعة الرابطة القلميّة لسنة ١٩٢١ » . وكان في النيّة نشر مجموعة مماثلة في كلّ سنة . وقد اضطرت ، لتنشر مجموعتها الأولى والأخيرة ، إلى إقامة حفلة في أكبر مسرح في بروكلن جنت منها نحو ٤٠٠٠ دولار ، ذهب بعضها لطبع المجموعة وما تبقّى مساعدة لجريدة « السائح » . وعندما اتّصلنا ببعض المكتبات في الديار العربيّة لتصريف « المجموعة » كان الجواب أن الثمن الذي حدّدناه لها ، وهو دولاران ، باهظ جدّاً . ولو أنّه كان نصف دولار لابتاعت مكتبة في القاهرة ١٠٠ نسخة ! والدولاران لم يكونا ، في الواقع ، أكثر من تكاليف الكتاب ، لذلك أقلعنا عن كلّ محاولة لبيعه في الخارج وتركناه في عهدة رشيد أيّوب وندره حدّاد يتصرّفان به كيفما طاب لهما ، ويرتزقان ممّا يبيعانه منه . ولذلك لم نحاول نشر مجموعة أخرى .

لقد كان نشر الكتب العربيّة في المهجر عمليّة من أشقّ العمليات في حياة الأدباء . فإذا تجمّعت لأحدهم المواد الكافية لكتاب راح يبحث عن المال الضروري لطبعه . فتارة يستجديه بالتزلّف والتملّق إلى تاجر من التجار كما فعل أبو ماضي في نشر الجزء الثاني من ديوانه . وطوراً يلجأ إلى الاكتتاب فيعلن في الصحف أن ديوان كيت وكيت سيصدر في التاريخ كذا وكذا . فعلى مَن شاء اقتناءه أن يبعث بالثمن سلفاً إلى صاحبه . وذلك ما فعله رشيد أيّوب لنشر ديوانه « أغاني الدرويش » . وكاد الاكتتاب يوقعه في ورطة . إذ أنّه لقلّة ما في جيبه ، كان ينفق ما يأتيه من الاكتتابات على حاجاته اليوميّة . وعندما آن موعد النشر لم يكن لديه ما يدفع نفقات النشر والتوزيع . إلاّ أن بعض أصحابه انتشلوه من ورطته . فصدر الديوان متأخّراً عن موعده أكثر من سنتين .

أمّا نسيب عريضه فديوانه « الأرواح الحائرة » بقي أكثر من عشرين سنة

يترقّب الفرصة « المؤاتية » لصدوره فلا يجدها . وعندما كتبت عنه مقالاً سنة ١٩٢٢[١] قال لي نسيب إن أقرباء له أثرياء وعدوا بنشر الكتاب على نفقتهم . لذلك ذكرت في المقال أن الديوان كان « تحت الطبع » . ولكنّه لولا غيرة نفر من محبّي نسيب وقادري مواهبه لكان لا يزال أوراقاً مهملة بين ما خلّفه الشاعر من أوراق . وممّا يبعث الحرقة أن « الأرواح الحائرة » كان لا يزال في عهدة المجلّد عندما لفظ صاحبه أنحابه قبل أن يبصر نسخة جاهزة منه .

مثل مشقّة النشر كانت مشقّة التصريف . فالمهاجرون ، في أغلبيّتهم الساحقة ، لا يتقنون العربيّة ، ولا يحفلون بالأدب ، قديمه أو حديثه . ولكنّهم إذا تملّقهم كاتب أو شاعر ، أو إذا كانت تربطهم به نسابة أو مودّة ، فقد يبتاعون نسخة أو أكثر من كتابه إرضاء له ، أو طمعاً في مدحه – أو تهرّباً من قدحه – إذا كان صاحب جريدة أو له علاقة بجريدة . ولذلك كان من المتعذّر على أيّ أديب مهجري أن يعيش من أدبه .

والآن ، لعلّه يثير فضولك أن تعرف شيئاً عن تركيب « الرابطة » الإقليمي والمذهبي . فسبعة من أعضائها العشرة كانوا من لبنان وثلاثة من سوريا . وهؤلاء الثلاثة هم نسيب عريضه وندره حدّاد وعبد المسيح حدّاد . وكلّهم من حمص . وثمانية كانوا من الروم الأرثوذكس واثنان من الموارنة . والاثنان هما جبران وباحوط . ولكنّنا ما كنّا نذكر الإقليم والمذهب إلاّ للمداعبة والنكتة . أمّا في الواقع فلم يكن بيننا سوري أو لبناني ، ولا أرثوذكسي أو ماروني . بل كنّا عصبة تخطّت في شعورها وتفكيرها حدود المذهب والإقليم . وقد يشوقك أن أعطيك لمحة خاطفة عن كلّ فرد من أفراد تلك العصبة .

---

١ انظر مقال « الأرواح الحائرة » في « الغربال » .

رشيد أيوب :

من بسكنتا — لبنان . طويل القامة . لا هو بالبدين ولا بالهزيل . لطيف الصورة ، فيّاض العاطفة ، صادقها . قليل التدبير . كريم إلى حدّ التبذير . مرح المزاج ، حاضر النكتة ، وعلى الأخصّ في حلقة من أصحابه ، أو في جلسة لبنت الحان منها نصيب كبير . فالخمرة التي تدفع الغير على العربدة والمهاترة كانت ترهف حواسّه ، وتثير أجمل عواطفه ، وتنسيه جميع همومه . وهموم رشيد كانت ، في الغالب ، هموم رجل في عنقه زوجة وثلاثة بنين . وهو يريد أن يكفل لهم أحسن أسباب العيش فلا يستطيع . ومن أنبل صفاته أنّه كان يعرف حدوده كشاعر ، فلا يكبر على مَن هم دونه ، ولا يحسد مَن هم فوقه ، ولا تبدو عليه أيّ بادرة من الغرور . بل كان يعطي لكل ذي حقّ حقّه .

كنّا إذا دعانا رشيد لتناول العشاء وتمضية السهرة في بيته نحرص كلّ الحرص على أن لا تفوتنا الفرصة . فجلساتنا عنده كانت من أمتع الجلسات بما تثيره من مرح ، أو بما تبعثه من مطارحات جدّيّة في قضايا الشعر والأدب إجمالاً . ولأنّه كان أبداً يشكو الجفاء بينه وبين الدولار ، وإذا به ، عندما يحظى بالدولار ، ينفقه بسرعة وغير آسف عليه ، فقد لقّبناه بـ « الدرويش » .

الآثار التي تركها : « الأيوبيّات » — « أغاني الدرويش » — « هي الدنيا » .

ندره حداد :

من حمص . شقيق عبد المسيح حدّاد صاحب « السائح » . طويل ، ممتلىء الجسم ، هادىء الحركات ، خافت الصوت ، خجول ، طيّب القلب ، طاهر السريرة ، وفيّ لأصحابه ، مستقيم في معاملاته ، رقيق في

عاطفته . والناظر إليه قد يحسبه تاجراً ، أو موظفاً في دائرة حكوميّة . ويصعب عليه أن يرى فيه شاعراً . كان ، إذا اضطرّ لإلقاء شيء من نظمه في حفلة أو مناسبة ما ، غلبه الخجل ، فارتجف صوته ، أو خنقته العبرات عندما يبلغ بيتاً يحرّك قلبه في الصميم — كأن يخاطب فيه صديقاً مسافراً إلى بلاد بعيدة ، أو يرثي نسيباً عزيزاً .

كان عازباً عندما تأسّست « الرابطة » . ولكنّه تزوّج بعد سنوات . ورزق أولاداً . وقد أدركته المنيّة بسكتة قلبيّة حلّت به إثر انتهائه من إلقاء قصيدة في حفلة زفاف شاب من أنسبائه . والأثر الأدبي الوحيد الذي تركه هو ديوانه « أوراق الخريف » . وقد صدر في نيويورك قبل مماته .

جبران خليل جبران :

من بشرّي — لبنان . قصير . متين الحبكة . كسير الجفن . حالم العينين . طويل الأهداب . مقوّس الحاجبين . لطيف تقاطيع الوجه . مرهف الحسّ والذوق والخيال . بسيط الهندام ، على أن يختلف ولو بشيء من الأشياء عن الهندام العادي — في شكل البرنيطة ، أو عقدة الرقبة ، أو القبّة (الياقة) ، أو خاتم يلبسه في السبّابة . في مشيته عنجهيّة ، وفي صوته رجولة ، وفي كلامه تمهّل . إذا حدّث ، ولو في أتفه الأمور ، حاول أن يتنكّب المألوف والمبتذل من الكلمات والتشابيه ، فجاء حديثه متقطّعاً وغير عفوي . وأحبّ التشابيه إلى ذوقه ما كان فيه شيء من الإبهام والإيهام .

إذا جالسته وحادثته حسبته الغاية في اللطف والصدق والدماثة . إلاّ إذا بدرت منك كلمة أو حركة أو إشارة يشتمّ منها مسّاً بكرامته ، أو حطّاً من المقام الرفيع الذي يضع فيه نفسه ، فهو إذ ذاك بركان من الغيظ والنقمة . من هنا حبّه للتبخير والتبجيل ، وكرهه للنقد ، مع التظاهر بالمسكنة واللامبالاة .

ومن هنا ميله إلى نسج هالات من السرّ حول الكثير من حركاته ، وحول نشأته وحسبه ونسبه . فقد أوهم نسيب عريضه أنّه ولد في بومباي — الهند . وبرباره يونغ أن والده كان من عظيم الشأن بحيث أنّه « إذا لبط الأرض اهتزّ لبنان كلّه » ، وأن الكنيسة حرمته وأحرقت مؤلّفاته في ساحة البرج في بيروت ، وأنّه كان من القدرة البدنيّة بحيث استطاع — في ساعة غيظ من زائر ثقيل — أن يمزّق دليل التلفون بيديه دفعة واحدة . ودليل التلفون في نيويورك كتاب سماكته ثمانية سنتيمترات أو أكثر . ولكن جبران ، برغم ذلك ، كان غني القلب بالصداقة ، ووفيّاً في صداقته . وكان يجيد النكتة ، ويُسَرّ بالبارعة منها ، وإن كان فيها من « الدسم » الشيء الكثير . ويحبّ السيكارة والكأس . على أنّني لم أشهده ثملاً إلاّ مرّة واحدة حيث اضطررت أن أسعفه في ركوب التاكسي والنزول منها .

ولأن جبران كان الوحيد بين عمّال « الرابطة » المنصرف بكلّيّته إلى الأدب والفن ، ولأن حماسته للاثنين كانت لا تعرف الحدود ، فالعدوى المتسرّبة من حماسته إلى باقي الرفاق كان لها أكبر الأثر في زيادة إنتاجهم .

وليم كاتسفليس :

من طرابلس — لبنان . أصله البعيد يوناني . خرّيج مدرسة الفرير ، والوحيد في « الرابطة » الذي يتقن الفرنسيّة ، وله إلمام لا بأس به بالانكليزيّة . مديد القامة ، ذرب اللسان ، كثير الحركات والإشارات عند الكلام ، لطيف العبارة إذا كتب ، وسهلها إذا خطب . واسع الاتصالات بحياة الجالية السياسيّة والاجتماعيّة والتجاريّة ، وواسع الحيلة في كسب رزقه . مرّ في حالات يسر وحالات عسر . وانتهى تاجراً ميسوراً . تزوّج قبل أن تكون « الرابطة » وأنجب البنين والبنات . لكنّه لم يكتب إلاّ بعض المقالات في بعض المناسبات .

وديع باحوط :

من كفرمتّى – لبنان . صديق وليم كاتسفليس الحميم . ورفيقه في العمل في بعض المؤسّسات التجاريّة . خفيف الظلّ والروح . لم يكتب من بعد انضمامه إلى « الرابطة » إلاّ مقالاً واحداً بعنوان « البرغشة » وهو مقال لطيف ومنشور في « المجموعة » .

الياس عطا الله :

من بيروت – لبنان . نشر بعض المقالات الهزليّة في الصحف قبل أن تكون « الرابطة » . ولم يكتب أو ينشر شيئاً من بعدها . يتذوّق الأدب ويميّز بين سمينه وغثّه . رقيق القلب ، صادق العاطفة . عاش تاجراً صغيراً ومات تاجراً صغيراً .

نسيب عريضه :

من حمص . معتدل القامة مع ميل إلى السمنة . في نظراته الهادئة عمق . وحزن . ودعة . وفي حركاته بطء واتّزان . رصين في تفكيره وحديثه . مخلص في صداقته . يكره الثرثرة ، والجدل ، والنميمة ، وتصدُّر المجالس ، ويقدّر نفسه أقلّ ممّا يستحقّ . كريم فوق طاقته . مسالم ، متساهل . خجول في المجالس الغريبة عن فطرته وذوقه ، بعيد عن التكلّف والتصنّع وحبّ الظهور . أوسع إخوانه في « الرابطة » اطّلاعاً على أخبار العرب وآثارهم . ذو طبيعة غنيّة ، متعدّدة الجوانب ، منكمشة على ذاتها ، لا تظهر على حقيقتها إلاّ في مجالسة النخبة من خلاّنها الأصفياء .

كان نسيب يحبّ الأكلة الطيبة ، والكأس المشعّة ، وله ولع بلعب البوكر

وتدخين السيكار . وكانت لي ولجبران وعبد المسيح سهرات في بيته قبل أن تزوّج مليئة بأمتع الذكريات . فقد كان يتولّى هو الطهي ويحسنه إلى حدّ بعيد . ويتولّى الباقون أشغالاً ثانويّة كتحضير السلطة ، وترتيب المائدة ، وغسل الصحون وغيرها من أدوات الأكل ، وتجفيفها الخ . وكنت أقلّهم نفعاً في تلك الأمور ، وأبطأهم في ميدان الشرب فحيث كان نسيب يشرب الوسكي أكواباً ، ويشربها صرفاً ، وكان جبران وعبد المسيح لا يقصّران عنه كثيراً ، كنت أسكب لي قليلاً منها في قدح ، وأملأ القدح ماء ، ثمّ أمضي أحسوها حسو الطائر للماء إلى أن ننتهي من الأكل والشرب .

تزوّج نسيب شقيقة عبد المسيح بعد تأسيس الرابطة . والاثنان لم يُرزقا أولاداً . ولم يصدر نسيب من شعره غير مجموعة واحدة أسماها « الأرواح الحائرة » . على أنّه ترك الكثير من المخطوطات بين شعر ونثر . اشتغل في مؤسّسات تجاريّة فترة من حياته . ومن بعد « الفنون » في تحرير « السائح » و « الهدى » .

إيليا أبو ماضي :

من المحيدثة — لبنان . قصير ، زهيد الجثّة والشَّعَر . أبرز ما في وجهه الجبين والعينان . في قيافته بساطة قرويّة تفتقر إلى الذوق . وفي صوته جفاف لا ترطّبه عذوبة . قويّ العارضة . فيّاض القريحة . طموح ، لجوج في بلوغ مطامحه . سريع الاقتباس . واسع الحيلة في كسب رزقه وفي الوصول إلى أهدافه . متقلّب في صداقاته وعداواته حسبما تمليه مصلحته . فيه شيء من طبيعة الحمامة وشيء من طبيعة العقرب . صادق الريحاني زماناً ثمّ انقلب عليه فاتّهمه بالتجسّس للانكليز . ونقم على جبران فكتب عنه مرّة في « مرآة الغرب » في صدد الكلام عن مرضه وقال « العقل السليم في الجسم السليم » .

وكان من قبلها قد كلّف جبران كتابة المقدمة للجزء الثاني من ديوانه . ودونما أيّ سبب أعرفه كتب مرّة مقالاً يهجوني فيه أقذع الهجاء . ثمّ لم يلبث بعدها أن كلّفني كتابة المقدمة لديوانه « الجداول » فكتبتها . وبقيت العلاقات بيننا على أصفاها حتّى آخر حياته . واشتبك قبل وفاته بقليل في مهاترة صحفيّة مع عبد المسيح حدّاد بلغت منتهى البشاعة والبذاءة من الجانبين .

تزوّج إيليا إحدى بنات صاحب « مرآة الغرب » . ورزق منها أولاداً . اشتغل في أوّل حياته المهجريّة بالتجارة مع شقيق له . ثمّ في تحرير « مرآة الغرب » و « الفتاة » . ثمّ أسّس مجلّة شهريّة متواضعة باسم « السمير » . وبعد سنوات حوّلها جريدة يوميّة . فكانت السبب في انتشاله من ضيق العيش إلى شيء من البحبوحة في آخر حياته .

عبد المسيح حدّاد :

من حمص . كان أوّل عهدي به في خريف سنة ١٩٠٤ يوم قدم إلى الناصرة يافعاً واسع العينين ، جاحظهما ، ركيك البنية ، مصفرّ البشرة ، حتّى ليحسبه الناظر إليه مصاباً بداء خبيث . لم يمكث في الناصرة أكثر من سنة . عندما لقيته في نيويورك بعد اثنتي عشرة سنة لم أكد أصدّق أنّه الفتّى الهزيل الذي عرفته في الناصرة .

ذكيّ الفؤاد ، صادق العاطفة ، ثابت في مودّته ، قليل الحرص والتدبير في شؤون المعيشة . يعيش من يوم ليوم ولا يخطّط للمستقبل البعيد . فمعيشته يوم يسر ويوم عسر . لا يتفرّد بصفة من الصفات أو بموهبة من المواهب . ولكنّه يملك ذهناً صافياً وغير منغلق على ذاته .

أسّس جريدة « السائح » وأقصى ما كان يرجوه لها أن تصبح لسان حال الجالية الحمصية والجاليات النازحة من جوار حمص . وعندما أصبحت السائح

« الجريدة الرسميّة للرابطة القلميّة » وانتشر اسمها في المهجر وفي العالم العربي لم يحسن صاحبها استغلال السانحة الجديدة . فبقيت الجريدة نصف أسبوعيّة ، وبقيت تشكو العسر حتى آخر حياتها التي امتدّت لأربعين سنة . وقد باعها عبد المسيح منذ أعوام قريبة .

تزوّج صاحب « السائح » بعد تأسيس « الرابطة » بقليل . ونقم عليه أهله وجميع أصحابه لأنّه تزوّج أرملة . ولم يصمد بجانبه غيري . فكنت إشبينه . ولكن الناقمين عادوا عن غيّهم . وأنجب الزوجان صبيّاً وثلاث بنات . والصبيّ هو اليوم من كبار المهندسين والمديرين في أكبر شركة للماكينات التجاريّة في العالم . وهي ماكينات تقوم بأدقّ الحسابات . وتوفيت زوجة عبد المسيح منذ سنوات . فتزوّج ثانية . وهو الوحيد في نيويورك الباقي على قيد الحياة من عمّال « الرابطة القلميّة » . وليس له غير مؤلّف واحد عنوانه « حكايات المهجر » .

* * *

أولئك هم رفاقي في « الرابطة » صوّرتهم لك تصويراً خاطفاً . ويجدر بي أن أحدّثك قليلاً عن مستواهم الثقافي . فرشيد أيّوب وندره حدّاد ووديع باحوط والياس عطا الله وإيليا أبو ماضي وعبد المسيح حدّاد لم يكونوا على شيء من الثقافة ، إلاّ الذي التقطوه لماماً من مطالعاتهم العربيّة . أمّا اللغة الانكليزيّة فما كانوا يتقنونها إلى حدّ يساعدهم على المطالعة فيها . وكانوا يكتفون منها بما يساعدهم في تصريف شؤون المعيشة ، وفي قراءة الصحف السيارة وترجمة بعض الأخبار والمقالات لنشرها في الصحف العربيّة . وهذا القليل الذي كانوا يعرفونه ساعد بعضهم — مثل أبو ماضي — على اقتباس بعض الموضوعات الشعريّة من قصائد كانت تُنشر في بعض الصحف اليوميّة .

أمّا وليم كاتسفليس فكان يتقن الإنكليزيّة خيراً من الرفاق الذين ذكرت.

وقد أسعفته في ذلك معرفته للفرنسيّة . ولكن ثقافته بقيت ضمن نطاق ضيّق .

وأمّا نسيب عريضه فالذي درسه في الناصرة والمطالعات الواسعة الّتي قام بها فيما بعد سواء في الروسيّة وفي العربيّة ، يسّرت له نصيباً لا بأس به من الثقافة العامّة .

وأمّا جبران فثقافته كانت أوسع بكثير من جميع مَن ذكرت . وذلك بفضل انشغافه بالفنّ وشوقه إلى الاطلاع على تطوّراته ، وعلى سِيَر البارزين من رجاله . وبفضل ميله الفطري إلى الأدب والبحث عن عباقرته ومجاريه . ولأنّه أتقن الإنكليزيّة فقد راح يطالع فيها بنهم كلّ ما يثير اهتمامه في دنيا الفنّ والأدب .

فما أبعدهم عن الحقيقة ، أولئك الذين حاولوا « تفسير » الحركة الأدبيّة في نيويورك بقولهم إنّها تأثّرت بالغ التأثّر بالأدب الأميركي ! ولا بأس لو أنا أثبتّ ههنا ما قلته في كتابي « جبران خليل جبران » بهذا الصدد :

« . . . وهكذا انتشر اسم « الرابطة » في العالم العربي وكلّ مهاجره . وأقبلت الصحف على آثار عمّالها تنقلها وتعلّق عليها . وقام البعض يجمعها في مجموعات منها ما يدرّس اليوم في كثير من المدارس . ونقم أنصار التقليد والجمود عليها ، فما كانت نقمتهم إلاّ لتزيدها قوّة وحماسة واندفاعاً ولتنمي عدد أنصارها ومريديها ومقلّديها والمعجبين بها في كلّ قطر عربي . حتّى حار في أمرها أصحابها وأعداؤها على السواء . فما بقوا يعرفون إلى ماذا يعزون سرّ قوّتها وبُعد تأثيرها .

« فمن قائل إن السرّ في الأدب الأميركي الذي تأثّر به عمّال الرابطة ، وهو قول فارغ . ومن قائل إنّه في جوّ الحريّة الأميركيّة ، وهو قول أفرغ . ومن قائل إنّه في تهتّك عمّال الرابطة من حيث اللغة العربيّة وأصولها ، وهو قول أفرغ وأعقم من القولين الأوّلين . أمّا الحقيقة فلا يعلمها إلاّ الذي جمع

عمّال الرابطة القلميّة في فسحة محدودة من ديار غربتهم ، ولمحة معلومة من زمان هجرتهم ، ووضع في صدر كلّ منهم جذوة تختلف عن أختها حرارة وبهاء ، ولكنّها من موقد واحد وإيّاها »[1] .

لقد كان في المهاجر عَرَب ، وكانت صحف عربيّة ، قبل أن تكون « الرابطة القلميّة » . ولا يزال في المهاجر عَرَب ، ولا تزال صحف عربيّة من بعد أن زالت « الرابطة » . فلماذا لم تقم ، ولا تقوم ، حركة كالّتي قامت في نيويورك ما بين ١٩١٣ و ١٩٣١ ؟

---

١ « جبران خليل جبران – حياته . موته . أدبه . فنه » الطبعة الثالثة . ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

في البيت الأبيض

بعد مؤتمر دام الأسابيع الطوال ، واحتدم فيه الجدل ، وكثر الأخذ والردّ ، ولعبت المساومات السياسيّة لعبتها الشيطانيّة ، عاد الرئيس ودرو ولسن من ڤرساي إلى واشنطن حاملاً معه نسخة من معاهدة الصلح مع ألمانيا ومن ميثاق « عصبة الأمم » . والمعاهدة والميثاق كان كلاهما بعيداً جداً عمّا توخّاه ولسن أن يكون . فلا الصلح صلح لا غالب فيه ولا مغلوب ، ولا الميثاق ميثاق أمم تفاهمت وتضامنت على نشر السلام والعدالة والحرية في الأرض . لقد مسخ الاثنين دهاء كلمنصو ولويد جورج ، وعنادهما وجشعهما . فبات الصلح تسابقاً على المغانم والأسلاب . وبات الميثاق أداة طيّعة في يد الأقوياء لاستثمار الضعفاء . ثمّ بات مستقبل الإنسانيّة تربة خصبة لجراثيم النزعات والخلافات والثورات ، ومسرحاً لا حصر لما قد ينقف فيه من شتّى المفاجآت والاضطرابات .

إلاّ أنّ ولسن ، وإن شقّ عليه أن تمسخ ڤرساي مواليد فكره الإنساني ، كان يؤثر أن يعود إلى بلاده ولو بمسخين على أن يعود إليها فارغ اليدين . ولأن بلاده استقبلته ببرودة وفتور ، ولأن الجمهوريين في البلاد ، وعلى الأخصّ في مجلس الشيوخ الذي لا بدّ من موافقته على المعاهدة والميثاق ، كانوا يسعون لتحطيمه واسترداد الحكم من أيدي الديموقراطيّين ، فقد رأى أن يقوم بجولة واسعة في الولايات يتحدّث فيها مباشرة إلى الشعب لعلّه يكسب تأييده فيرغم الشيوخ على التخلّي عن معارضتهم .

وقام ولسن بتلك الجولة . وألقى الخطب الطويلة والقصيرة في شتّى المدن .

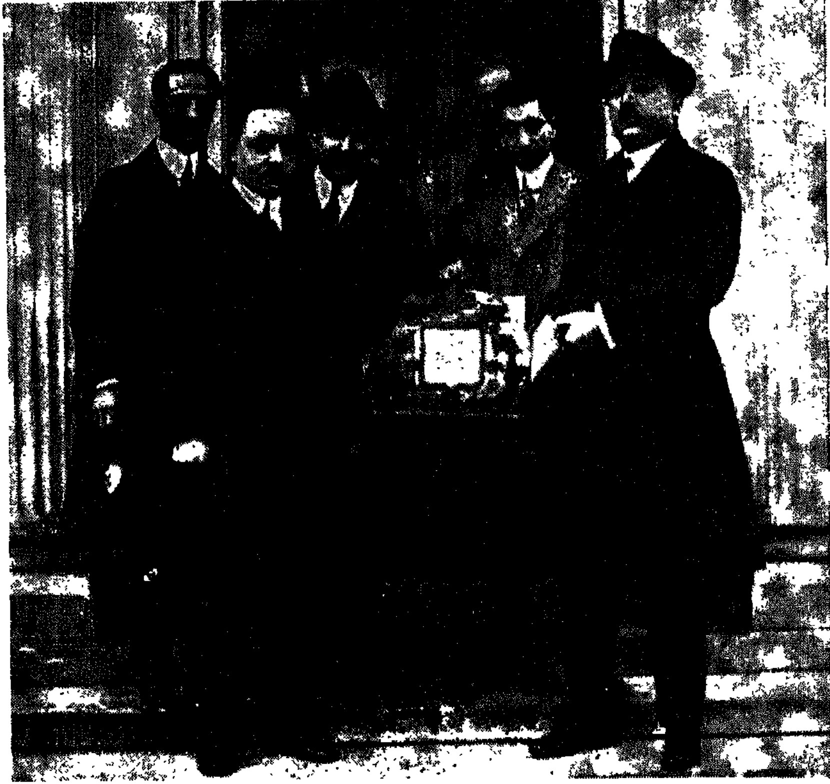


المؤلف في « رين » ١٩١٩



سوريا المتحررة

بريشة جبران



على درج البيت الأبيض مع هدية الجالية في البرازيل
من اليسار إلى اليمين : المؤلف . عبد المسيح حداد . نسيب عريضه .
واثنان من تجار الجالية في نيويورك



المؤلف (إلى اليسار) واميل ضومط في «مربع ماديسن» بنيويورك ١٩٣١

وكانت خطبه ، في الغالب ، بليغة ومؤثرة لأنّها صادرة عن فكر مبصر وقلب فهيم . ولكنّ أعداءه كانوا قد أفسدوا عليه الجوّ بدعاواتهم المغرضة ، المسمومة . فلم يكسب من جولته غير الإرهاق الذي انتهى به إلى انهيار في الأعصاب ، وانفجار خطير في الدماغ شلّه عن كلّ عمل وحركة ، وألزمه الفراش ، وخلق حوله شتّى الإشاعات ، وأثار مشكلة الرئاسة وهل يصحّ أن تبقى له وهو غير قادر على القيام بأعبائها ، أم من الواجب أن تنتقل إلى نائبه . ويبدو أنّ خصومه تورّعوا عن ملاحقة المشكلة ، لا سيما ومدّة رئاسة ولسن الثانية كانت قد أشرفت على النهاية .

في تلك الأثناء وردتني رسالة من الجالية بالبرازيل تخبرني أن رجال الجالية ، تقديراً منهم لمساعي ولسن في سبيل سوريا ، والأمم الضعيفة إجمالاً ، قد رأوا أن يقدّموا إليه هديّة ، وأنّهم يطلبون إليّ الاهتمام بتقديمها .

كانت الهديّة كناية عن علبة جميلة مصنوعة من خشب الجوز الممتاز ، وقد لُصقت على غطائها من الداخل صحيفة من الذهب الابريز ، في وسطها شارة الولايات المتحدة ومن حولها ثلاث عشرة نجمة من الألماس . وقد لقيت بعض المشقّة في تخليصها من الجمرك . ولأنّني كنت أعرف من الصحف أن الرئيس ليس في حالة تمكّنه من استقبال الوفود فقد كتبت إلى سكرتيره السيد « طَمَلْطي » أخبره عن الهديّة وأستشيره في أمر تقديمها . فجاء جوابه أن الرئيس « يُسَرّ » أن يستقبلنا الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين الواقع في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٢١ » .

ألّفت وفداً من نسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد وتاجرين معتبرين قاما بتكاليف السفرة ذهاباً وإياباً بما فيها ليلة في أفخم فندق من فنادق العاصمة . وعندما أزف الموعد توجّهنا إلى البيت الأبيض . فوجدنا مداخله خالية من الحياة والحركة ، إلاّ بعض الحرّاس واثنين أو ثلاثة من مخبري الصحف ،

إذا تكلّموا فهمساً . لقد ران على كلّ شيء صمت عميق .

وأقبل السكرتير . فصعد بنا سلماً إلى الدور الثاني ، وقال لي إن الرئيس سيستقبلنا في مكتبه الخاص ، وإنّه يجدر بي أن أختصر ما استطعت في الكلمة التي سأوجّهها إليه . فهو يُضنيه أن يُطيل الجلوس ، ويرهقه أن يتكلّم .

دخلنا المكتب فإذا به غرفة متواضعة في وسطها منضدة كبيرة . وإذا الجالس إلى المنضدة رجل متقلّص ، متهدّم ، يكاد يكون خيال الرجل الذي أبصرته مرّة وسمعته في إحدى وقفاته الخطابيّة إبّان الحرب . فعيناه جامدتان . وكذلك يداه وعضلات وجهه . إن منظره ليعصر القلب عصراً . والصوت الذي خرج من فمه عندما اعتذر عن عدم تمكّنه من استقبالنا واقفاً ومن مصافحة كلّ واحد منّا كان صوتاً من غير هذا العالم ، وكادت آذاننا لا تلتقطه .

وإليك ترجمة الكلمة التي خاطبته بها :

« قليل هم الرجال عبر التاريخ الذين أعطي لهم ، مثلما أعطي لك ، أن يُترجموا فكر الإنسانيّة وروحها . فالفضل فضلك في التعبير عن أعزّ أشواقها وأمانيها .

أيّام كانت العواصف الهوج تتقاذف عالمنا ، وأيّام كان هذا العالم يتلمّس طريقه في الظلام فلا يدري أنّى يتّجه وعمّاذا يفتّش ، وأيّام كانت تتأكله البغضاء والشحناء وشتّى المطامع ، وأيّام كانت نعال الأقوياء تسحن الضعفاء — وقفتَ لتعلن : « ما من شعب يجب أن يُكرَه على العيش تحت حكم لا يرتضيه لنفسه ! » فارتفع صوتك فوق جلبة المعارك وصخبها . وطارت كلماتك إلى أقاصي الأرض . فوجد العالم فيها وجهة جديدة . ووجد الضعفاء القدرة على تحمّل آلامهم . إذ أن أملاً جديداً قد وُلد لهم . وهو أن تنتهي آلامهم بالحرية .

لا . لم يصبح الضعفاء كلّهم أقوياء . ولا بات جميع المستعبَدين أحراراً . ولكنّ الضعفاء والمستعبَدين قد أبصروا نوراً جديداً . وهو أنّهم لا بدّ نائلون

نصيبهم من العدالة . وأن الحرية ليست إرثاً للأقوياء وحدهم .

في جملة الأمم التي كان لها في كلماتك نور جديد الأمّة السوريّة . فقد ساعدتَ في تحريرها من النير التركي . والأمّة الكريمة التي أنت رئيسها قد بذلت لها من المعونة ما مكّنها من البقاء على قيد الحياة أيّام كاد الجوع أن يمحوها من وجه الأرض .

لأجل ذلك ، يا سيّدي ، ولأجل أفضال أخرى تشعر سوريا بعمق امتنانها لك ولأمّتك النبيلة . وإنّه لمن دواعي الغبطة لنا – والحسد كذلك – أن نقدّم إليك باسم إخواننا السوريّين في البرازيل هذا الرمز لما يكنّونه ويكنّه معهم جميع السوريّين أينما كانوا من عظيم التقدير والامتنان لك .

فتفضّل ، يا سيّدي ، وتقبّل هذه الهديّة بمثل الروح التي تُقدَّم بها إليك – رمزاً محسوساً لمحبّة وإعجاب وعرفان جميل تتعالى فوق المحسوسات[1] » .

وحاول ولسن أن يردّ بكلمة شكر فخانه صوته . ولم أسمع من كلمته غير « أشكركم أيّها السادة » . وكأنّني أبصرت في مقلتيه دمعاً .

مضى على ذلك ثمان وثلاثون سنة ، وصورة ولسن لا تزال ماثلة لعينيّ وكلّما فكّرت فيه فكّرت في المظالم التي ترتكبها الحكومات إجمالاً – والديموقراطيات بالأخصّ – ضدّ الكثير من رجالها – حتى البررة منهم . فقد قضت « الحرية الديموقراطيّة » بتهشيم إنسان كولسن أبشع التهشيم لتختار مكانه رجلاً لا وزن له في أيّ ناحية من نواحي السعي البشري نحو

....

١ حار المهاجرون العرب في بدء هجرتهم إلى أي الأمم ينتسبون . فهم بتبعيتهم أتراك ، وبلسانهم عرب. ولكن كلمة «تركي» كانت تنطوي في أذهان أهل البلاد على شيء من الإهانة والتحقير. ولم تكن أفضل منها بكثير كلمة «عربي».فاختاروا أن ينتموا إلى سوريا لأنها القطر الأكبر من الأقطار الثلاثة التي نزحوا عنها . وهي لبنان وسوريا وفلسطين . ولأن اسمها قديم ومعروف . أما في علاقاتهم بعضهم ببعض فما كان اللبناني يتخلى عن لبنانه ، ولا الفلسطيني عن فلسطينه .

الأصحّ ، والأفضل ، والأجمل ، والأبقى . فالفساد الذي ساد في أيّامه قلّما شهدت البلاد مثيلاً له في تاريخها . ولعلّ تحريم المسكرات كان من أبرز الأسباب في ذلك الفساد ، فرجال الدين وغيرهم من المتزمّتين في الدفاع عن « الأخلاق » و « الفضيلة » كانوا قد أكرهوا الكونغرس على سنّ قانون بتحريم صنع المسكرات وبيعها تحريماً كليّاً . فما لبث التهريب أن بات مورد ثروات ضخمة وسريعة لآلاف الناس بما فيهم الكثير من رجال الحكومة الكبار . وما لبث الشرب أن انتشر حتّى بين النساء والمراهقين والمراهقات . فقد بات تحدّي القانون ضرباً من البطولة والترفيه عن النفس ، وبات التهكّم عليه في البيوت والأندية ومن على المسارح موضوعاً لا ينضب .

ترى متى يدرك رجال الدين وجميع الغيارى على الخلق الكريم ، والفضيلة النقية ، ومرضاة الله ، أن هذه لا يمكن أن تزرعها العصا في أفئدة الناس ، أو أن تنبت من التهويل بالسجن ههنا ، وبالنار الأبديّة بالآخرة ؟ ! فالتحريم ، منذ آدم وحوّاء وشجرة الخير والشرّ ، لم يأتِ إلاّ بنتيجة معكوسة لأنّه يُفرَض على الإنسان بإرادة غير إرادته . والتحريم لن يُرجى منه أي خير إلاّ إذا هو نبع من إدراك الإنسان وإرادته . فأحرِ بنا قبل أن نسنّ القوانين بتحريم هذا الأمر أو ذاك ، أن نرفع مدارك الناس إلى حيث يحرّمون هم تلك الأمور بأنفسهم على أنفسهم .

أيها الحب!

ظننت، في البداية، أن علاقتي مع «بيلاّ» لم تكن غير نزوة عابرة من نزوات الشباب. ولكنها، كلّما امتدّ بها الوقت، تكشّفت لي عن أشياء أعمق بكثير من نزوات اللحم والدم. فقد بات صوت «بيلاّ» أعذب الأصوات عندي على الإطلاق. إذا سمعته وجهاً لوجه، أو بالتلفون، سرت منه في دمي مويجات من الغبطة والشعور بحلاوة الوجود. وبات لي في شفتيها القرمزيّتين رحيق ولا رحيق الآلهة. وفي عينيها الواسعتين، الوادعتين، بحر بغير قرار من المحبّة الصافية، المتفانية، تستحمّ فيه نفسي كلّما تراكمت عليها أدران المعيشة. وبتّ لا أطمع في شيء على قدر ما أطمع في أن أزرع أحلام تلك المخلوقة رؤى، وأن أفرش دروبها بالرياحين، وأن أغمر أيّامها بالأنس والسلام والطمأنينة.

لقد كنت أريد أن أرفعها بحبّي، وأن أرتفع بحبّها، إلى حيث لم يرتفع رجل وامرأة من قبل. فأربأ بقلبي وقلبها أن يسلكا الشعاب التي سلكتها وتسلكها قلوب المحبّين في كلّ زمان ومكان — شعاب البهجة تنتهي إلى الوحشة، والأمل يفضي إلى الخيبة، واللذّة تحبل بالألم. فالجمال إلى زوال. والشباب إلى غياب. والجسد إلى فناء. وكلّ ما في الكون هباء. وما من بقاء لغير الحبّ. إنّه وحده يملك القدرة على قهر الزمان والمكان، وعلى الثبات في وجه شتّى التيارات؛ إنّه وحده الذي لا يُكال بمكيال، ولا يوزن في ميزان؛ إنّه وحده المفتاح إلى قلب الحياة — إلى قلب الله.

ذلك ما كان يوحيه إليّ حبّ «بيلاّ» في فترات من صفائه وبهائه.

وأحسّني وكلّ ما في الأرض والسماء جسداً واحداً وروحاً واحداً . وأحسّني بعيد الجذور ، عتيّها ، في كلّ ما كان منذ الأزل ، وكلّ ما سيكون حتى الأبد . فأبارك كلّ شيء . وأتبرّك بكلّ شيء . وأهتف من أعماق قلبي :

« أيّها الحبّ ! أنت البداية التي منها كلّ بداية ، والنهاية التي إليها كلّ نهاية . بك تتماسك الأقمار والشموس والمجرّات ، وحولك تدور . منك تنبع الحياة ، ومن الحياة الجمال ، ومن الجمال الحقّ . سلطانك هو السلطان ، وقضاؤك هو القضاء ، وعدلك هو العدل . أنت السحر وأنت الساحر . أنت الخالق وأنت الخليقة . أنت الكلّ في الكلّ . فالمجد لك ! والويل ثمّ الويل للذين أبدَعْتهم فأنكروك ، ثمّ راحوا ، باسم القانون ، يحاولون حصرك في قلوبٍ أقفرت من عبيرك ونورك ، ومحقك من قلوب هيّأتها لك هياكل وباركتها بنورك وبخورك !

« أيّها الحبّ ! ها أنا قد جعلت قلبي هيكلاً لك . فقدّسْه يا أقدس المقدّسين ! »

هكذا كنت أريد حبي أن يكون . وهكذا كنت أحسّه في ساعات من صفاء الذهن والروح . إلاّ أنّه كان فوق طاقتي أن أحبس ذلك الإحساس في قلبي فلا أدعه يهرب . أو أن أمنع غيره من دخول قلبي . فسرعان ما كان يهجرني في محلّ عملي عندما يأتينا راغب في شراء شيء من بضاعتنا . فأمضي أعرض عليه ما عندنا من أشكال ، وأغريه بجودتها وأسعارها وأتودّد إليه وأسترضيه ، لعلي أظفر منه بطلب . ولكم عجبت لنفسي تتمدّد وتتقلّص في النهار الواحد – بل في الساعة الواحدة – بل في الدقيقة الواحدة إلى حدّ أنّها – وهي نفسي – تكاد تبدو غريبة عني .. فبينا هي ترود الآزال والآباد ، وتتعانق مع كلّ ذرّة في الكون ، إذا بها تهبط بغتة إلى درك حقيقته الكبرى قميص مطرّز من « الباتيست » تلبسه السيدات عند النوم ؛ وقيمته العليا الدولار !

وسرعان ما كان يفلت مني ذلك الإحساس كلّما ردّني فكري إلى الظروف الزمنيّة ، والملابسات الاجتماعيّة التي كانت تكتنف حبّي فتجعله يبدو كما لو كان حبّاً أثيماً — حبّاً « سرقْته » مثلما سرق بروميثيوس النار من موقد الآلهة . أليس أن عقد الزواج ، في شرع الناس ، يعطي كلا الزوجين حقّ « الملكيّة » المطلقة في الآخر ؟ أليس أنّه يقول للاثنين : « منذ الآن يُحرّم على قلب كلّ منكما أن يتذوّق الحبّ إلاّ في قلب رفيقه ، حتى وإنْ يكن قلب رفيقه من الحديد أو من الصوّان » ؟

إذن فلا تثريب على زوج « بيلاّ » إذا هو حسب نفسه صاحب الحق المطلق في قلبها . ولا تثريب عليه إذا هو لم يكن من رهافة الحس وسموّ التفكير بحيث يدرك أن الحبّ لا يتقيّد بنظام أو شرع غير نظامه وشرعه ، وأنّه وحده صاحب الحقّ والسلطان . وإذن فهو يشعر أنّني « دخيل » و« مغتصب » . وهذا الشعور يوذيه ويؤلمه . فهل أرضى أن أمزّق قلب غيري ليسلم لي قلبي ؟

ولكنّ في الميزان أكثر من قلبين . هنالك قلوب ثلاثة — اثنان في كفّة وواحد في الأخرى . والذي في الكفة الثانية قلب مغلق ، جاهل ، قاس ، ولا شيء يدعمه غير شرع الأرض . واللذان في الكفة الأولى قلبان منفتحان ، فاهمان ، حسّاسان ، يدعمهما شرع السماء . فهل تتوازى الكفتان ؟ وهل من الحقّ أن يُحرَم القلبان نعمةً ليس في مستطاع الثالث أن ينعم بها إذا هما تنازلا له عنها ؟

لا . لا . عبثاً تحاول يا ميخائيل أن تهرب من « الواقع » . والواقع هو أنّ إنساناً بات يشقى اليوم بما يسعدك . فإذا كنت صاحب الوجدان المرهف الذي تدّعي أفلا يجمل بك أن تتخلّى عن « سعادتك » لتخفّف من شقاء ذلك الإنسان ؟ من الأكيد أن تخلّيك لن يسعده . وانّه سيُشقي إنساناً آخر معه — سيشقي «بيلاّ». ولا بدّ أن يشقيك كذلك.ولكنّ في الشقاء هناء لقوم يعقلون.

ومن ثمّ ، فهل أنت واثق يا ميخائيل من أنّ حبّك لبيلاّ هو من موقد الآلهة ؟ أليس للّحم والدم شأن — وأيّ شأن — في ذلك الحبّ ؟ ألا يشقيك أنّك لم تستطع أن تسمو بحبّك إلى ما فوق اللحم والدم ، وأنّك ، مهما حاولت ، لن تعطي « بيلاّ » جناحين ترتفع بهما فوق الأرض ؟ إنّها ، وإن تفانت في حبّك ، تشدّك أبداً إلى أسفل . فهي تخشى عليك البرد إذا قسا ، والحرّ إذا اشتدّ . وهي ، إذا طالت سهرتك خارج البيت ، لا يغمض لها جفن حتّى تعود إلى البيت . وهي ، إذا لم يُتح لها أن تراك في النهار ، تترك لك قصاصة من الورق تحت وسادتك لتقول لك فيها إنّها اشتاقت إليك ، وانّها تحبّك فوق محبّتها لنفسها — بل هي تعبدك . ولكنها غريبة جدّاً عن الدنيا التي تعيش فيها بروحك وخيالك . وبعيدة جدّاً عن الأشواق التي تجتاح نفسك فتدفعك على التفتيش عن الوجود ومعانيه وشأنك منه وفيه .

لعلّ هذه العلاقة القائمة بينك وبين « بيلاّ » ليست الحب الذي تتوهم . لعلّها شرّ لك ولها . شرّ ؟ ! . . وما هو الشرّ ؟ ومن أين ؟ وما هو الخير ؟ ومن أين ؟

اكتب . اكتب يا ميخائيل :

سمعتُ في حلمي — ويا للعجب ! —
سمعتُ شيطاناً يناجي ملاكْ .
يقول : « إي ، بل ألف إي ، يا أخي ،
لولا جحيمي أين كانت سماك ؟
أليس أنّا توأمان استوى
سرّ البقاء فينا وسرّ الهلاك ؟
ألم نُصَغْ من جوهرٍ واحدٍ ؟
إن ينْسَني الناس ، أتنسى أخاك ؟ »

فاطرق ابن النور مسترجعاً
في نفسه ذكرى زمان قديم
واغرورقت عيناه لما انحنى
مستغفراً ، وعانق ابن الجحيم
وقال : « إي ، بل ألف إي ، يا أخي
من نارِك الحرّى أتاني النّعيم ! »

وحلّق الاثنان جنباً إلى
جنبٍ ، وغابا بين وشي السديم[1]

بلى . بلى . فالخير والشرّ من نبعة واحدة . هذا أبو ذاك . وذاك أبو هذا . وحيث لا شرّ فلا خير . وحيث لا خير فلا شرّ . إنّهما في طبيعة الإنسان مثلما المدّ والجزر في طبيعة البحر :

« في الناس خير وشرّ
في البحر مدّ وجزر[2] »

وما دام الخير ينبت من الشرّ ، والشرّ من الخير . وما دام الإنسان قاصراً بإدراكه الحالي عن تتبّع الأسباب والنتائج من الأزل وإلى الأبد ، فلا ملامة عليه إذا هو أخطأ في ما يحرّم ويحلّل . ويلام الإنسان عندما يعطي لتحريمه وتحليله صفة القطع ، وعندما يعزو ذلك إلى قدرة فوق قدرته . ولو أنّ قدرة فوق قدرة الإنسان شاءت أن تصدّه عن أشياء وتبيح له أشياء لأقامت حول

1 همس الجفون – طبعة ثالثة – ص ٦٤
2 » » » » ص ٩٨

المحرّمات سياجات لا يستطيع الإنسان اقتحامها . ولكنّها أباحت له أن يختبر كلّ شيء ليعرف بالخبرة ما يضرّه فيبتعد عنه ، وما ينفعه فيسعى إليه .

بمثل تلك الأفكار كنت أعود في كلّ مرّة فأبرّر سلوكي مع « بيلاّ » . فلا يقتنع وجداني كلّ الاقتناع . ولكنّه يكفّ عن « الحرتقة » ولو إلى حين .

الغربال

في جملة الذين استهواهم أدب « الرابطة القلميّة » فتحمسوا له بالغ التحمّس رجل يدعى محيي الدين رضا . فقد حملته حماسته للأدب الجديد على نشر مجموعة منه أسماها « بلاغة العرب في القرن العشرين » . وهذه المجموعة صدرت في القاهرة ومنها انتشرت في سائر البلاد العربيّة . فأجفل منها الجيل القديم . واستقبلها الجيل الجديد بحفاوة وحرارة . وممّا قاله فيها العقّاد : « . . . وقد قرأنا فيها نثراً وشعراً أخصّ ما يذكر لهما من المزايا نزعة التجديد ، وروح النقمة على التقليد ، والبعد عن تكلّف اللفظ وتعسّف المعنى . . . وبين محتويات هذه المجموعة ما يسمو معناه إلى درجة رفيعة في البلاغة والذكاء . وفيها من الابتداع ما يقلّ مثله بين آيات أدباء الغرب العصريين . ولا يؤخذ عليها إلاّ ما يؤخذ عادة على كتّاب العربيّة في أميركا : تساهُل في قواعد اللغة وضعف في أساليب التعبير بها . وما عدا ذلك فطرفة تستحقّ الثناء » .

عرفت محيي الدين رضا ، أوّل ما عرفته ، بالمراسلة عندما كتب إليّ مبدياً تقديره وإعجابه . ثمّ ما لبثت أن تسلّمت منه رسالة مؤرخة في ٢٤ يونيو (حزيران) سنة ١٩٢٢ . وإليك فقرة منها :

« نحن في هذه الأيّام لا تمضي علينا سهرة إلاّ وتكون معنا . ولقد سرى ذكرك في مصر أكثر من ذي قبل وبدأ الناس يعرفون منزلتك العظيمة . أنا أودّ كثيراً أن أنشر لك كتاباً خاصّاً من مقالاتك ومنظوماتك لتكون نموذجاً لمن يحبّون السير على الأساليب الحديثة . فإذا سمحت فأنا مستعدّ لطبع هذا

الكتاب على أن أرسل إليك ما تشاء من النسخ أو خلاف ذلك » .

تلك الرسالة كانت الدافع المباشر على نشر « الغربال » . فقد رحت أجمع المقالات النقدية التي صدرت لي في « الفنون » و « السائح » منذ سنة ١٩١٣ وحتى ذلك التاريخ . وعندما فرغت من جمعها وترتيبها كان همي الأكبر أن أجد لها اسماً مناسباً . فكان « الغربال » أول ما خطر لي في بال . وراقني الاسم لانطباقه على المسمى ، ولخفة لفظه ، وبعده عن التصنع والتبذل . إلا أنني لم أكن واثقاً من أن الكلمة فصيحة لا عامية . فعدت إلى « محيط المحيط » في إدارة « السائح » ، وسرّي عني كثيراً عندما استوثقت من رضاه عنها . غير أنني كنت عازماً على أن لا أتخلى عن الاسم حتى وإن تخلى القاموس عنه .

هنا أود أن أعترف للعقاد وغيره ممن أخذوا على أدباء « الرابطة القلمية » تهاونهم في قواعد اللغة وأساليبها البيانية أنني ، في كل ما ألفته في المهجر ، لم ألجأ إلى القاموس في غير المرة التي ذكرت . وذلك لسبب بسيط : لم يكن عندي قاموس . ومن ثم فقد كان يشق علي ، وأنا في سبيل كتابة قصة ، أو إنشاء مقال ، أو نظم قصيدة ، أن أقطع مجرى أفكاري ، أو أن أجمد مشاعري ، ريثما أفتش في القاموس عن حرف الجر الذي يتعدى به هذا الفعل ، أو عن جميع ألوان المعاني التي تنطوي عليها تلك الكلمة . فكنت ، إذا شككت في كلمة أو قاعدة تحاشيت استعمالها . وذلك لا يعني أنني لم أكن أقيم للقاموس وزناً . فهو الخزانة العجيبة ، الحاوية أروع ما توصل إليه أي شعب في ضبط مفاهيمه ، وفي التعبير عن حياته .

إلا أن تلك الخزانة تغدو ، على كر السنين ، كالبيت القديم الذي يرفض سكانه أن يضيفوا إلى أثاثه شيئاً ، أو أن يحذفوا منه شيئاً . فكأن ما وضع فيه من أثاث منذ البداية كان في منتهى الكمال والجمال . وكأن الذين ابتدعوه

ووضعوه هناك آلهة تمتدّ أبصارهم من الأزل وإلى الأبد ، ولا يمكن أن يطرأ على ما صنعوه أقلّ تعديل . فهم واثقون من أن الذي صنعوه منذ آلاف السنين سيبقى يفي بحاجات الأجيال إلى ما بعد ملايين الملايين من السنين . وذلك ما لست أسلّم به ، ولا أعتقد أن أيّ عاقل يسلّم به . فالاستعباد للقاموس ، أو التعبّد له ، ضرب من الخنوع الفكري ، والعقم الروحي ، والكفر بالحياة وطاقتها العجيبة على التوليد والتجديد إلى ما لا نهاية .

وذلك ما قادني إلى كتابة مقالي « نقيق الضفادع » . وقد قلت فيه ، في جملة ما قلت :

« لكنّ حرصنا على اللغة يجب أن لا ينسينا القصد من اللغة . فجميل بنا أن نصرف همّنا إلى تهذيبها وتنسيقها لنكسبها دقّة ورقّة . إنّما قبيح بنا أن ننسى أو نتناسى كونها رمزاً إلى ما هو أكبر وأجلّ منها بمراحل . وأقبح من ذلك أن نحسبها وافية ، كاملة ، وليس لمستزيد في دقّتها زيادة . . . إنّ قولنا بكمال اللغة العربيّة كما هي اليوم يعني إقرارنا بأن الأعراب الذين تحدّرت عنهم هذه اللغة الشريفة ، والنّحاة الذين قيّدوها بقواعد منذ ألفي سنة ، كانوا أنبياء البيان . بل آلهة البيان . وأنّنا لخسّة جبِلّتنا ، وفقر قلوبنا وأفكارنا ، يستحيل علينا أن نضيف إلى ما رتّبوه ، أو أن نُسقط أو نغيّر منه حرفاً . فما لنا والحالة هذه إلاّ أن نحطّم أقلامنا ومحابرنا ونكفّ عن الكتابة راضين بما عندنا من لغة ، وبما للغتنا من قواعد . . . »

من الذين استقبلوا ذلك المقال بالتّرحاب والإعجاب الدكتور فيليب حتّي . وكان وقتئذٍ يدرّس التاريخ في الجامعة الأميركيّة في بيروت . وقد كتب إليّ في ٢٠ شباط ١٩٢٣ يقول :

« سلّم الله فمك بل يدك التي حبّرت « نقيق الضفادع » في عدد السائح الممتاز . الآن أنهيت قراءتها ولا بدّ من الكتابة لأهنّئك عليها وأشكرك لأجلها .

فإنّك يا رجل حككت بها على جرحي وترجمت عن فكري وعواطفي وجعلتني أقول في آخر كلّ جملة منها آمين ثمّ آمين . وحبّذا لو أنّ أعضاء المجمع العلمي في دمشق وبعضاً من « أدباء » بيروت والقاهرة من مسلمين ومسيحيين يعلّق كلّ واحد منهم مقالك كالذخيرة في عنقه ويكرّر آياته في الصباح وفي المساء .

زدنا من أمثالها زادك الله همّة ونشاطاً وقدّرك على صرع جبابرة القديم وضفادع الأدب . وتأكّد أن معك — حتّى في سوريا — فئة تقول بقولك وتنتمي إلى حزبك إن كان من هذا التأكيد منفعة لك وتقوية لعضلاتك . وإني من المعجبين بنقدك والمقرين بأدبك » .

هذا في ما يختصّ باللغة . أمّا في ما يختصّ بالأسلوب فإنّي أودّ أن أعترف كذلك بأن أسلوبي ، في بداية حياتي الأدبيّة ، لم يكن أسلوباً عربيّاً صرفاً بل كانت تطغى عليه القوالب الافرنجيّة ، والروسيّة بالأخص . ولا عجب فمطالعاتي منذ أن دخلت السمنار في روسيا سنة ١٩٠٦ وحتّى تخرجت من الجامعة في أمريكا سنة ١٩١٦ كانت كلّها في لغات تختلف قوالبها البيانيّة اختلافاً كبيراً عن قوالب العربيّة .

ومن ثمّ فمن الطبيعي أن يحلّ باللغة إذا هي نزحت عن ديارها نظير ما يحلّ بأي مغترب ينزل بين قوم غير قومه ، وفي ديار غير دياره . فهو لا بدّ أن ينسى أشياء ألفها في موطنه ، ويألف في غربته أشياء لم يكن له أيّ عهد بها من قبل . وذلك ، في الواقع ، ما أضفى على الشعر العربي في الأندلس عذوبة لم تكن له في منابته الأصلية . فأين من نعومة اسبانيا وطراوتها خشونة البادية وجفافها ؟ وأين من شعر التروبادور شعر الصعاليك ، أو شعر المدّاحين والهجّائين والمفاخرين بأحسابهم وأنسابهم ؟ وذلك هو ما أكسب أدب الرابطة القلمية جدّة في المعنى والمبنى . فكان لقاحاً جديداً للأدب العربي في شتّى دياره .

ولنعد إلى « الغربال » :

كنت ، بعد اتصال محيي الدين رضا بي ، قد تلقيت منه نسخة من « الديوان » في جزئين . وهو الكتاب الذي اشترك في تأليفه عباس محمود العقّاد وإبراهيم عبد القادر المازني . والاسمان كانا عندي نكرتين قبل ذلك . ولكنني ما إن اطّلعت على الكتاب حتّى صفّق قلبي ابتهاجاً بهذين الرفيقين ألتقي وإيّاهما بغتة في طريق واحد وهدف واحد . فقد قاما يفعلان في مصر ما كنت أفعله وحدي في نيويورك . إنّهما يريدان تحطيم الأصنام وتقويم المقاييس الأدبيّة . وفي ما يقولانه زخم وحرارة واندفاع وإيمان لا يعرف الحدود بصواب ما يقولان . فكان أن نشرت مقالاً في « الديوان » . وإليك استهلاله :

« ألا بارك الله في مصر . فما كلّ ما تنثره ثرثرة . ولا كلّ ما تنظمه بهرجة . وقد كنت أحسبها وثنيّة تعبد زخرف الكلام ، وتؤلّه رصف القوافي ، فكم زمّرت لبهلوان ، وطبّلت لمشعوذ ، و « طيّبت » لسكران !

غير أني عرفت اليوم بالحسّ ما كنت أعرفه أمس بالأمل . عرفت أنّ مصر مصران لا واحدة . مصر ترى البعوضة جملاً ، والمدرة جبلاً . ومصر ترى البعوضة بعوضة ، والمدرة مدرة . . . »

وبعدها بقليل أهدى إليّ العقّاد نسخة من كتابه « الفصول » . فكتبت فيه مقالاً . وهو آخر مقال مدرج في « الغربال » . وفيه أقول :

« إنّما الكاتب قلب يخبّر . وعقل يفكّر . وقلم يسطّر . فحيث لا شعور فلا فكر . وحيث لا فكر فلا بيان . وحيث لا بيان فلا أدب .

« الشعور والفكر والبيان – ثلاثة لا يكون رجل كاتباً إلاّ إذا توافرت له أكثر من توافرها لسواد إخوانه في البشرية . ولولا تفاوت الناس بعمق الشعور واتّساعه ، وحدّة الفكر واندفاعه ، وجمال البيان وجلائه ، لكان كلّ من عرف القراءة والكتابة كاتباً » . وهو قول لن أقول اليوم في الموضوع خيراً منه.

كان من هذه القرابة بيني وبين العقّاد في الاتّجاه والهدف أنّني ، عندما أرسلت مواد « الغربال » إلى الناشر سألته أن يكلّف العقّاد وضع مقدمة له . فجاءني جوابه :

« إنّي أحسّ رغبة من العقّاد في ذلك . وأظنّ أن إرساله إليك كتابه « الفصول » هدية هو أكبر دليل على هذه الرغبة . وأريد أن أقول لك بالسرّ إنّه قال لي إنّه يرى فيك نبوغاً على جميع إخوانك ، وعلى جبران أيضاً . . . »

غير أنّني عدت فكتبت في ذلك إلى العقّاد . وإليك الجواب الذي وردني منه :

« أسوان . في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٣

حضرة الأخ الفاضل الجليل

تلقيت خطابك شاكراً مسروراً . وزادني شكراً لك وسروراً بخطابك أن عهدت إليّ بكتابة مقدمة « للغربال » . فإنّها أريحيّة منك ومودّة كريمة . وقد قلت في خطابك اللطيف إنّك تعهد إليّ بهذا الواجب الأدبي لتريني كيف لا تعدّني غريباً ولا بعيداً . وإنّني أقول إنّني مغتبط بهذه الروح الأخوية السمحة . بل إنّني كنت أستحلّ لنفسي العتب عليك لو خطر لك تكليفي كتابة المقدمة ثمّ عدلت عن ذلك لأيّ اعتبار . فإنّي كنت حقيقاً أن أعدّ ذلك العدول ضرباً من سوء الظن الذي تحاسَب عليه كل نفس كنفسك تضع الآداب الحقيقيّة فوق الآداب التقليدية الخاوية .

وقد كتبت المقدمة وأرسلتها إلى محيي الدين أفندي بعد أن قضيت ساعات ممتعة في مطالعة آرائك الناضجة . وكانت هذه المطالعة خير الزاد في هذه البلدة النائية من صعيد مصر التي قصدت الإقامة فيها في إبّان الحوادث المضطربة ريثما تتغيّر الحال . فحضرت إليها مصطحباً مقالاتك القيّمة ولم يكن لي من

مادّة قراءة غيرها قبل وصول كتبي . فشكراً لك أيضاً على ما أتحته لي من هذه الفرصة المقدورة .

وإنّي أنتظر للغربال نجاحاً في مصر وأنظر بعين الارتياح إلى التفات الناشئة هنا للنهضة الأمريكيّة . فإنّه التفات يقظة يرجى منها الخير الكثير لآدابنا العربيّة .

سلامي وتحيّتي إليك وأرجو أن تكون هذه المراسلة فاتحة تراسل دائم طويل أطلع منه على تحقّق ما نتمنّاه وتتمنّونه لنهضتكم المباركة .

المخلص

عباس محمود العقّاد »

وهكذا ظهرت الطبعة الأولى من « الغربال » في القاهرة صيف ١٩٢٣ . ولكن الناشر لم يكن محيي الدين رضا بل الياس أنطون الياس صاحب « المطبعة العصرية » . فقد رأى الأوّل أن يتنازل للثاني عن حقوق النشر والتوزيع نظراً لما يعهده فيه من الأمانة وحبّ الإتقان في الطباعة . وحال صدور « الغربال » كتب إليّ محيي الدين رضا يقول :

« أرجو أن تكون راضياً عني وعن مسعاي في سبيل مرضاتك . وأن يكون عملنا هذا فاتحة خير ، وأن تيسّر لي طبع غير الغربال من أبحاثك الأدبيّة الشائقة . وأنا أعلم أن الغربال ستهبّ حوله زوابع ويدوّي له جوّ مصر بالرعد والبرق . . . وسننتظر أموراً مدهشة . . . »

كان نصيبي من الكتاب أربعمائة نسخة أرسلها الناشر إليّ في نيويورك . وما أظنني انتفعت منها بأكثر من عشرين نسخة . وما تبقّى فقد تركته في إدارة « السائح » وأبحت لعبد المسيح أن يتصرّف بها كيفما شاء . فالمهجر لم يكن السوق التي يمكن الاعتماد عليها في تصريف كتاب من نوع « الغربال » أو غيره من الكتب التي هي في مستواها الثقافي والفكري واللغوي فوق مستوى

السواد الأعظم من المهاجرين .

والآن ، قد يهمّ القارىء أن يعرف كيف أنظر اليوم إلى « الغربال » ، وقد مضى على كتابة البعض من فصوله قرابة نصف القرن .

في الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سُئلت فيها اليوم لتبنّيتها دونما تردّد . فأنا لا أزال أقول إن « محور الأدب » هو الإنسان . فعلى قدر ما يتغلغل الأدب في حياة الإنسان ، وفي التفتيش عن أهدافها وعن العقبات الّتي تقوم في وجه تلك الأهداف ، يكفل لنفسه البقاء . وذلك يعني أن الأدب — شعره ونثره — يجب أن يُقيّم بقدر ما فيه من قوى إنسانيّة ظاهرة أو باطنة لا بقدر ما فيه من الحذلقة والبراعة في صقل الكلمات والعبارات .

ولا أزال أقول إن النقد خلق وإبداع وليس مجرد استحسان أو استهجان . وإن اللغة أداة خلقها الإنسان للتعبير عمّا تثيره في نفسه متطلبات حياته اليومية — المحسوس منها وغير المحسوس ، والتافه والجليل على حدّ سواء . فلا يليق أن يصبح المخلوق سيّد الخالق ، فيغدو الإنسان أداة في يد اللغة بدلاً من أن تبقى أداة في يده يكيّفها حسبما تمليه عليه حاجاته المتطوّرة بغير انقطاع . ولأن « العامية » هي اللغة المتطورة أبداً ، ولأن « الفصحى » لا يسمح لها المتعنّتون بالتطوّر ، فقد باتت الأخيرة في خطر التحجّر ، أو في خطر التقهقر بعيداً عن حياة الذين يتخذونها أداة للتعبير عن حياتهم ، إلاّ إذا هم لقّحوها بمفردات جديدة وقوالب جديدة من مفردات العامية وقوالبها .

وأنا لا أزال أقول ما قلته في « الغربال » :

« إن أوّل ما أبحث عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذي أعنيه بنسمة الحياة ليس إلاّ انعكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظوم الذي أطالعه . فإن عثرت فيه على مثل تلك النسمة أيقنت أنّه شعر . وإلاّ عرفته جماداً . وإذ ذاك ليس ليخدعني بأوزانه

المحكمة ، ومفرداته المنمّقة ، وقوافيه المترجرجة .

« ومتى أيقنت أن في ما أطالعه شعراً ميّزته من سواه أوّلاً باتّساع مداه : بعمقه وعلوّه وانفراج أرجائه . وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجي : عن دقّة تركيبه ، وحلاوة رنّته ، وطلاوة ألوانه . وآخر ما أعيره انتباهاً هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية . فالشعر الذي ينزل بفكري إلى أغوار تحتها أغوار ، ويعلو به إلى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتح لخيالي آفاقاً خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفتي مدى يجرّها إلى أمداء ، هو الشعر الذي تستأنس به روحي ، وتتفتّح له براعم الحياة في داخلي . وما كان دونه مدى لنفسي كان دونه قيمة لدي . أمّا الشعر الذي لا آنس فيه سوى متانة لغوية ، وزركشة بيانيّة ، ومقدرة عروضيّة فهو في نظري كغرفة طولها ذراعان ، وعرضها ذراعان ، وعلوّها ذراعان . جدرانها موشّاة بالرسوم . وسقفها مموّه بالذهب . وأرضها مرصوفة بالفضة . يبهرني لأوّل وهلة منظرها . ولكنني لا أمكث فيها بضع دقائق حتى أشعر بحاجتي إلى الهواء النقيّ ، وإلى فضاء الله الواسع . فأهرب شاكراً ربّي على النجاة وغير ملتفت إلى الوراء . . . »

ويقيني أن الأجيال الآتية ستجد نفسها في مثل تلك الغرفة مع الكثير من الشعراء الذين رفعهم هذا الجيل والأجيال التي قبله إلى قمة الأوليمب .

في « الغربال » مقالات لو شئت « تهذيبها » اليوم لشطبت منها أشياء ، وعدّلت فيها أشياء ، وغيّرت وبدّلت في مفرداتها وعباراتها . ولكنني أوثر أن تبقى على حالها مخافة أن تفقد شيئاً من العفوية التي كُتبت بها في الأصل ، أو شيئاً من الحرارة التي رافقت تلك العفويّة .

وكيفما كان الأمر فالكتاب كان نقطة انطلاق في حياتي الأدبيّة وفي ما تواضع القوم على تسميته « النهضة الأدبيّة » .

ثورة وهدنة

القاهرة . في ٢٨ يونيو ١٩٢٢

« حضرة الأخ الفاضل ميخائيل أفندي نعيمه المحترم

تحية وولاء . وبعد فهذه رسالة لك ولسائر الإخوان أعضاء الرابطة أبثكم فيها خالص المحبّة والوداد وأعرض عليكم ما يأتي : لقد رأيت أن أفتتح السنة ٣١ للهلال — وهي ابتداء العقد الرابع من حياته — باستفتاء مفكرينا في الموضوع الخطير المبين في الورقة المرفقة بهذا . ولما كان أعضاء الرابطة في مقدّمة الأدباء الناهضين الناضجين الذين يودّ القراء الوقوف على رأيهم جئت بكلمتي هذه راجياً من كلّ واحد منهم أن يتكرّم بمقال وجيز في هذا الموضوع . هذا وإن أملي بغيرة الإخوان وحسن التفاتهم عظيم . واقبلوا في الختام أخلص التمنيات من :

المخلص

اميل زيدان »

وكان الاستفتاء يدور حول « نهضة الشرق العربي وموقفه بإزاء المدنيّة الغربيّة » . وإذن فهو يثير قضيّة المدنيّة من الأساس، وقضيّة المقارنة بين الشرق والغرب . والقضيتان كان لهما أكبر النصيب من تفكيري في تلك الفترة من حياتي . ولكم سألت نفسي عن المدنيّة الغربيّة أين تمضي بنا ، وهل لإنسان مثلي أن يجد فيها ذلك « الشيء الكبير ، البعيد ، المبهم » الذي أخذ يفتّش عنه وهو لا يزال طالباً دون العشرين في « بولتافا » فيرى كلّ ما عداه

تافهاً ، وطعمه في فمه طعم الرماد ؟ [1]

ها أنا في صميم تلك المدنيّة . فهي في الولايات المتحدة تبدو على أتمها . والمجاري التي تتخذها هنا مجار سريعة وعنيفة . ففي كلّ يوم تجارب جديدة مع الحرية والديموقراطيّة — في المدرسة ، في الكنيسة ، في المجالس التشريعية . وفي كلّ يوم اختراعات جديدة واكتشافات جديدة . بعضها باهر لا يلبث أن يؤثر بالغ الأثر في تفكير القوم وفي نهج حياتهم الاجتماعيّة والسياسيّة . وبعضها لا يتعدّى دائرة المطبخ أو الحمّام ولكنه يقلب الحياة البيتيّة رأساً على عقب . إنّها مدنيّة تشيد وتغامر وتغزو كما لم تشد وتغامر وتغزُ أيّ مدنيّة سبقتها . وهي تتّخذ من العلم دليلاً لها وهادياً . وتتّخذ من الكسب وحبّ المتعة والرفاهية مهمازاً وحافزاً .

ولكن العلم الذي تسير هذه المدنيّة على هديه يبدو لي في حاجة ، هو نفسه ، إلى هادٍ . فهو قاصر عن بلوغ ذلك « الشيء الكبير ، البعيد ، المبهم » الذي أفتّش عنه . لأنّه يلقي جلّ اتّكاله على الحواس . والحواس خادعة أبداً ومخدوعة . لأنّها ، وهي غير مستقرّة ، تتناول أشياء لا تستقرّ على حال . فلا النظر في هذه اللحظة هو عينه في اللحظة التي سبقتها . ولا المنظور إليه في هذه الدقيقة هو عينه في دقيقة تليها . بل إن النظر والناظر والمنظور إليه في تغيّر مستمرّ لأنّهم في حركة لا تنقطع ولا رفّة جفن . وإذ ذاك فالمحرّك هو المهمّ . وذلك لا يُدرَك بالحواسّ ولا بأدقّ ما استنبطه العلم من وسائل وأدوات . ويُدرَك بقوى فوق الحسّ . وهي قوى يمدّنا بها المحرّك نفسه . فما علينا إلاّ أن نبحث عنها في نفوسنا ، وفي مناطق أعمق من مناطق الحواسّ الخارجيّة . حتّى إذا اهتدينا إليها رحنا ننميها ونتمرّس باستخدامها لننمو بها ومعها .

١ انظر « المرحلة الأولى » من هذا الكتاب ص ٢١٨ .

ومن ثمّ فهذه المدنيّة قد استنبطت شتّى الأساليب الشيطانيّة لصرف قلوب الناس وأفكارهم عن المحرك الذي في أعماقهم إلى رغوة لا تنفكّ تتحرّك على سطح حياتهم . فللناس هنا في كلّ يوم ضجّة حول أمر من الأمور أو مشكلة من المشاكل : حول ثروات هائلة تنبت بين ليلة وضحاها من صفقة في البورصة ، أو من بئر نفط ، أو من أطيان لم تكن لها قيمة فباتت تقدّر بالألوف والملايين ؛ حول إضراب ومحاولة لفك الإضراب ؛ حول محتال يبتز أموال عيال كثيرة من البسطاء ؛ حول « قحة » النساء يجززن شعورهن ، ويقصّرن أثوابهنّ ، وينافسن الرجال في شرب الوسكي وتدخين السيكارة ؛ حول فضيحة ماليّة في دائرة ما من دوائر الدولة ؛ حول سيدة تسافر إلى فلوريدا لتمضية الشتاء وتنسى كلبها الحبيب في بوسطن فتكتري طائرة خاصّة لتحمل إليها الكلب ؛ حول غلاء الحاجات وارتفاع الإيجارات ؛ حول مليونير يطلّق زوجته ليتزوّج خادمته ، أو تطلّقه زوجته لتتزوّج سائق سيارتها ، إلى آخر ما هنالك من ضجّات تثيرها هذه المدنيّة الصاخبة بغير انقطاع في حياتها الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة ، وفي علاقات الدول بعضها ببعض .

في ذلك الخضمّ الهائل ، المتلاطم بشتّى الأهواء والشهوات والنزوات والتيارات ، كانت تشتدّ بي وتمتدّ أمواج الزهد في المدنيّة ومغرياتها . فلا يخفّف من وطأتها حبّ امرأة ، أو تقدير قارىء ، أو فوز في معركة ضدّ التقاليد البالية ، والمقاييس الملتوية ، والأذواق الآسنة في آداب أبناء جلدتي ولساني . وكنت كيفما التفتّ حواليّ ، أبصرت وجوهاً « ليس بينها واحد تستقرّ عليه العين فتأنس وتطمئن . جميلها لا يظلّ جميلاً ، وقبيحها لا يدوم قبيحاً . ضاحكها لا يلبث أن يعبس أو يبكي ، وباكيها لا يلبث أن يشرق أو يضحك . فهي تتقلّب في كلّ دقيقة بعدد ثوانيها ، وفي كلّ ساعة بعدد

دقائقها ، متلوّنة بألوان ما يتموّج تحتها من شهوات الأرض ، وأهواء الجسد ، ومخاوف اللحم والدم ، وأوهام الزمان والمكان . . .

« وفي كلّ وجه أبصر ملامح من وجهي . لأنّني ، أنا كذلك ، ألعوبة الشهوات ، وهدف الأهواء ، وفريسة المخاوف ، وعبد الزمان والمكان . . .

« فويل عينيّ من وجهي — كيفما دارتا لا تقعان إلاّ عليه . بل ويل وجهي من عينيّ المقنّعتين بالتراب فلا تبصران غير ألوان التراب . وليت لي أن أستعيض عنهما بالعين التي تخترق سُتُر الزمان وحُجُب المكان . تلك العين التي لمحت بها أمس وجوهاً بشرية ثلاثة فتقلّصت أمامها خيالات كلّ وجوه البشر ! [1] »

تلك الوجوه الثلاثة لم تكن غير وجه بوذا ، ووجه لاوتسو ، ووجه يسوع . والثلاثة من الشرق . والثلاثة ، في اعتقادي ، قد أدركوا ذلك « الشيء الكبير ، البعيد ، المبهم » الذي كنت أفتّش عنه . وإذن ، فماذا عساني أقول لمن يسألني عن « نهضة الشرق العربي وموقفه بإزاء المدنيّة الغربيّة » أكثر من أن أردّ ذلك الشرق إلى إيمانه بما هو أقوى وأبقى من المدنيّة الغربيّة بما لا يُقاس ؟

« لو أخذتَ من المدنيّة الغربيّة ما استعارته من الشرق لتركتها لحداً مطليّاً من الخارج بالذهب ، وفي الداخل محشوّاً عظاماً ودوداً . فلو قلت للغرب يوماً : ها أنا سأجمع كلّ آثاركم الكتابيّة وأحرقها ، إلاّ واحداً . ولكم أن تختاروه . فماذا ترى يختار الغرب ؟ يختار ، ولا شك ، الكتاب المقدّس ! ولو فعلت ذلك مع العالم الإسلامي لاختار القرآن الشريف . فإذا كان أثمن آثار الغرب وأعزّها هو هبة الشرق ، فكيف للشرق أن يمدّ يده للغرب مستعطياً ؟

وماذا عساه يستعطي سوى طيارات وقطارات ودواليب وأسلاك ولوالب

---

1 انظر « ثلاثة وجوه » في كتاب « المراحل » المؤلف .

ومدرّعات وبرلمانات ومتاحف ومعاهد ومقاصف ومخدّرات وعلل ومشكلات كثيرة ليست لتدنيه من كنه الحياة ولا لتعطيه طمأنينة روحيّة ليس يحصل عليها بإيمانه ؟ أمّا الثمن الذي يدفعه إلى الغرب لقاء ما يستعيره منه أو يستعطيه فعزّة النفس ، وراحة الفكر ، والاعتراف العلنيّ بأنّه — وأعني الشرق — مزبلة العالم ، وأن الغرب جنّته الغنّاء » [1]

أمّا « الإيمان » الذي دعوت الشرق إلى استعادته والاعتصام به فهو غير الخنوع والاستسلام والخوف والقناعة بالذلّ والفقر والمسكنة . إنّه القدرة التي تدرك حدود العقل فتتخطاها إلى حيث تتكشّف الحياة عن ثروات روحيّة أين منها ثروات الذهب الأصفر والأبيض والأسود ؟ ولقد كان يحزنني أن أرى الشرق وكأنّه لا علم له بتلك القدرة ؛ أو كأنّه مسخها فباتت قدرة تشدّه إلى أسفل بدلاً من أن تنهض به إلى أعلى . وهكذا مكّن الغرب من أن يستعمره ويستثمره ويذلّه .

ولأن غطرسة الغرب تجاه الشرق كانت تؤلمني ، ولأن الغرب بات بعد الحرب العالميّة الأولى سيّد الأرض بدون منازع ، وبات يدّعي أنّه مهذّب العالم ومعلّمه والعامل على تحسينه وترقيته ، فقد حملني غيظي من ذلك الوضع على نظم أبيات جعلت عنوانها « مَن أنت ؟ ما أنت ؟ » . وقد نظمتها على الطريقة التقليدية ونشرتها في « السائح » في عدد ٢٤ آب ١٩٢٢ . ولأنّني لم أضمّها إلى القصائد التي في « همس الجفون » فلا بأس لو أنا أثبتّها هنا برمّتها :

مَن أنتَ ؟ ما أنتَ حتى تحكم البَشَرَا
كأنّ في قبضتيك الشمسَ والقمرا ؟

١ « نهضة الشرق العربي » في « المراحل » .

هل أنت نور السما ؟ أم أنت خالقها
تسيّر الفلك الدوّار والقـــدرا ؟
أم أنّ ربّك لاقى فيك سيّده
فعاف من أجلك السلطان وانتحرا
فرحت تقضي وتمضي في خلائقه
بالسّيف والمال إمّا سيفك انكسرا
تقسّم الأرض أفتـــاراً مُربّعـــةً
بما عليها وما في جوفها استترا
وتسلب الرزق أقوامـــاً لتمنحه
قوماً ، وإمّا شكوا لقّمتهم مدرا
فتقطع الغرس في بستان غارسه
كي تقتني حطباً أو تجتني ثمرا
وتَفْصل النّاس قطعاناً فتذبح ما
تشاء منها ، وتبقي ما تشا أثرا
حتى إذا طويت من لحمها أكلتْ
أوْ لا ، تلهّتْ بما من نجعها انهدرا
كأنّما النّاس آلات تحرّكها ،
أو انّ نبع البقا من كفّك انفجرا

* * *

مَن أنتَ ؟ ما أنتَ يا ابنَ الغرب تأمرني
وليس لي ردّ أمر منك إن صدرا

هل صاغك اللهُ يا مولايَ من نَفَسٍ
في صدره ، وبراني خالقي حجرا ؟

أم اصطفاكَ مَنـاراً في بَرِيّته
ولم يهبْنيَ لا سَمعاً ولا بصَرا ؟

تقولُ إنّي ضعيفٌ ، جاهلٌ . وأنا
جعلتُ ضعفي وجهلي في الورى خبرا

إذ لست أخجل من ضعف أقرّ بـه
تجاه مَن كلّ ضعفٍ عنده ظهرا

ولستُ أستر جهلي عنه مدّعياً
أنّي عليمٌ بما يأتي وما غبرا

فكم جهولٍ درى ما غابَ عن علَمٍ
وكم ضعيفٍ على سلطانه انتصرا !

فاترك مهمّـة تنويري وترقيَتي
لِمَن ترى عينه ما لست أنتَ ترى

وقُلْ ، بربّك ، والأفلاك دائرة ،
والموت منجله لا يشتكي الضجرا :

مَن أنتَ ؟ ما أنتَ حتّى تحكم البَشَرا ؟

تلك النّقمة على المدنيّة ، وعلى ما تثيره من رغوة عارمة في مدينة صاخبة كنيويورك ، أخذت تبعث فيّ الحنين إلى الطبيعة الخيّرة ، والحياة البسيطة الهادئة التي عرفتها في أحضان صنّين . وذلك الحنين وجد له متنفّساً في

مقالتين أودعتهما فيما بعد كتاب « المراحل » . والمقالان هما : « مشهدان » و « الواحة الحيّة » .

ففي المقال الأوّل أصوّر مشهداً في حديقة من حدائق نيويورك عصر نهار في أواخر تموز . وأجعل عنوان المشهد « التنّين يتنفّس » . ثمّ أتبعه بصورة مشهد في الشخروب عصر نهار مماثل من أواخر تموز . وأدعو المشهد « صنّين يتنفّس » . وشتّان بين ما في الأوّل من ضنك وثقل وضيق نَفَس ، وما في الثاني من فرَج وخفّة وانشراح في مجاري التنفّس . هناك المدنيّة المرهقة بالقيود والأوضار . وهنا الطبيعة الحبلى بالمفاتن والأسرار .

أمّا « الواحة الحيّة » فكانت جواباً على رسالة تلقيتها من صاحبة مجلّة نسائيّة كانت تصدر في لبنان باسم « الخدر » . وتاريخ الرسالة أوّل تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ . وقد استهلتها كاتبتها بقولها :

سمعتك تقول :

« واجعل اللهمّ قلبي
واحة تسقي القريب
والغريبْ »[1]

ثمّ راحت ، بمنتهى اللباقة والكياسة ، تطلب مقالاً لمجلتها . فأجبتها أن ذلك القلب الذي سمعته يبتهل إلى ربّه ليجعله واحة تسقي القريب والغريب لا يزال قارورة من الطين لا تبلّلها قطرة ندى حتّى تجفّفها ألف ريح سموم . . .

« إنّني عطِش ، يا سيّدتي ، مثلما أنت عطشى . وأفتّش عن مناهل مثلما تفتّشين . والله يعلم أنّني لا أقول ذلك تمسكناً أو تواضعاً . بل اعترافاً بما في القلب من قحط وجوع ، وما في الروح من جفاف وعطش . وعندي

---

١ « ابتهالات » في « همس الجفون » . طبعة ثالثة . ص ٣٨ .

أنّه إذا كان منّا مَن هو خَليق بأن يُحسد فذلك أنتم ، معشر المتخلّفين ، لا نحن . لأنّ لكم منهلاً عذباً تستقون منه ولا نرده نحن إلاّ بالذكرى ، وفي الأحلام . أمّا ذلك المنهل فهو الشعب .

« لست أعني بالشعب حكّامه ، ولا موظفيه ، ولا رؤساء أديانه ، ولا قضاته ومحاميه ، ولا أرباب صحافته وأولياء تجارته . بل أعني به ذلك المجموع الأصمّ ، الأبكم الذي قلمه المحراث ، ولسانه المنجل ، ومنبره الحقل ، وسامعوه السنابل والأشجار ، ومخدعه البيدر ، وقناديله النجوم . . . إن ذلك الشعب الذي يفهم ما تقول الأرض والسماء ، وتفهم الأرض والسماء ما يقول ، لأفصح منّا ، وأعقل منّا ، وأقرب إلى الله منّا بما لا يُقاس . . . إنّه يتعطّر برائحة الأرض وما تولّده الأرض من الأزهار والأعشاب . ونحن بأنفاس المدنيّة الفاسدة ، وما تولّده المدنيّة من المساحيق والأدهان والأطياب . . . إنّه يعيش ليُحيي . ونحيا نحن لنُميت — نميت أنفسنا ، ونميت سوانا . . .

« إن القصائد المدفونة في صدر شعبك وشعبي ، يا سيدتي ، لم تُنظم بعد . والحكمة المخزونة في عقله وقلبه لا تزال عندنا سفراً مختوماً . والقوّة الروحيّة الكامنة في كيانه لم تتخذ لها هيكلاً منظوراً . حتى إنّه لو وُلد لنا في كلّ يوم شاعر وفيلسوف ونبيّ — من اليوم حتى القيامة — لما نظموا كلّ ما في الشعب من الشعر . ولا أظهروا كلّ ما فيه من الحكمة . ولا نطقوا بكلّ ما في كيانه من القوّة الروحيّة .

هي ذي « الواحة » التي ماؤها لا ينضب . والغرس على جوانبها لا يذبل . فلنستق منها ! »

ما كنت أجهل أن ثورتي الجامحة على المدنيّة الغربيّة لم تكن إلاّ لتفريج كربة ، وأنّني لن أجد في العودة إلى « الطبيعة » وإلى « الشعب » ذلك « الشيء الكبير ، البعيد ، المبهم » الذي كنت أفتّش عنه ، إلاّ إذا أنا وجدته في نفسي

أولاً.. ففي نفسي ، لا في غيرها ، المفتاح إلى كلّ ما تشتاقه نفسي . إنّها العين السحرية التي تستطيع أن تنفذ من خلال أكسية الأشياء إلى ما وراءها . فترى النجوم خلف الغيوم ، والمروج تحت الثلوج ، والداء في الدواء . وترى في اللحد مهد الحياة[1] .

وإنّها المغنّي وما يغنّي . والزارع وما يزرع . فكما تغنّي تُغنّى . وكما تزرع تحصد :

« همستُ سرّاً في روح روحي:
يا روح غنّي ولا تنوحي
فالعمر لحن إذْ تَسْمَعينَه
تعينَ منهُ ما تنشدينَه
والعيش حقلٌ تستثمرينَه
يعطيك ممّا تَسْتَوْدعينَه »[2]

وهي ، وقد أدركت صلتها بكلّ ما في الكون ، باتت ولا شيء في الكون يستطيع أن يؤذيها . فلا العواصف تزعجها :

« سقفُ بيتي حديدْ
ركن بيتي حجرْ
فاعصفي يا رياحْ . . . »

ولا الظلمة تخيفها ، لأنّها تستمدّ النور من سراج الإيمان :

---

١ « أغمض جفونك تبصر » – همس الجفون – طبعة ثالثة . ص ٩
٢ « أنشودة » – المراجع ذاته . ص ٦٧ .

« من سراجي الضئيلْ
أستمدّ البصرْ
كلّما اللّيل طالْ
والظلام انتشرْ . . . »

ولا هي تخشى غدر القضاء ، فهو رفيقها ، ولا بطش القدر ، فهو حليفها . وهي ما رافقت الأوّل وحالفت الثاني إلاّ لأنّها أدركت أنّ الاثنين منها وفيها :

« فاقدحي يا شرورْ
حول قلبي الشّرَرْ
واحفري يا منون
حول بيتي الحفرْ
لستُ أخشى العذابْ
لستُ أخشى الضررْ
ورفيقي القضاءْ
وحليفي القدرْ »[1]

وتنتهي النفس التي استنجدتْها في الخلاص من الثورة وأوجاعها إلى التأكيد بأنّ مصدر تلك الثورة هو الاعتقاد بوجود عالـمين لا عالم واحد ، أحدهما « خير » والآخر « شرّ » . وبوجود « ذوات » كثيرة في ذينك العالمين لا « ذات » واحدة . في حين أن العالم واحد وذاته واحدة ، وإن تعدّدت الكائنات التي يحتويها ، وتنوّعت أشكالها ووظائفها . فهي منه بمثابة

١ « الطمأنينة » – المرجع ذاته . ص ٧٣ – ٧٤ .

الأعضاء في الجسد الواحد .

ويعجبني ما تؤكّده لي نفسي ، وأوافقها عليه . ولكنني ، عندما أحاول التعبير عن « وحدة الوجود » يتهيّأ لي أن أجعل الكلام على لسان غراب بدلاً من لساني . وأختار الغراب لأنّه ، في اعتقاد العرب ، طائر مشؤوم . فلونه لون الحداد . وتنعابه ينذر بالبين . وهو الذي خان سيدنا نوحاً — عليه السلام — يوم أطلقه من الفلك ليعود بخبر عن الطوفان فلم يرجع . وهو الذي حاول تقليد الحجل في مشيته ، فلم يحسن التقليد ونسي مشيته .

وأخلق الظروف المؤاتية لغراب دعوته « فيلسوف الغربان » ، فأجعله يخطب في جمع غفير من بني جنسه ، وقد اتخذ من جثتي منبراً . وإليك بعض ما يقوله :

« هوذا الإنسان !

هوذا الكون الذي تلتقي فيه سائر الأكوان .

هوذا الجبّار الذي يتعثّر بخيال جبروته ، والملك الذي يذعره اتّساع ملكوته .

هوذا الضرير الحامل النور في يمناه . والمبصر الحامل الظلمة في يسراه .

هوذا المغفل الذي يهرب من نفسه إلى رمسه ، ثمّ يبحث في رمسه عن نفسه.

هوذا الإله المنقسم على ذاته والضائع بين ما خلقه من الآلهة .

هوذا قطب الآزال والآباد الذي جعل لآزاله بداية ، ولآباده نهاية .

هوذا القائل « أنا » و « العالم » .

ويمضي الغراب الفيلسوف يشرح لسامعيه كيف أن الإنسان جنى على نفسه عندما فصل ذاته عن ذات العالم . وبذلك « خلق من نفسه ضدّاً لنفسه . وإذ خلق ضدّاً لنفسه خلق ضدّاً لكلّ شيء . وأصبح ينظر إلى كلّ شيء بعينين : عين يرى بها « أنا » ، وأخرى يرى بها « غير أنا » . . .

وهكذا جزّأ الإنسان نفسه التي لا تتجزّأ ، وبعثرها في كلّ أنحاء الكون .

وهكذا يسير هذا الإنسان المبصر – الأعمى متلمساً سبيله في الكون ، وملتقطاً عن جوانب السبيل ذرات نفسه المبعثرة . غير أنّه لا يلتقط ذرة من « أنا » إلاّ التقط معها ذرة من شطرها الثاني الذي يدعوه « العالم » أو « غير أنا » . وكلّما التقط ذرة قال في نفسه : سأحتفظ بما في هذه الذرة من « أنا » وأطرح ما « ليس أنا » . وإذ يحاول ذلك يجد أنّه قد طرح « أنا » مع ما « ليس أنا » . لأن الاثنين لا يفترقان . فيتألم ويعود يلتقط ذراته من جديد .

هكذا يلتقط الإنسان العافية ومعها المرض
والحبّ ومعه البغض
والإيمان ومعه الإلحاد . . .
والحياة ومعها الموت . . . » الخ

ويختم الغراب عظته بالوصية التالية يوجّهها إلى الغربان :

« لذلك أقول لكم أيّها الغربان إنّكم إذا سمعتم إنساناً يقول « أنا » وعرفتم أنّه يعني بذلك نفسه دون العالم ، فافقأوا عينيه لعلّه يبصر عالـماً واحداً حيث يبصر الآن عالمين .

أمّا إذا سمعتم إنساناً يقول « أنا » وعرفتم أنّه يعني نفسه والغراب كذلك ، وكلّ ما في العالم الذي لا بداية له ولا نهاية ، فخرّوا أمامه ساجدين .

ذلك الإنسان – إله ! »[1]

---

١ « عظة الغراب » في « المراحل » للمؤلف .

خطة تفشل

مرّ على تأسيس « الرابطة القلميّة » عام وبعض العام وجريدة « السائح » التي اتخذتها منبراً لأقلامها تتأرجح بين الحياة والموت . فلا يدري عبد المسيح من أين يأتي بالمال ليكفل لها حياة لا يترصّدها الموت في كلّ يوم ، وليكفل بحياتها مستقبله ، وعلى الأخص من بعد أن عقد نيّته على الزواج . لذلك راح يفكّر جديّاً بالعودة إلى سوريا لعلّه يوفّق إلى تأسيس « السائح » في دمشق . فالبلاد على عتبة تطوّرات كبيرة . والصحافة ستلعب دوراً في تلك التطوّرات . وما من شكّ في أن « السائح » سيكون لها شأن في بلد عربي ناهض غير الذي لها في نيويورك .

إلاّ أنّ الفكرة أقلقت جبران وأقلقتني . فماذا يحلّ بالحركة الأدبيّة الصاعدة إذا هي فقدت « السائح » وصاحبها ؟ لقد كان عبد المسيح همزة الوصل بين أعضاء « الرابطة » ، وكانت إدارة « السائح » نقطة تلاقيهم وتلاقح أفكارهم . وليس في نيويورك صحيفة أو صحافي يستطيعان أن يقوما عندهم مقام « السائح » وصاحبها .

ذات يوم من أيّام آب ١٩٢١ دعتني وعبد المسيح لزيارتها في مصيفها السيّدة ماري عيسى الخوري ، وهذه السيّدة ، وإن لم تكن أديبة ، كانت تتذوّق الأدب وتعطف على الأدباء . ولأنّ زوجها المتوفّى كان يحرّر في جريدة عربيّة ، فقد كانت على اتصال بالأدباء الناشئين أمثال الريحاني وجبران . ومن بعد تأسيس الرابطة كانت من أنصارها والمعجبين بها . ولكم سهرتُ وجبران في بيتها السهرات الطوال . ولكم أنجدت « السائح » بالمال في أوقات

ضيقه . وذلك كان ميسوراً لها لأنّها كانت على شيء من السعة المادية . فالعمل الذي كانت تتعاطاه كان صياغة المجوهرات وبيعها بأثمان تدرّ أرباحاً لا يُستهان بها .

في ذلك اليوم كان من الطبيعي أن يتدرّج الحديث إلى « السائح » وما يمكن عمله في سبيله كي لا يضطرّ عبد المسيح إلى نقله من نيويورك إلى دمشق . وكان رأي عبد المسيح أن عشرة آلاف دولار تكفل للجريدة حياتها . وكان رأي السيّدة خوري أن لا تُترك الإدارة لعبد المسيح وحده ، بل أن أكون أنا كذلك شريكاً فيها ، على أن يقدّم كلّ مني ومن عبد المسيح مبلغ ألفي دولار ، وتقدّم هي ثلاثة آلاف ، وجبران ثلاثة آلاف بمثابة قرض . وقد أصرّت على أن يكون لجبران نصيب في هذا المشروع ، لأنّه ، حسب قولها ، ينبغي أن يهمّ جبران أكثر ممّا يهمّها . ولأن جبران كان يومئذ في بوسطن فقد كلّفني عبد المسيح أن أكتب إليه في الموضوع . فكان أن وجّهت إليه في التاسع من آب سنة ١٩٢١ الرسالة التالية :

« عزيزي جبرون [١]

وألف سلام على روحك الطيبة . وبعد يا أخي فقد جرحي قولك إن طبيبك قد حكم عليك بالصمت لمدّة طويلة . لأنّني أعرف العواصف الثائرة أبداً في روحك ، والعواطف الجائشة في صدرك ، والأشباح المتهادية أمام عينيك . وكلّها يطلب منفذاً كالمياه الراكضة تحت سطح الأرض . فلماذا لا يحكم الطبّ بالصمت على ألسنة تقلق الأرض والسماء ، وتفسد علينا الهواء ، وتعكّر أحلامنا ، وتسوّد أيّامنا ؟ غير أنّي أجد تعزية في اعتقادي أن ما يجري لا يجري إلاّ للخير . فلعلّك في انقطاعك عن العمل لوقت معلوم تجدّد قوى

١ كنت أدعوه أحياناً « جبرون » ، وأحياناً « جبور » ، وأحياناً جبران .

جسديّة نهكتها بجدّك الروحي . وتستعيد قوى روحيّة أثقلتها بجهدك الجسدي . ثمّ إنّ ما يثور في داخلك الآن سينفجر كالبركان حين ينزع الطب عن قلمك لجامه ، ويطلق لسانك من أسره . فلا تتضجّر . ولا تتذمّر . بل اعمل ما يأمرك به طبيبك . ففي الطبّ أيضاً بعض من الحكمة .

أمّا أنا فما حالي بأحسن من حالك وإن لم أكن أشعر بالحاجة إلى طبيب ، وليس ما يجبرني على التقليل من التدخين وشرب القهوة . إن يكن امتناعك عن العمل هو أقسى عمل لديك يا جبران فإنّ عملي هو جهنّم بعينها . وأنا أعني أعمالي « التجاريّة » . فقد شكوت إليك عذابي الروحي مرّة ، بل مرّات . وأنت تعلم ما أقاسيه مثلما أعلمه أنا . وما عذابي إلاّ لأنّني ، حيث أنا ، « دولاب يدور يمنة بين دواليب تدور إلى اليسار »[1] فلا التجارة من شأني ، ولا الركض وراء الريال من طبعي . ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان . فقد يتكيّف الإنسان أحياناً بالظروف . غير أنّني ولو حاولت أن أتكيّف بظروفي لما قدرت . لأنّني والتجارة كالزيت والماء . وهذا الشعور لاحق بي كيفما انقلبت وأنّى جلست . فهو كالحيّة تقرض أوصال قلبي . وأخشى إذا غضضت عنه الطرف طويلاً أن لا يترك لي قلباً يحسّ ، وعقلاً يفكر ، ولساناً ينطق ، وقلماً يسطّر . لكنّه لن يلاحقني طويلاً بعد إن شاء الله . فقد لاحت لي بارقة أمل جديد — أمل كبير . أمل يلذّ لك ولي . وأحبّ أن أكاشفك به الآن ، وأن أطلب إليك أن تحفظه في سرّك إلى حين لا يبقى أملاً بل حقيقة . فإليكه :

لقد دعاني عبد المسيح أن أكون شريكاً معه في « السائح » . فبعد أن فكّرت في الأمر وجدت أن في ذلك خيراً لي ولعبد المسيح وللرابطة القلميّة ، ولكلّ ما هو قريب من قلوبنا إن كان من أدب ، أو فنّ ، أو نهضة روحيّة جديدة في حياتنا . وقد وجدت أن « السائح » يقوم من هذا القبيل مقام

١ العبارة لجبران في مقاله « العاصفة » .

« الفنون » . لا بل إذا صحّ ما في أفكارنا الآن فستعود « الفنون » إلى الوجود بواسطة « السائح » .

وهاك خطّتنا باختصار :

عبد المسيح يعدل عن سفره إلى سوريا ويقترن بخطيبته في الشهر القادم ، أو الذي يليه ، ليكمّ أفواه الناس ويستريح من قيلهم وقالهم .

عبد المسيح وأنا نقدّم من المال نحو ٤٠٠٠ ريال . نستعين بأصحابنا على ستّة آلاف فوق ذلك ليتيسّر لنا عشرة آلاف ريال .

نقتني مطبعة لنستقلّ بالسائح تمام الاستقلال . فيكون لنا من المطبعة ما يقوم بأكلاف السائح ويدرّ علينا بعض الأرباح من طبع كتب ومطبوعات تجارية وما شاكل .

إنّ عشرة آلاف تأتينا بكلّ ذلك دون تعب كبير . وتكفل للجريدة مستقبلاً باهراً . فالسائح ، كما لا يخفاك ، قائم في هذه الأيّام بنفسه . أعني بكلّ نفقاته ونفقات صاحبه وكاتب معه . فدخولي عليه لا يزيد في مصاريفه إلاّ شيئاً قليلاً . لكنّ هذه الزيادة نعوّض عنها في قليل من الوقت بما سنبديه من الجهد في تكثير مشتركي الجريدة ونشرها . وهل عندك من شكّ بأنّنا نقدر على ذلك ؟ أمّا أنا فواثق من أنّه لا يمضي علينا عام واحد حتّى نضاعف عدد المشتركين . وفي خلال ذاك الوقت تكون المطبعة قد أصبحت سنداً لنا كبيراً تدرّ علينا بعض الأرباح ، وتوفّر علينا كثيراً من الأكلاف .

أمّا الحصول على عشرة آلاف ريال فليس بالأمر الصعب لو شئنا أن نقصد بعض تجارنا . . . لكنني آنف أن أستدين بارة واحدة من تاجر لا يفهم من الحياة إلاّ تجارته ، ولا يرى في الدنيا أكبر من رياله . وأفضل أن يكون عملنا كمشروع عائلي نقوم به دون منّة هذا التاجر أو ذاك . وقد شجّعتنا في ذلك ماري الخوري التي دعتني وعبد المسيح نهار الأحد الماضي إلى مصيفها

في « لونغ بيتش » . فقضينا هناك النهار والليل . وعندما كاشفناها الأمر وقلنا لها إن لدينا أربعة آلاف ريال جاهزة ويلزمنا فوقها ستّة آلاف قالت على الفور ، وبالحماسة التي تعهدها فيها ، إنّها مستعدّة أن تدينا نصف القيمة إذا وجدنا من يديننا النصف الآخر . وقد رأت ، مثلما رأينا ، أن لا خير في مخابرة تجارنا في الأمر . بل الأفضل أن نجعل المسألة عائليّة ، وأن نحصرها في دائرتنا الصغيرة .

وقد بان لي أنّها كانت تقدّم القيمة كلّها لولا رغبتها في أن يكون لها شريك في العمل . فلا بدّ أنّها تقول في نفسها إنّنا إذا كنّا ، نحن القائمين بهذا المشروع ونحن الذين ندّعي شغفنا بالأدب وترقية الأدب ، لا نظهر عليه غيرة محسوسة ، فما شأنها هي وليست بالكاتبة ولا الشاعرة ، وإن تكن تتعشّق الأدب والفنّ ؟ لذلك فأوّل ما خطر ببالها وبالنا أنت يا جبران . فأنت الوحيد بيننا من بعدها الذي يملك قليلاً من غبار المال . فهلاّ دبّرت لنا ثلاثة آلاف ريال ولو بأيّة طريقة من الطرق — بالقرد أو بالمقرعة ؟ إن هذا المبلغ سيكون ديناً علينا وستقبض عليه فائدة كما تقبض على أسهمك أو مالك الذي تشغله هنا أو هناك . وإن شئت أن تكون شريكاً فذلك أحبّ إليّ وإلى عبد المسيح . أمّا أن مالك مكفول فيكفيك أن أقول إني أضمنه لك بوقتي وعرق جبيني وما بقي من أيّام حياتي — وبالسائح .

ما قصدتك بعد لغرض كهذا الغرض يا جبران . ولا طلبت إليك أمراً أعزّ لديّ من هذا الأمر . وإن عزّ عليّ أن يكون طلبي متعلّقاً بالمال . لأنّ الحديث في الأمور الماليّة أشقّ عليّ من أيّ أمر سواه . مع ذلك فلا إخالك تردّ طلبي . لا سيّما بعد أن عرفت أهميّة ما يتوقّف عليه . فعليه يتوقف مستقبل السائح ومستقبل الرابطة ومستقبل كل حركتنا الأدبيّة ومستقبل الفنون أيضاً . فإذا لم نحصل منك على هذا القرض لا نحصل على القرض من

ماري . وإذا لم نحصل على القرض من ماري فماذا عسانا نفعل بأربعة آلاف ريال ؟ حينئذٍ أبقى أنا في جحيمي التجاري . ويسافر عبدول إلى سوريا . فيقضي السائح ويندثر كأنه لم يكن .

إنّي أطلب إليك ما أطلبه بكلّ جرأة وقحة لأنّي أعلم أنّك لا ترفض مثل هذا الطلب إلاّ إذا استحال تماماً . وما هو عليك بالمستحيل . وفيك ما يدفعك على تحقيقه أكثر من كلّ ما أقدر أن أقولهُ أنا وأكتبه . إن الأمر ، كما ترى ، منوط بك . فأرجوك رجاء أخويّاً أن تجيبني بكلّ صراحة . وأن لا تخشى من أن تعكّر بجوابك صفاء علاقاتنا ، أو أن تجرح الصداقة التي تربط روحينا .

ولا تنسَ أن تخبرني عن نفسك ــ عن صحتك وساعاتك وأيّامك ولياليك. والله يحرسك ويرعاك .

ميخائيل »

وكان أن اعتذر جبران . وباعتذاره انهار المشروع ، فانهار معه أملي بالتخلّص من ربقة قمصان النوم المطرّزة ، ومن المساعي المرهقة أبذلها هنا وهناك في سبيل تصريفها . ولعلّه كان من الخير لي أن يخفق المشروع . فالمبلغ الذي تعهّدت بتقديمه لم يكن لديّ منه غير ثلاثمائة دولار . أمّا ما تبقّى فقد كنت آمل أن أحصل عليه من شقيقيّ في « والا والا » . وحتى لو تمّ المشروع لكان من المشكوك فيه كثيراً أن يقوم بأودي وأود عبد المسيح المقبل على الزواج ، وأن يتوفّر لي منه ما يكفيني لتعليم أخي نسيب تعليماً ثانويّاً ثمّ جامعيّاً . وكنت قد صمّمت على ذلك حتى ولو كلّفني الكثير من الحرمان . وأخي نسيب كان في ذلك الوقت يدرس في مدرسة داخليّة . وكان من الإثم أن أهمله وهو لا يزال في منتصف الطريق .

واتّفق أن عبد المسيح عاد فعدل عن السفر إلى سوريا ، وآثر أن يتزوّج ويثابر على عمله في « السائح » قريباً من رفاق كان يشقّ عليه كثيراً أن يبتعد عنهم ، ويشقّ عليهم أن يفتقدوا فيه الحلقة الذهبيّة التي كانت تنتظم عقدهم ، والبوق الذي كان يذيع صرير أقلامهم .

من حياة الجالية

عندما قدمت إلى نيويورك سنة ١٩١٦ كانت حياة الجالية العمليّة محصورة ضمن حيّز ضيّق ، مهمل ، في أسفل جزيرة « مَنْهاتَن » . هناك — في الشوارع « واشنطن » و « ركتر » و « وست » — كانت متاجرها ومصانعها وإدارات صحفها . والكبيز الكبير من رجال الأعمال فيها لم تكن ثروته تتعدّى ربع المليون من الدولارات . ولكنّها ، بعد الحرب بسنوات قليلة ، أخذت تنتقل بمصانعها ومتاجرها إلى قلب المدينة . فانتشرت على أشهر جادة هي « الآفينيو الخامس » وفي الشوارع التي عن جانبيها ما بين الشارع العشرين والأربعين . وما لبثت أن قام فيها أكثر من مليونير .

وهذه السعة المادية جلبت معها سعة في الحياة الاجتماعية . فكثرت الحفلات لمناسبات وجيهة وغير وجيهة . وكثرت الدعوات للرابطة القلميّة . إذ أن القوم باتوا يشعرون بقيمة الرابطة وأهميتها ويتنافسون في دعوتها إلى حفلاتهم ليضفوا عليها صبغة من الأدب الصحيح . فمنهم من كان يتّخذ من تنصير طفله ، أو سفر صديق من أصدقائه إلى الخارج ، أو نحو ذلك ، ذريعة لإقامة حفلة يدعونا إليها . ومنهم مَن كان يقيم لنا حفلات طرب لا أكثر .

وإنّي لأذكر حفلة من النوع الأخير دعانا إليها أحد التجار وكان فيها المغنون والعازفون على العود والقانون والكمان ؛ مثلما كانت فيها المأكولات الشهيّة والمشروبات السخيّة. وأذكر أنّي كنت الوحيد بين رفاقي الذي لم تأخذه نشوة من الصوت ، أو من الوتر ، أو من الوسكي . فكأنّني كنت في غير دنياهم ، وكأنّهم كانوا في غير دنياي . والدنيا التي كنت فيها لم يكن في

مستطاعي وصفها . فما دريت إلاّ وفي رأسي تتكوّن أبيات وصور أوّلها :

« يا ساقيَ الجلاّس ، باللهِ لا
تحفل بكأسي بين هذي الكؤوس .
أترع لغيري الكأس . أمّا أنا
فاحسبْ كأنّي لست بين الجلوس .
واعبر ! ودعني فارغ الكاسِ »

في اليوم التالي اكتملت لي قصيدة « لو تدرك الأشواك سرّ الزهور »[1] وعندما قرأتها لجبران قال : أقسم يا ميشا أنّني قرأتها البارحة في وجهك . إنّك لم تكن معنا إلاّ بجسدك .

في شهر آذار من العام ١٩٢٣ أخذت تسري في الجالية وشوشات عن أنصار جريدة « الهدى » لنعوم مكرزل يعتزمون الاحتفال بيوبيلها الفضي في الثالث من نيسان من ذلك العام . وكان حريّاً بالجالية أن تبتهج بالخبر ، وأن تتحمّس للاحتفال بمرور ربع قرن على تأسيس أكبر صحيفة من صحفها . فقد ابتدأت « الهدى » نشرةً أسبوعيّة حقيرة في مدينة فيلادلفيا ، ثمّ لم تلبث أن انتقلت إلى نيويورك حيث باتت لها دارها ومطابعها ، وباتت تصدر يوميّاً في ثماني صفحات من القطع الكبير . وما من شكّ في أنّ الموارنة من المهاجرين كانوا يتّخذونها هادياً لهم في تفكيرهم السياسي ، وفي تحديد مواقفهم من قضايا الساعة . فالذي تتبنّاه « الهدى » هو الحقّ كلّ الحقّ . والذي ترفضه هو الباطل كلّ الباطل .

إلاّ أنّ الجالية انقسمت في موقفها من الاحتفال باليوبيل . ففي حين كان البعض مندفعاً في تأييده إلى أقصى حدود الاندفاع ، كان البعض الآخر

---

١ في « همس الجفون » .

مندفعاً في معارضته إلى أقصى حدود المعارضة . ذلك لأن صاحب « الهدى » إلى جانب ما يملك من الذكاء وحبّ الزعامة ، كان ذا طبع حادّ ، وقلم عنيف لا يترفّع ، في بعض المواقف ، حتى عن البذاءة . وقلّما نجا من قلمه ولسانه إنسان له شأنه في الجالية ، أو زائر قادم إليها لغاية من الغايات . فقد كانت له « مواقع » حتى مع شقيقه سلّوم . ومواقع أشدّ هولاً مع أمين الريحاني ، شقيق زوجته الأولى ، ومع جريدة « مرآة الغرب » و « السائح » و « الفتاة » . وخصامه مع الجريدتين الأخيرتين بلغ المحاكم .

أمّا عقيدة صاحب « الهدى » السياسيّة فقد لخّصها هو بلسانه في حفلة أقامتها له الجالية اللبنانيّة في عاصمة المكسيك سنة ١٩٢٢ . وإليك فقرة مما قاله :

« اللبنانيون ، ومحيطهم ما هو ، عاجزون عن حكم ذواتهم بذواتهم دون رعاية أو دون حماية دولة أجنبيّة جبّارة بإنسانيتها قهّارة بمدنيّتها تعتزّ بعهودها قبل جنودها وتسير بالأمّة التي تلوذ بها إلى مراتع الرقيّ ومناكب المجد وذرى السعادة . وتلك الدولة هي الدولة الفرنساويّة حافظة لنفسها ولنا التقاليد التاريخيّة في قلبها الأبيض الذي غرسنا فيه الأرزة حماية للبنان من شاطئه الناعم إلى رأسه الثاغم[١] »

وممّا يُروى عن تحرّش صاحب « الهدى » بالناس أن أميراً من الأمراء الأرسلانيّين قدم نيويورك زائراً . فقال له أحد الظرفاء : « احترس من أن تثير « الهدى » بحركة أو بكلمة فيكون لك نصيب من قواذعها . » فقال الأرسلاني : « وماذا عساني أقول أو أفعل ممّا قد يثير « الهدى » وما أنا غير عابر سبيل ولا شأن لي في حياة الجالية ؟ » فأجابه الرجل : « مَن يدري ؟ فقد تعطس يا سيدي . » وكان أن صدرت « الهدى » بعد ذلك بقليل وفيها تعرّض سافر للزائر الجديد . فقال الرجل الظريف : « لقد عطس الأمير . »

١ الشواعر الشريفة — مطبعة الهدى بنيويورك — ص = ب = في آخر الكتاب .

وعندما التقاه الأمير ربّت كتفه وقال ضاحكاً : « الحقّ معك . يبدو أنّني عطست » .

هذا قليل من كثير ممّا كنت أسمعه عن الرجل من أفواه بعض الرفاق في « الرابطة » الذين عرفوه وخبروا أطواره . أمّا أنا فالمعرفة التي كانت بيني وبينه لم تتعدّ تبادل التحيّة في المناسبات النادرة التي جمعتني به . لذلك كان موقفي من اليوبيل موقف الذي لا ناقة له فيه ولا جمل . فمن حقّ المعجبين بـ « الهدى » أن يحتفلوا به . وليس من حقّهم عليّ أن أشاطرهم إعجابهم ، أو أن أكلّف لساني النطق بما ليس في قلبي ووجداني .

إلاّ أنّ صاحب اليوبيل أصرّ على دعوة « الرابطة القلميّة » وأفهم القائمين بالحفلة أنّه ، إذا رفضت الرابطة الدعوة ، فهو يؤثر أن لا يُقام أيّ يوبيل . ودعوة الرابطة كانت تعني الخطابة تُفرض على نفر من أعضائها فرضاً . لذلك كثر الأخذ والردّ بينهم . فمن قائل بالتساهل والقبول . ومن قائل بالصلابة والرفض . وكثر اللغط في الجالية . حتّى إنّها باتت أيّاماً ولا حديث عندها أشهى من حديث اليوبيل .

كنت من المتصلّبين في البداية . ولكنّ رشيد أيّوب تغلّب على تصلّبي في النهاية عندما طلب إليّ أن أبدّل موقفي إكراماً له . فقد كان يعمل في إحدى شركات ضمان الحياة . وكان له بين أنصار « الهدى » بعض الزبائن . فهو لا يريد أن يغيظهم ؛ ويأمل ، إذا هو سايرهم ، أن يحظى بزبائن أكثر ممّن يلوذون بهم . إنّه باب رزق يخشى رشيد أن يُسَدّ في وجهه . ورزق رشيد كان شحيحاً . فهل يطاوعني قلبي على جعله أشحّ ممّا هو ؟ لا . لا . . .

وكانت حفلة اليوبيل في أكبر فندق من فنادق بروكلن . وقد حضرها نحو ٣٠٠ ضيف ، بعضهم جاء من ولايات بعيدة ، وبعضهم من كندا ، وبعضهم من المكسيك . وقد دامت الحفلة من الثامنة مساء حتّى الثانية بعد نصف

الليل . وخطب فيها عشرون خطيباً — لا أكثر ! . . ولك أن تتخيّل « الدرر » التي نثروها ونظموها .

كنت في جملة الخطباء . فألقيت كلمة جعلت عنوانها « الناس بالنيات » ومما قلته فيها ، من بعد أن سخرت بالضجة التي أثارتها الحفلة :

« إن مثل هذا الاجتماع ، حيثما حصل ومن أيّما شعب تألّف ، لا يخلو من كثير من التكلّف والمجاملة في الكلام . وأنا أفضّل أن يقطع لساني ألف قطعة قبل أن أكلّفه مرّة قول ما لا يراه الفكر ولا يشعر به القلب .

« ما جئتُ الليلة لأبيّض صحيفة أحد ، أو لأكفّر عن آثام أحد ، إذ لو كان من الكلام وحده مُبيّض للصحائف وكفّارة عن الذنوب لجعلت صحيفتي أبداً بيضاء ، ولمحوتُ كلّ آثامي من سجلّ الدينونة . وعندي أن ما نصرفه من الكلام في مدح الناس أو ذمّهم ليس إلاّ كتابة على الماء أو نفخة في الهواء . وما نصدره من الأحكام على الناس أو لهم ليس في الغالب سوى فقفقة تثيرها أهواؤنا الشخصيّة ، وعناصرنا الفرديّة . فأحكامنا مبتورة ، مرروبة لأن مصدرها فكر مبتور ، مرروب ، قاصر عن الإلمام بأوليات الأسباب ونتائجها . وعلاوة على ذلك فأحكامنا هي صورة لما نحبّ ونكره لأنفسنا . وما نحبّ ونكره مقيّد بغاياتنا ومصالحنا ومطامحنا .

« نحن لا نرى من الأعمال إلاّ ظواهرها . أمّا النيّات التي من وراء الأعمال فلا سبيل لنا إلى سبرها . لكنّ في الكون حَكَماً عدلاً مجرّداً عن الغايات والأهواء ، والمصالح والمطامح . له عين ترى بلحظة أسباب الأمور ومجموع نتائجها ، وتسبر أعماق النيات . فلنترك له الحكم في الناس ومآتي الناس . فحكمه لا يقبل ردّاً ولا إحالة ، ولا يأبه بأحكامنا وآرائنا. وهو الحكم الأخير في كلّ شيء . . . »

مرّ على تلك الحفلة أربع سنوات . وشاعت جمعيّة كانت تدعى « الجمعية

التهذيبيّة » تكريم مربّيَيْن بارزين في لبنان تكريماً غيابيّاً . والمربّيان هما المعلّم جبر ضومط والمعلّم عبد الله البستاني . ودعتني الجمعيّة للكلام في حفلتها فقبلت على أن توافيني ببعض المعلومات عن عبد الله البستاني الذي ما كنت أعرف عنه أكثر من أنّه واضع قاموس « البستان » . ولكنّها لم تفعل . فعدت واعتذرت عن الكلام .

وهذا الاعتذار الذي بدر مني عن نيّة سليمة ، صافية ، لم يلبث أن بلغ مسامع « الهدى » . وإذا بها تشنّ عليّ حملة شعواء ، وتتهمني بالكبرياء . فانبرت لها « السائح » تدافع عني ، وتكيل لها الكيل كيلين . وكانت رئاسة تحريرها وقتئذ منوطة بنسيب عريضه . وطال الهجوم والهجوم المعاكس من الجانبين وأنا لا أقرأ ما تكتبه « الهدى » ، وإنّما أستنتجه استنتاجاً من ردود نسيب في « السائح » .

لم يزعجني أن تتحامل عليّ « الهدى » . وأزعجني أن أغدو موضوعاً لمهاترة صحفيّة لا مبرّر لها على الإطلاق إلاّ حبّ التحرّش والمهاترة من جانب « الهدى » . لذلك بعثت إلى نسيب بالرسالة التالية ، وقد نشرها في عدد ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ من « السائح » :

« عزيزي نسيب

قرأت ما سطّرته يراعتك الرشيقة ، التقيّة ، ردّاً على اختلاقات وتهجمات « رصيفة » من رصيفاتك . فرأيت فيه برهاناً جديداً على نبل روحك ، وطيب عنصرك ، وجمال إخلاصك لنفسك ولأصدقائك . ولا أظنّني ، أو أحداً ممّن عرفوك وترنّحوا بخمرة روحك الشعريّة ، في حاجة إلى مثل ذلك البرهان .

غير أنّي وكلّ إخوانك في « الرابطة » ومحبّيك في العالم العربي نضنّ بعبقريّتك تخوض ميداناً ليس من ميادينها — ميدان « دون كيخوتي وسانكو

بانزا » — وتنازل فرسان المطاحن الهوائيّة ، والجحافل الوهميّة .

إنّ بيتاً من الشعر تستقطره روحك من ندى الحياة الكبرى لأثمن عندي من خطاب ، وإن جمُل،توجّهه إلى « رصيفة » لا تسمعك . وإن سمعتك لا تفهمك . لأنّك في واد وهي في واد .

فها أنا أتوسّل إليك بلساني ولسان كلّ محبّيك أن تكفي نفسك مؤونة « الدفاع » عن « قضيّة » لا أصل لها ولا فصل . وأمام قاضٍ لو جلس يحاكم نفسه بدلاً من أن يحاكم الناس لكان له ما يلهيه طيلة حياته هذه وحياته الآتية (؟) . وإن لم يكن له بدّ من قذف حممه ونقمه على الغير فها أنا أقدّم نفسي هدفاً له من الآن وحتى يحول بيننا البين . فليقل فيّ كلّ كلمة عوراء أو قوراء . فمدحه وقدحه عندي سيّان — هباء ، لا شيء . ولعلّه إذ ذاك يكفّ شرّه عن الموتى والأرامل والتجّار وكلّ أصناف البشر الذين تجرحهم شتيمته ، ويؤلمهم سبابه . أمّا أنا فإن لم أكتسب من حياتي غير مقدرة الترفّع عن الشتيمة والنميمة ، والسفاهة والسباب ، مع الإشفاق على القلوب المنغمسة فيها ، والأفواه الناطقة بها ، لكفاني .

إنّ ما يحزنني في كلّ هذه « القضيّة » يا أخي ليس ما قالته « رصيفتك » فيّ . ولا غمزاتها في « السائح » والرابطة القلميّة . فنحن أبعد من مرمى سهامها ، وأوسع من دائرة « خواطرها » . ويحزنني أنّها اتخذتني واسطة للإساءة إلى رجال أفاضل لا أتمنّى لهم إلاّ الخير . فقد نسبت إليّ قولاً من شأنه أن يجرح أناساً لو عرفوني لعرفوا أن لا صحة له على الإطلاق . لكنهم لا يعرفونني . وقد يصدّقون ما يقرأون أو يسمعون . وذلك أنّها فسّرت انسحابي من بين خطباء الحفلة التكريميّة التي أقامتها الجمعيّة التهذيبيّة للأستاذين ضومط وبستاني تفسيراً يُشتمّ منه أنّني أتكبّر على الجمعيّة التهذيبيّة ، وأحتقر جبر ضومط وعبد الله البستاني . وليس أبعد من ذلك عن الحقيقة .

بين أعضاء الجمعيّة التهذيبيّة أصدقاء لي أبادلهم الوفاء والاعتبار . ولجبر ضومط عندي منزلة رفيعة . فقد تعارفنا بالمكاتبة ، وتبادلنا الأفكار والمؤلفات . فأحببت روحه التي لا تزال فتيّة في جسم ليس بعدُ فتيّاً . وما ذُكر اسمه في حضوري إلاّ قلت فيه كلّ كلمة عيناء . أمّا الأستاذ عبد الله البستاني فمن سوء حظّي أنّني لا أعرفه ، ولا قرأت شيئاً من كتاباته ومؤلّفاته . وليس في ذلك ما يحطّ من كرامته عند نفسه وعند عارفيه .

إنّ قبولي بسرور لدعوة الجمعيّة التهذيبيّة في بادىء الأمر لبرهان قاطع لمن يطلب البرهان على اعتباري للجمعيّة وللأستاذين اللذين شاءت تكريمهما . ولو أردت أن أزدري بها وبهما لما وجدت إلى ذلك سبيلاً أقرب وأفعل من رفض الدعوة حالما بلّغتها .

أمّا سبب انسحابي من الحفلة والخطابة فيها بعد أن كنت قبلت الدعوة فأمر بيّنته في حينه للّذين تلطّفوا وبلّغوني الدعوة . ففهموه وقبلوه بكلّ لطف وإخلاص لأنّهم يعرفون معنى اللطف والإخلاص . وذلك حدّ ما حسبته وأحسبه واجباً عليّ .

هذا، ولا تنسَ يا نسيب أن داء القيل والقال داء لا دواء له . فدع المصابين به وشأنهم لأنّك لا تشفيهم وإن سقيت قلمك من كوثر الآلهة . فما أصغرنا نلهو بقطرات من الماء الآسن في أثر ظلف عنزة على الطريق ، ومن حولنا البحر الذي لا يُحدّ ! »

كثيرة هي « الزوابع في الفنجان » التي كانت تثيرها الصحافة ، وغير الصحافة ، في حياة الجالية من حين إلى حين . منها أن جريدة كانت تدعى « الشعب » أخذت تهاجم الرابطة لغير ما سبب يعرفه أيّ منّا . وقد صبّت نقمتها في البداية على جبران – وعلى قصيدته « المواكب » بالأخص . وظنّ صاحبها أنّه إذا ما فضح كلّ ما في القصيدة من أخطاء نحويّة وعروضيّة فقد

حطّمها وحطّم معها جبران تحطيماً لا قيام بعده . ويبدو أنّه نقم على الرابطة لأنّها « احتكرت » الأدب . فلم تقبله عضواً فيها ، ولم تعترف به شاعراً « لا يُشق له غبار » . وزاده حنقاً على الرابطة أنّها لم تبدِ أقلّ اكتراث به وبتهجّماته . إلاّ أن جبران – وكان يؤلمه النقد من أيّما مصدر جاء – امتعض أشدّ الامتعاض لحملة الرجل عليه . حتى إنّه بات يتمنّى لو يلقاه « ليبصق في وجهه ، ويفكّ رقبته . لأنّ كلباً مثله لا يستأهل إلاّ العصا »[1] .

ولكنّ تلك « الزوابع » – مهما بدت عنيفة في بدء هبوبها – سرعان ما كانت تتلاشى ، ومعها تتلاشى آثارها . فكأنّ المشاحنات الكلاميّة كانت ضرباً من الرياضة والتفريج عن النفس .

---

١ انظر كتابي « جبران خليل جبران – حياته . موته . أدبه . فنه » . طبعة ثالثة – ص ٢٠٢ .

في الريف

قالت لي « بيلاّ » عصر نهار من ربيع ١٩٢٣ إذ كنت وإيّاها جالسَين في غابة صغيرة على ضفة الهدسن :

– أتدري ماذا يدور في خاطري ؟

– هاتي .

– بيت في الريف .

– حلم جميل .

– لا تضحك . أراني ، من بعد أن عرفتك ، أتحسّس الطبيعة فوق ما كنت أتحسّسها بكثير : الشجر ، التراب ، العشب ، الندى ، العصافير ، الفراش ، السحاب ، النسيم ، المطر ، الثلج ، وغيرها وغيرها – كلّ هذه باتت ذات قيمة في حياتي لم تكن لها من قبل .

– بشارة حلوة .

– لا تهزأ بي . أصبحت أكره ، مثلما تكره ، صخب نيويورك وضوضاءها وفجورها . وكنت أحسب أنّ العيش لا يمكن أن يكون على أتمّه إلاّ فيها .

– بشارة أحلى وأحلى .

– أريد أن أنعم بك وبحبّك في غير هذا الجوّ ؛ في جوّ يتناسب وصفاء روحك .

– صفاء روحي ؟ ! وماذا تبقّى منه ؟

– لا تذكّرني بما أنا فيه . أحبّ أن أنسى أنّني متزوّجة ، وأن زوجي

من الخشونة والفظاظة والغباوة حيث هو . وما ذنبي وقد اختاروه لي ولم أختره ؟ والرجل الذي اخترته هو أنت . أنت وحدك اختارك قلبي ، واختارتك عيني وكلّ قطرة من دمي ، وكلّ جارحة من جوارحي . وأنا لم أعرف طعم الحياة قبل أن عرفتك . . .

ــ ولكن للتقاليد سلطانها يا « بيلا » وسلطانها لا يرحم .

ــ لا كانت التقاليد أصناماً ندفع عنّا سخطها بدماء قلوبنا . إنّي أريد أن أحيا . ولتمت التقاليد .

ــ وما قولك بالذين حياتهم مرتبطة بالتقاليد إلى حدّ أنّهم إذا ماتت التقاليد ماتوا بموتها ؟ ما قولك برجل كهاري لا يستطيع أن يعيش إلاّ ضمن التقاليد وبها؟

واكفهرّ وجه « بيلاّ » عند ذكر « هاري » ، وارتجفت شفتاها ، وغامت عيناها ، وانعقد لسانها . إلى ذلك الحدّ كان خوفها من الرجل يسيطر على أفكارها وأعصابها . ومضت دقائق وهي لا تتكلّم ، وأصابعها تفرك زاوية منديل صغير في يدها . أمّا أنا فكانت عيناي ترافقان سرباً من زُمّج الماء يعلو ويهبط فوق الهدسن ، وكانت أفكاري تدور في حلقة مفرغة . وإذا انتهت إلى شيء فإلى أن هذه العلاقة بيني وبين « بيلاّ » لن تدوم لأنّها تمسّ إنساناً ثالثاً لا يستطيع أن ينظر إليها إلاّ بمنظار التقاليد . ومنظار التقاليد كان من شأنه أن يظهرها علاقة أثيمة تسلبه حقوقاً مشروعة ، وبذلك تسبّب له آلاماً نفسانيّة. أمّا أنّ تلك « الحقوق » كانت جوفاء ، جرباء ، عمياء ، وليس فيها غير السمّ لروحه ، فأمر لم يكن يقلقه على الإطلاق .

كنت أرقب الطيور البيض فوق الهدسن وفكري يحاول عبثاً أن يجيب على سؤال ما انفكّ يعذّبه . والسؤال هو :

« لماذا قُدّر لك يا ميشا أن تحبّ هذه المرأة التي بجانبك من بعد ، لا من قبل ، أن ارتبطتْ حياتها بحياة رجل غيرك ؟ وأنت تؤمن بأنّ « القَدَر »

ليس إلاّ النتيجة الحتميّة لنيّات وأعمال وعلاقات سابقات إن في هذا العمر أو في أعمار عشتها على الأرض قبل اليوم . فأين عرفت « بيلاّ » من قبل ، وكيف ؟ إنّها وُلدت في أميركا من أبوين أميركيين . وأنت وُلدت في لبنان من أبوين لبنانيين . فبأيّ سحر عاد الحبّ فجمع بينك وبينها ؟ وحبك لها ، وحبّها لك – وإن رافقته الشهوة الجسدانيّة – ليبدو لك أرفع من حاجات الجسد بكثير . إنّه يصهرك ويصهرها ، ويصفّيك ويصفّيها ، ولكن ، ما هي الغاية منه ما دام إلى زوال ؟ وهو حتماً إلى الزوال لأنّك لن تطيق طويلاً أن تعيش بحبّ يغذّيك ويسمّم غيرك . ولكي يغذّيك حبّك دون أن يسمّم غيرك عليك أن تتنزّه عن نزوات اللحم والدم . فهل تستطيع ؟

« أجل . يجب أن يكون ذلك في إمكانك . وسيكون . وأن تحيا بحبّ يقتات بغير اللحم والدم ، فلا يموت بموت اللحم والدم ، لخير لك ألف مرّة من أن تفنى في حبّ يفنيه اللحم والدم . . . »

– أراك ابتعدت عني كثيراً . في أيّ دنيا أنت الآن ؟ لا تبتعد عني . لا تتركني حتى دقيقة – حتى لحظة – وحدي . أعطني يدك . وليتسرّب الدفء إلى قلبي من أطراف أناملك . إن قلبي دون حبّك كالسمكة دون الماء .

وشدّت بيلاّ على أناملي جامعة أطرافها معاً ، ثمّ رفعتها إلى شفتيها وقبّلتها قبلة حارّة ، طويلة . وبعد قليل :

– لن تهرب مني . سنمضي إلى الريف . وسنبتاع بيتاً هناك . وسنسكن بعيداً عن الضوضاء . وسنعيش حيث تعيش الأزهار والأشجار والعصافير . قل : آمين !

– آمين . ولكنّ عملي سيكرهني على المجيء إلى نيويورك في كلّ صباح والعودة منها في كلّ مساء .

– لا بأس . فهنالك الآلاف من الذين يفعلون ذلك . ونحن لن نبتعد عن

المدينة أكثر من عشرين إلى ثلاثين ميلاً . والقُطُر موفورة ذهاباً وإياباً .

ـ والمال ؟ من أين تأتين بالمال لشراء بيت ؟

ـ لقد ادّخرت منه نحو ٥٠٠٠ دولار . ندفع هذا المبلغ أوّلاً . وما تبقّى ندفعه أقساطاً قد تكون أقلّ من الأجر الذي ندفعه حيث نحن الآن . ومن الذي يقوم بدفع الأجر الآن ؟ أنت وهاري .

ـ إذا كان في ما أدفعه لك أسبوعيّاً ما يسهّل عليك وعلى هاري اقتناء مسكن في الريف فأنا مستعدّ أن أرفع المبلغ من ستّة دولارات في الأسبوع إلى عشرة .

وأشرقت أسارير « بيلاّ » وأكبّت على أناملي تقبّلها من جديد وهي تردّد :

ـ أيّ نعمة أنت في حياتي ! إنّي لأحسد نفسي عليك .

وكان ما تمنّته « بيلاّ » . فابتاع الزوجان بيتاً جديداً في مدينة ريفيّة صغيرة تبعد عن نيويورك ثلاثين ميلاً . ودفعا من أصل الثمن نصفه ، ووقّعا صكّ رهن بالنصف الباقي ، على أن يسدّداه أقساطاً نصف سنويّة . ولأنّهما كانا يعلمان أنّ لي إلماماً بالشرع فقد اتّكلا عليّ في كلّ ما يتعلّق بعقود الشراء والرهن مخافة أن يلحق بهما أيّ غبن . إلاّ أنّ الحظّ واتاهما . فما لبثت أن توفّيت والدة هاري تاركة له من المال ما يكفي لتسديد الرهن بكامله . وهكذا أصبح البيت ملكهما من بعد انتقالهما إليه بشهور قليلة .

ما كنت أدري فداحة الإرهاق الذي كانت تتحمّله أعصابي ، والكبت الذي كانت تعانيه روحي من مجرّد العيش في نيويورك حتى وجدتني في تلك المدينة الريفيّة الجميلة لا تغرق في بحور من الأجاج والضجيج ، وفي ذلك البيت الجديد لا تضغط عليه البيوت من فوقه ، أو من تحته ، أو عن جانبيه ، فتحجب عنه الشمس والسماء والهواء ، وتجعل منه سرداباً أو مغارة بين آلاف

السراديب والمغاور . فهو يقوم وسط فسحة واسعة من التراب ما لبثنا أن زرعناها عشباً وزهراً ، وعلى جادّة انتصبت عن جانبيها أغراس الحور الفتيّة ، وران عليها هدوء حالم ، مطمئنّ .

هنا ، وعلى بعد عشرات الأمتار لا عشرات الكيلومترات ، كانت البرّيّة . وكان بإمكاني ، كلّما اتّسع لي الوقت ، في النهار أو في الليل ، وفي كلّ فصل من فصول السنة ، أن أعدو مع الجدول العادي ؛ وأن أشدو مع العصفور الشادي ؛ وأن أتبرّك بلمس التراب ما عقّمته الأرجل والدواليب ؛ أو بلمس سنبلة في حقل ما طلّق المحراث ولا طلّقه المحراث ؛ وأن أفتح صدري للنسائم والعواصف ؛ وأن أدرج على الثلج ما شوّهت بياضه المداخن ؛ وأن أكحّل عيني بنور نجم يطلّ على الأفق البعيد ، أو بسحر فجر تنفلق عنه الظلمة ، أو بقطرة طلّ تترجّح على جفن زهرة .

هنا بات في مستطاعي أن أجمع شتات فكري وشتات نفسي . فلا أهرب من شيء . بل أراني في كلّ شيء . حتى المزابل تبدو لي من الحياة والجمال في الصميم . فأهتف من أعماق قلبي عندما أرى الأرض تمتصّ عصيرها :

« لله ما أقدسها وأجلّها وهي تمتصّ تلك السوائل المتسرّبة من المزابل بلون النبيذ ! تمتصها هادئة ، آمنة ، ساكتة . فلا تثمل أو تترنّح . ولا تعربد أو تتبجّح . وفي قلبها الأسود الحنون ربوات من الجذور والبذور تنتعش بعصير المزابل ، وتتململ لتدرج غداً كلّ واحدة في سبيلها لملاقاة الشمس .

« غداً تنبثق تلك البذور زنبقاً وبنفسجاً ووردا . فيشتمّها النّاس ويقولون : ما أطيب ! أو بقولاً طريئة فيأكلها الناس ويقولون : ما أشهى ! أو ثماراً شهيّة فيقطفها الناس ويقولون : ما أحلى وما أجمل !

« غداً تزدان بها موائد الملوك والصعاليك . وتصير لحماً ودماً في جسوم الأغنياء والفقراء . وينسى الملوك والصعاليك ، والأغنياء والفقراء أن هذه

الثمار والبقول من تلك المزابل .

« في الحقول مزابل . وفي البشريّة مزابل . . . في كلّ قرية مزبلة . وفي كلّ مدينة مزابل ينبذها الناس ويبتعدون عنها وهي سماد الحياة في حياتهم . هي منهم وإليهم نظير ما العشبة الصغيرة ، الحقيرة ، من الأرض وإليها .

« يمرّ الناس بقصر من القصور فيهتفون : ما أجمل وما أبهى ! يحيطون صاحب القصر بالإجلال ، فيطأطئون أمامه الرؤوس ، ويعفرون الوجوه ، ويحنون الركب . أمّا الأيدي التي اقتلعت الصخر من صدر الأرض ، ونحتته حجارة مربّعة ، أو مستطيلة ، أو مستديرة ، ورتّبته حجراً فوق حجر —

« والأيدي التي أخذت من الغاب أشجارها ونشرتها أبواباً وشبابيك وسقوفاً —

« والأيدي التي زيّنت السقوف والجدران بالأدهان —

« والأيدي التي نسجت الطنافس ، وسترت عري ساكني القصر بالخزّ والأطالس —

« تلك الأيدي كانت نظيفة وشريفة يوم كانت تشيد من عظام مبعثرة هيكلاً بهجاً . أمّا بعد أن اكتمل الهيكل فقد عادت تلك الأيدي زبالة ، وعاد أصحابها مزابل ، وأُقفلت دونها أبواب القصر الذي بنته أمس . وحُرّم حتّى على خيالها أن يمرّ على الأبواب . . . »[1]

هنا عاودتني ذكريات صباي في سفح صنين . فما إن هبّت أوّل عاصفة ثلجيّة في أوّل شتاء أمضيته في تلك المدينة الصغيرة حتّى وجدتني أطفر من البيت لملاقاة العاصفة وكأنّني ألاقي ربّي ، أو ألاقي روحي ، في كلّ ذرّة من الثلج تحطّ على أهدابي ، أو تقبّل شفتيّ ، أو تصفع أنفي . وتسكرني رقصة العذارى البيض على أكفّ الريح ، والنغمات الصاعدة من تحت قدميّ ،

---

١ انظر مقال « المزابل » في « المراحل » — طبعة ثانية — ص ٩٢ .

ودفقات الهواء المنعش تقتحم صدري وتنفخ رئتي . ويغمرني الشعور بأنّ الأرض بكلّ ما عليها ومن عليها قد انغسلت أوضارها ، وامّحت أوزارها ؛ وبأنّ في مستطاعي — بل من واجبي — أن أجعل الحبّ الذي يدفىء قلبي حبّاً ناصعاً ، طاهراً ، باهراً كهذا البساط الذي تفرشه السماء أمامي ومن حوالي . فلا تهزّني بعد اليوم أيّ شهوة أو نزوة ؛ ولا تعاتبني وسادتي على وجع سبّبته لغيري ؛ ولا تحوم حول نومي الهواجس والوساوس والشبهات .

أجل . هكذا يجب أن يكون . بل هكذا سيكون . وعليّ أن أقنع « بيلاّ » أنّه من الخير لها ولزوجها ولي لو أنا ابتعدت عنهما ، ولو أنّني وإيّاها اكتفينا من زهرة حبّنا بالأريج ، وسمونا به إلى حيث يغدو قوّة مطهّرة في حياتنا ، فلا تطاله الشهوات والنزوات والتقاليد بسوء . ولكنني عندما عدت إلى البيت وأفضيت إلى « بيلا » بما أوحته إليّ تلك العاصفة البيضاء كان جوابها فيضاً من الدموع الحارة الخرساء . والحبّ إذا بكى أنزل حتّى الآلهة عن عروشها . فسكتّ واستسلمت .

إلاّ أنّ ما عجزت عن فعله العاصفة البيضاء في خلال عام فعلته الخمرة في ليلة واحدة . وهي ليلة عاد فيها هاري إلى البيت مخموراً وأخذ يهدّد ويعربد . وكان قد مرّ عليه زمان لم يذق فيه المسكر . وتبيّن لي أنّه قد اتخذ مني ومن تعلّق « بيلاّ » بي ذريعة للعودة إلى السكر . وإذ ذاك فماذا ينبغي لي أن أفعل ؟ وشعور أيّ من الثلاثة يجب عليّ أن أراعي في الدرجة الأولى ؟

وجاءني الجواب في مثل لمحة الطرف . إنّ هاري هو الأضعف فينا ، والأحقّ بالشفقة . وإذا لم يكن بدّ من التضحية فلتكن من جانبي أوّلاً ، ثمّ من جانب « بيلاّ » . ولا مجال للتردّد بعد الآن . لقد بات طريقي واضحاً جدّاً . فلا بدّ من هجر ذلك البيت في تلك المدينة الريفيّة الحلوة . ولا بدّ من العودة إلى نيويورك وضجيجها وجنونها مهما يكن في العودة من مضض

وانزعاج لي ، ومن حرقة وألم لبيلاّ . بذلك تقضي الشهامة والمروءة . وبذلك يقضي الحبّ إذا هو شاء أن يصفو من أكداره .

رزمت حقائبي في تلك الليلة . وفي الصباح عند الوداع ، أدهشتني دمعة هاري واعتذاراته عمّا بدر منه ، ولم تدهشني دموع « بيلاّ » وغصّاتها .

ساعة الكوكو[1]

« . . . لكن يسوءني أن أطلعك على ما أنا عازم عليه لأنّه . لا شكّ ، سيكدّرك نوعاً ما . . . إنّي أودّ السفر في هذا الخريف إذا أمكن . وإلاّ ففي أوائل الشتاء . لأنّي ، مهما قلّبت أمري . لا أجد مستقبلاً لنفسي من وراء هذه الحياة . . . أمّا سفري فسيكون إلى الديار المكسيكيّة . فعسى أن نلتقي في مستقبل الأيّام . . . »

لقد كان على حقّ أخي نجيب عندما قال إن هذا الخبر الوارد في آخر رسالة طويلة جاءتني منه سيكدّرني . ولعلّه ما كان يسبّب لي من القلق والانزعاج بقدر ما سبّب لو أنّه جاءني في غير الظروف التي كانت تكتنفني . فمنذ عهد قريب كنت قد قمت بأشقّ عمليّة يقوم بها إنسان تجاه نفسه . ذلك أنّي فطمت حبي بيدي . وفطام الحبّ أين من أوجاعه وأهواله فطام الطفل ! صحيح أن « بيلاّ » كانت تهبط نيويورك من حين إلى حين وتصرّ على مقابلتي ؛ وصحيح أنّنا بقينا زماناً نتخاطب بالتلفون أو بالبريد . ولكنّ ذلك التلاقي وذلك التخاطب لم يكونا غير محاولة لتخفيف الفاجعة . فكأنّهما أقراص الحلوى تغري بها الوالدة طفلها لتصرفه عن ثديها . وحسبي من ذلك الفطام أنّه عاد بي إلى قوقعتي التي كنت ألجأ إليها دائماً عند الشدائد . إلاّ أنّها لم تكن في هذه المرّة واسعة ودافئة كما كانت من قبل .

ومنذ عامين والإخوة الثلاثة الذين كنت أعمل في متجرهم يتخبّطون في ضائقة ماليّة خانقة . لقد خانهم عميل وشريك كانوا يصدّرون إليه

---

١ « ساعة الكوكو » في مجموعة « كان ما كان » .

البضائع . فأعلن إفلاسه . وبإفلاسه ضاعت عليهم مبالغ ضخمة . وسدّت المصارف أبوابها في وجوههم . فباتوا وكأنّ الثروة الكبيرة التي كانوا يحسبونها حصنهم الحصين لم تكن سوى بيت من الرمل على شاطىء البحر ، بعثرته العاصفة ثمّ جرفه الموج . وبتّ أوثر لو أقطع صلتي بهم كيما أريحهم من دفع مرتبي الشهري الذي ما زاد يوماً عن ٣٠٠ دولار . إلاّ أنّني ، كلّما لمّحت لهم عن رغبتي ، قابلوني بالرجاء الحار أن أنزعها من فكري . فهم لا يطيقون ، بعد أن عرفوني خمس سنوات ، أن أبتعد عنهم . ووجودي معهم يؤنسهم في محنتهم .

لقد كان لي في تلك المشكلات الثلاث تجابهني دفعة واحدة ما يكفي لتشتيت ذهني . فالقلب المفطوم ما انفكّ يعاتب ويثور من حين إلى حين . وقضيّة تحصيل الرزق ما برحت قضيّة حيويّة ، ملحّة . ولو أنّها انحصرت في رزقي وحدي لهان الأمر إلى حدّ بعيد . أمّا ولا بدّ لي من إمداد أهلي في البيت وأخي نسيب في المدرسة ببعض المال فكلّ مجازفة من هذا القبيل تبدو حماقة وخيانة لواجب أحسبه مقدّساً . بإمكاني أن أبقى حيث أنا ، فأقبض ٣٠٠ دولار في الشهر . ولكن إحساسي يأبَى عليّ أخذ ذلك المبلغ ، وإن يكن تافهاً ، من أولئك الإخوة مهما بلغ تعلّقهم بي . فمركبهم قد صدّعته الأنواء ، وهم لا يعرفون أينجون بشيء منه أم لا ينجون .

على أنّني لم يروّعني فطام قلبي ، ولا تحصيل رزقي إذا أنا تركت عملي ، مثلما روّعني الخبر الذي جاءني من أخي نجيب . فالفطام التدريجي سينتهي إلى فطام أبدي . ذلك ما قضى به وجداني . وهو لخير « بيلاّ » وزوجها ولخيري . وأبواب الرزق لن تنسدّ في وجهي . أمّا هجرة أخي نجيب — إذا هي تمّت — فستعني تهديم بيت عزيز وقلوب عزاز . وأوّلها قلب أخي نفسه . فقد تبيّن لي من رسائله أنّه مولع إلى حدّ العبادة بجباله وطبيعتها الفتّانة ؛

وأنّه لو تغرّب عن أرضه وأهله وجباله لما لقي في غربته ما يعوّضه عنها . ومن ثمّ فهو اليوم رجل متزوّج ، وأب لطفلة لا تزال في المهد . فلمن عساه يترك زوجته وطفلته ؟ لوالديه ؟ لهف قلبي على قلبيهما . لقد تعبا كثيراً . وذاقا من الحرمان ألواناً . ولقد أنجبا خمسة بنين وبنتاً . وقد تقدّمت بهما السنّ . فكيف تكون حالهما ، وماذا يكون شعورهما عندما يلتفتان فلا يجدان أحداً من أولادهما على مرمى البصر أو السمع منهما ؟ فها نحن ثلاثة في المهجر . وإذا صحّ عزم نجيب فسنغدو أربعة . وابنتهما قد تزوّجت . وأصغر أولادهما في مدرسة داخليّة بعيدة عنهما . وأنا أعرف عظيم حنوّهما . وأعرف أن حياتهما وحيدَين وبعيدَين عن أولادهما ستكون أمرّ من الموت عليهما ، حتى ولو كان لي أو لغيري أن يملأ بيتهما ذهباً وألماساً .

لا . لا ! يجب ألاّ يبقى الوالدان يتيمَين ، كسيرَي الجفن والقلب . ولو كان في استطاعتي لطرت إليهما . ولكنني مكره على البقاء حيث أنا ريثما ينهي أخي الأصغر دراسته الثانويّة والجامعيّة . فكلّ اتكاله في ذلك عليّ . وأيّ معنى لحياتي إذا لم يكن لي مَن يتّكل عليّ في حياته ؟ وأيّ قيمة لحياتي إذا هي لم تكن دعامة لحيوات كثيرات ؟

إذن كيف لي أن أقنع أخي نجيب بالعدول عن السفر إلى المكسيك أو أيّ مهجر آخر ، لا غيرةً على والديه فقط ؛ بل شفقة على نفسه من الخيبة التي تنتظره في المهجر حتى ولو أتيح له أن يجمع من الثروة مثل ما كان منها لقارون ؟ إنّه ذو قلب متفتّح . ولكنّه لا خبرة له في شؤون العالم . ولو أنّه كانت له خبرتي لما عنّ له يوماً أن يقايض طهارة تربته ، وصفاء صنّين وجماله ، بكلّ ما في المكسيك من مال . ألعلّه لم يسمع المثل القائل : « فلاّح مكفي – سلطان مخفي » ؟ إنّه ، حيث هو اليوم ، سلطان . لا يأمره آمر ولا يزجره زاجر . وليس من يطالبه بقرش . يتعب ولكنّه يجني من تعبه

العافية . ويستريح فلا تعكّر عليه راحته جلّبة الشهوات المتصارعة في كلّ شبر من كلّ مدينة غربيّة أو شرقيّة . فما أحلى التعب الطاهر ، الشريف يأتيك بالضروري من حاجاتك ، ونفسك مطمئنة ، ورأسك مرفوع ، ولسانك أعزّ من أن يداهن ، أو يخاتل ، وفكرك أنقى من أن يصنع الفخاخ وينثرها في سبيل الغير !

وجاءني عبد المسيح يلحّ في كتابة شيء لعدد « السائح الممتاز » . والكتابة للسائح الممتاز لم يكن منها مفرّ لكلّ عضو منتج من أعضاء الرابطة . إلاّ أنّني وذهني من التشتّت حيث وصفت ، لم أجد في خاطري أيّ موضوع لأيّ مقال أو قصة أو قصيدة . فمضيت أؤجل الكتابة من يوم ليوم إلى أن لم يبقَ لديّ غير يوم واحد . وبغتة لمعت في ذاكرتي صورة ذلك الصبي الذي كنته من زمان وقد وقف مشدوهاً أمام ساعة الكوكو التي جاء بها إلى بسكنتا مهاجر من أنسباء والدتي ، وقد مرّ ذكرها في المرحلة الأولى من هذا الكتاب (ص ٧٣) . وانحلّت العقدة في الحال . فسأكتب قصة تدور حول ساعة الكوكو . وسأتخذ تلك الساعة رمزاً للمدنيّة الحديثة المعقدة ، وللسعادة التي يبحث عنها الناس في قلبها فلا يجدونها ، وعلى الأخص أولئك اللبنانيون من طراز أخي نجيب الذين لو عرفوا قيمة البركات التي ينعمون بها حيث هم لما تخلّوا عنها طمعاً في الحصول على ما هو خير منها في ديار غير ديارهم . ويمضي القلم يصوّر فتى قرويّاً وفتاة قرويّة في ميعة الشباب . وفي بحبوحة من العيش والعافية . وإذ يقترب يوم زفافهما يعود مهاجر إلى القرية وقد جلب معه ساعة كوكو . وتبهر الساعة القرويّين وفي جملتهم الفتاة . فلا يلبث المهاجر العائد ، وهو في الأربعين ، أن يغريها بالسعادة التي تنتظرها في البلاد التي صنعت ساعة الكوكو إذا هي رضيت أن تقترن به وأن تهرب معه إلى أميركا . وتستسلم الفتاة لإغراء الرجل وإغراء ساعة الكوكو فتتخلّى عن

خطيبها وتهرب مع المهاجر العائد إلى الديار التي تنتج العجائب والغرائب .

ويبقى الفتى ملتصقاً بأرضه والنقمة على ساعة الكوكو التي سلبته حبيبته وخطيبته تقرض أوصال قلبه . إلى أن كان يوم خرج فيه لحرث حقله . وعندما ضاق صدره بما يجيش فيه من نقمة توقّف في منتصف الثلمة وراح يخاطب نفسه هكذا :

« حتى متى يا خطار ، حتى متى ؟ لقد دفنت في هذه التربة عشرين من سنيك . فماذا أنبتت لك ؟ ما الفرق بينك وبين هذه الصخور ؟ هي صمّاء ، بكماء . وأنت أصمّ ، أبكم . . . لقد طرحتك زمرّد من وراء ظهرها وآثرت ساعة الكوكو عليك . فبأيّ حقّ تلومها يا خطار ؟ مَن أنت من ساعة الكوكو وما فهمك من فهم مخترعها ، وما بلادك من البلاد التي صنعت أجزاءها وركّبت منها آلة عجيبة غريبة ؟ وما أدراك أن ليس في تلك البلاد ما هو أعجب من ساعة الكوكو بكثير ؟ فما أسعد تلك البلاد وساكنيها ، وما أشقاك في بلادك ! . .

« ماذا الذي يربطك بهذه الصخور والوعور ؟ أم أنت جبان؟ أم أنت ميت ولا تعرف أنّك ميت ؟ عيب عليك يا خطّار أن تغلبك ساعة الكوكو ! »

وينتهي خطار بأن يترك والديه وأرضه ويسافر إلى أميركا . وهناك بعد سنوات من الجد والشقاء ، يجمع ثروة لا بأس بها . فيبتاع ، أوّل ما يبتاع ، ساعة كوكو . ويبني له قصراً فيعلّق الساعة فيه . ويحسب أنّه قد انتقم لنفسه منها . ولكنّه يتزوّج فتاة من بني جنسه مولودة في أميركا . فلا تلبث زوجته أن تنغّص عليه حياته لما بينه وبينها من عظيم التفاوت في النظر إلى الحياة وكيف يجب أن يحياها الناس . فهي سطحية التفكير . وهو يميل إلى الجد في تفكيره . وهي متفلّتة من قيود خلقيّة واجتماعيّة كثيرة . وهو ما برح ، من هذا القبيل ، على فطرته القرويّة . لذلك انتهت بأن هجرته لتعيش مع غيره ، وانتهى بأن

البرج المنحدر من القمّة على الألوف من الدواليب رأى خطّار ساعة هائلة . وفي أعلى الساعة نافذة يخرج منها بين الفترة والفترة طائر ميكانيكي كبير ، ويصرخ بأبناء البرج : كوكو ! كوكو ! فيخرّون على ركبهم ساجدين ، ويتهامسون فيما بينهم قائلين : الساعة الآن كيت وكيت » .

وهكذا هجر خطّار مهجره ، وعاد متنكّراً باسم « مستر طمسن » إلى قريته حيث راح يعاشر أهلها ويشاركهم في أعمالهم كواحد منهم ، ويقوّي من معنويّاتهم ، ويحبّب إليهم بالقول وبالفعل ، الأرض والعمل في الأرض . فيقول لهم في جملة ما يقول :

« إن في التراب لعطراً لا تعرفه حوانيت العطّارين . »

« الأرض هي الفاتحة في مصحف الوجود . مَن قرأها كان في غنى عن كلّ ما احتوته الكتب . »

« السعيد من سعد حيث هو . والتاعس من راح يبحث عن سعادته في مكان آخر . »

« من الأرض لباسك . ومن الأرض غذاؤك . ومن الأرض مأواك . نما أجهلك تحتال على لباسك وغذائك ومأواك من غير أن تلمس الأرض . »

« لا بدّ للإنسان في تحصيل رزقه من شريك . فطوبَى لمن اتخذ الأرض شريكه لأنّه ينام ملء أجفانه . »

« إذا دفنت في الأرض حبّة فأعطتك عشر حبّات فأين هو الرجل الذي يجسر أن يدلّ عليك بإصبعه قائلاً : هوذا سارق ؟ أمّا إذا أنفقت فلساً فعاد إليك فلسين فكثيرة هي الأصابع التي تشير إليك ، وإن لم ترها . وكثيرة هي الألسنة التي تقول : هوذا سارق ، وإن لم تسمعها . غير أنّ الحياة ترى تلك الأصابع ، وتسمع تلك الألسنة . والحياة تذكر ما ترى ، وتحفظ ما تسمع . »

« الأرض لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة ، والقمحة والزؤانة .

راح يخاطب نفسه فيقول :

« ويحك يا خطّار ! ما الذي فعلته بنفسك ؟ . . لقد كنت رجلاً بين الرجال . لك زند قويّ ، مفتول ، وصدر عريض ، مكين ، وقلب شجاع ، سليم . وكنت سيداً في بيتك ، وفي حقلك ، وفي كرمك . وكنت محبوباً من والديك ، ومكرّماً من أهل قريتك . أمّا اليوم فمن أنت ؟ سجين معلّق بدواليب مركبة لا تهدأ طرفة عين . إنّها تكرّ وتكرّ وتكرّ . والله يدري إلى أين . إذا أنت قطعت رباطك منها وقعت مهشماً على الطريق . وإذا بقيت معلّقاً بها رأيت روحك بعينيك تتسلّل منك وتنسحق رويداً رويداً تحت الدواليب . لقد شئت أن تقهر ساعة الكوكو فقهرتك . وأن تملكها فملكتك ... »

ويلتقي خطّار مصادفة تلك الفتاة التي سلختها ساعة الكوكو عنه . فإذا بها خادم في مطعم ، وقد هجرها من زمان زوجها السكّير ، المقامر . فكانت هي الأخرى ضحيّة من ضحايا ساعة الكوكو . فكان من ذلك كلّه أن طفح الكيل مع خطّار . فتاقت نفسه إلى ما كان فيه قبل أن غادر بلاده . وخيّل إليه أن المدنيّة التي زجّ بنفسه فيها :

« برج هائل قائم على ألوف الدواليب التي تكرّ بسرعة إبليسيّة . وأنّ تلك المركبة الجهنميّة تنحدر من علوّ جبل قمّته في السحاب وأركانه في هوّة لا قرار لها. وأنّها تسير على صدره. ورأى الراكبين فيها يتناهشون ويتعاضضون مقهقهين ، مولولين ، متسابقين إلى حيث لا يدرون ، جاهلين أنّهم سائرون إلى حيث تسير بهم المركبة لا إلى حيث يرغبون .

« ورأى بين هؤلاء الملايين ألوفاً من أبناء بشرته وقد زجّت بهم الأوهام والمطامع بين الراكبين . فداست بعضهم أرجل المتسابقين . وعلق الآخرون بدواليب المركبة . فراحوا يكرّون معها سكارى وحيارى ومولولين يلتفتون إلى الوراء ويودّون الإفلات والرجوع فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً . وفي أعلى

لأنّ كلّ ما في جوفها طاهر . أمّا الناس فيستحيون بأشواكهم وزؤانهم ، فيحاولون بكلّ قدرتهم خنقها . ولذلك تخنقهم . تعلّموا الصدق من الأرض . »

* * *

وأرسلت « السائح الممتاز » الذي صدرت فيه القصة إلى أخي نجيب . وكان ما تمنّيت أن يكون . فقد عاد أخي عن عزمه ، وبقي في بلاده ومع أهله .

كثير الكارات

في أواخر ١٩٢٥ تركت عملي مع الإخوة الثلاثة ولم أرضَ ، برغم توسلاتهم ، أن أقبل منهم هبة مالية سخيّة عرضوها عليّ . وفي السنوات الثلاث التي تلت ولجت أبواباً للرزق لم تكن تخطر لي في بال ، ولم يكن بينها وبين طبيعتي أيّ قرابة أو انسجام . وما ذلك إلاّ لأنّني كنت في حاجة إلى الدولار . والدولار لا يرحم المحتاجين إليه .

فقد جاءني رجل مغامر يعمل في بيع الأطيان وأكّد لي أنّه يملك أرضاً تجاور مشروعاً ضخماً تقوم به الحكومة ؛ وان الأرض سترتفع أسعارها ارتفاعاً جنونيّاً . وهي مقسّمة ومعدّة للبيع حسب خرائط مسجّلة في الدوائر العقاريّة . فما عليّ ، إذا أنا شئت أن أكسب عمولة محترمة ، إلاّ أن أساعده في بيعها . بيد أنّني بقيت مدّة أتهرّب منه مخافة أن يكون في مشروعه شيء من الوهم والخداع . ولكنه أقنعني بصدقه عندما أخذني إلى ولاية بعيدة حيث كانت الأرض فرأيت بأمّ عيني المشروع الضخم الذي حدّثني عنه ، ورأيت الأرض وموقعها من المشروع . وشاء الرجل أن يكون عبد المسيح شريكي في العمل فأقوم وإيّاه بجولة في الولايات التي كان فيها للسائح أصدقاء ومشتركون. وكانت الجولة موفقة كلّ التوفيق . إلاّ أن شعوراً ما انفكّ يرافقني في خلالها بأنّ المال الذي كسبته منها قد لا يكون كلّه مالاً حلالاً . وذلك الشعور جاءني من فراستي في صاحب المشروع وأطواره وتصرّفاته . فهذه لم تكن توحي لي بالثقة التامّة . ولذلك اختصرت الجولة وكان بإمكاني أن أمدّ في أجلها أسابيع وأسابيع .

بعد تلك الجولة بقليل خطر لصاحب مشروع الأطيان مشروع جديد . وهو أن يقيم في نيويورك معرضاً للمصنوعات الشرقيّة من صينيّة وهنديّة وفارسيّة وسوريّة وسواها . واقترح عليّ أن أكون مساعداً له في المشروع فرضيت . ولكنني افترقت عنه بعد أن أقفل المعرض . وأنا إذا ذكرت ذلك المعرض بالخير فلأنّه جمعني بشابّ هندي مثقف كان دليلي إلى كتابين هنديّين لا يزال لهما في نفسي أطيب الأثر . وذانك الكتابان هما Bhagavad Gita ومؤلف للمتصوّف الهندي « فيفيكَننَنْدا » بعنوان Raja Yoga فقد دارت بيني وبين ذلك الشاب الهندي أحاديث كثيرة حول الإنسان ومقامه في الكون ، وحول الموت والحياة ، والخير والشرّ . فأدهشه ما لمسه من تقارب بين تفكيري في هذه الأمور وما جاء عنها في بعض المصادر الهنديّة . ومنها الكتابان اللذان ذكرهما لي فما لبثت أن اقتنيتهما .

بقيت بعد ذلك زماناً بدون عمل ، إلى أن كاد ينفد آخر دولار في جيبي . وضاقت حيلتي ، وأبت عليّ عزّة نفسي أن أتذلّل لأيّ من تجار الجالية فأطلب إليه أن يستخدمني في تجارته . وذات يوم — وكان اليوم أحداً — اشتريت عدداً من جريدة « التايمز » النيويوركيّة . ومن بعد أن طالعت أخباره والملحق الخاص بنقد المنشورات الأدبيّة الحديثة طرحته من يدي على سريري وخرجت في نزهة قصيرة على ضفتي الهدسن لعلّني أكشح الهمّ عني . وعندما عدت إلى غرفتي كان أوّل ما وقع عليه بصري ذلك الملحق الأدبي من « التايمز » وقد انكشفت منه الصفحة الأخيرة وكلّها إعلان واحد عن صدور طبعة جديدة من « الموسوعة البريطانيّة » الشهيرة .

جمدت مكاني أتأمّل ذلك الإعلان وأعجب لدافع قوي يدفعني على مطالعته . ولأوّل مرّة في حياتي وجدتني ، على كره مني ، أقرأ إعلاناً كبيراً كذلك الإعلان من أوّله إلى آخره شاعراً كما لو كان رسالة موجهة إليّ وحدي .

لقد كنت أعرف أن المؤسّسة القائمة بطبع تلك الموسوعة كانت تستعين دائماً برجال ونساء يتولون بيعها في طول البلاد وعرضها لقاء عمولة تدفعها لهم بمعدّل كيت وكيت في المائة ممّا يبيعون . ولكنّي كنت أعلم كذلك أن بائعي الكتب المتجوّلين من بيت لبيت كانت لهم سمعة لا يحسدون عليها . فالناس يتهرّبون منهم تهرّبهم من البرغش والذباب . وما ذلك إلاّ لأنّهم يكثرون من الثرثرة ، ويتثاقلون في ما يقولون وفي الحجج التي يلجأون إليها لإقناع الناس بأهميّة الكتب التي يبيعون . وما أكثر ما يحملون إليهم أتفه الكتب والمجلات فيحاولون تصويرها لهم كما لو كانت من المنزلات التي لا غنى عنها في الوصول إلى السعادة والخلاص .

في صباح اليوم التالي كنت في دار المؤسّسة حيث طلبت مقابلة الرجل المولج بالبيع . فلم أوفق إلى مقابلته إلاّ بعد لأي ، وبعد انتظار طويل . وعندما أبديت له رغبتي في أن أكون واحداً من بائعي الموسوعة في نيويورك حدجني حدجة استغراب واستخفاف وقال هازئاً :

– ولكن بيع الموسوعة يا صاحبي يتطلّب فترة من الدرس والتدريب . فعلى البائع أن يعرف جميع خصائص « البريطانيكا » وميزاتها التي تتفرّد بها ، وشيئاً عن تاريخها وعن الذين يشتركون في تحريرها .

قلت : لعلّني أعرف عن ذلك قدر ما تعرف وأكثر . فأنا أملك الطبعة الحادية عشرة منها . وهي مرجعي في الكثير من القضايا الأدبيّة والفنيّة والتاريخيّة والعلميّة وسواها .

فأدهشه جوابي مثلما أدهشته الحرارة البادية في صوتي وفي حركاتي . وكأنّه أدرك إذ ذاك أن الرجل الذي أمامه ليس من الذين يلقون الكلام على عواهنه . فعاد وخاطبني برقّة واحتشام :

– تريد أن تبيع الموسوعة في نيويورك . والمدينة مقسمة عندنا إلى دوائر .

ولكلّ دائرة بائع يستقلّ بها . وليس عندنا الآن دائرة أخصّصها لك . آسف .

ـــ ولكن الذين في نيّتي أن أبيعهم الموسوعة لا يعرفهم ، ولا يمكن أن يهتدي إليهم ، غيري . وأنت لن تخسر شيئاً إذا جربتني يوماً واحداً ـــ اليوم .

وكان أن تغلّبت حماستي وثقتي بنفسي على الرجل . فنهض لتوّه وجاءني بنماذج من شتى أصناف الطبعة الجديدة . منها المطبوع على ورق عادي والمجلّد بالقماش . ومنها المطبوع على ورق رقيق جداً والمجلّد بالجلد الفاخر . وأعطاني قائمة بأسعارها نقداً ، وبشروط بيعها بالتقسيط ، وكميّة عمولتي وأوقات دفعها . وودّعني متمنّياً لي النجاح .

لم تكن تربطني بأيّ من تجار الجالية صلات نسابة أو صداقة . وقلّما كانت تجمعني بهم غير المناسبات الطارئة . ولكنهم ، على الإجمال ، كانوا يعرفون عني الشيء الكثير ، ويكنّون لي التقدير والاحترام . لذلك انتقيت نفراً منهم حسبت أنّهم لن يخيبوني إذا أنا عرضت عليهم الموسوعة وبيّنت لهم منافعها الجمّة . فهي مكتبة في ذاتها . والبيت الذي تدخله تضفي عليه مسحة من الثقافة . ولم يخب ظني . فما كاد ينقضي على مباشرتي العمل أسبوعان حتى بلغت عمولتي على ما بعته من الموسوعة ٧٥٠ دولاراً !

إنّه لنجاح باهر أدهش مدير البيع في المؤسّسة . فراح يلاطفني منتهى الملاطفة ويغريني بمركز دائم معه إذا أنا ثابرت على العمل . ولكنني لم أثابر . فقد أخذت أحسّ شيئاً من الإرهاق النفساني ، وشيئاً من الثورة الروحيّة ضدّ الرغوة التي كنت أتخبّط فيها . وعاودتني الأفكار والتخيّلات التي دفعتني قبل سنتين على نظم قصيدتي « الآن »[1] . وهي القصيدة التي أمني فيها النفس بالانعتاق من سفاسف العيش وترهاته ، ومن مقاييس الخير والشرّ ، والجمال والبشاعة ، والحياة والموت ، والزمان والمكان التي تفسد على الناس

١ انظر « همس الجفون » الطبعة الثالثة ـــ ص ١٠٨ .

تفكيرهم ، وتعطّل بصائرهم ، فينسون أنّهم أكثر من شهوة عابرة ، ويكتفون من وجودهم بالتسابق على إشباع نهم اللحم والدم . واللحم والدم لا يشبعان . في حين أنّهم لو صحّ تفكيرهم ، وصفت بصائرهم لأدركوا أنّهم أعتق من الزمان ، وأوسع من المكان ، وأكبر من كلّ مطمح ورغبة وشهوة جذورها في الأرض ، وأبقى من كلّ لذة أو ألم يحملهما إليهم اللحم والدم . ولذلك هتفت :

غداً أردّ هباتِ النّاس للنّاسِ
وعن غناهمُ أستغني بإفلاسي

وأستردّ رهوناً لي بذمّتهم
فقد رهنتُ لهم فكري وإحساسي

ورحتُ أتجر في أسواق كسبهمِ
فما كسبتُ سوى همّ ووسواسِ

وكم فتحتُ لهم قلبي فما لبثوا
أن نصّبوا بعلهم في قدس أقداسي

أمّا « هبات » النّاس الّتي عنيتها فهي تقاليدهم ، ومقاييسهم ، وعلومهم ، وفنونهم ، وأديانهم ، وأموالهم ، وجميع القشور الّتي يعيشون بها على الأرض واهمين أنّها من الحياة لبابها . وما هي إلاّ قشور . وأمّا « الافلاس » الذي شئت أن أستغني به عن « غنى » النّاس فهو فراغ نفسي من تلك القشور ، لا فراغ جيبي من الفلوس لا أكثر .

وهكذا مضيت أخاطب نفسي مؤكّداً لها أنّه سيأتي يوم أعود فيه روحاً صافياً لا سلطان عليه للموت ، ولا للحواس الخارجيّة الخدّاعة الّتي توهمه

أنّه مقيّد بالزمان والمكان في حين أنّه ، لو عرف نفسه ، لوجد أنّه يملأ الزمان والمكان :

غداً أعيدُ بقايا الطين للطينِ
وأطلقُ الرّوح من سجن التخامينِ

وأترك الموتَ للموتَى ومَن ولدوا
والخير والشرّ للدنيا وللدينِ

وألبس العري درعاً لا تحطّمه
أيدي الملائك أو أيدي الشياطينِ

فلا تروّعني نار الجحيم ولا
مجالس الحُور في الفردوس تغريني

غداً أجوز حدودَ السّمع والبصرِ
فأدرك المبتدا المكنون في خبري

فلا كواكب إلاّ كان لي سُبُلٌ
فيها ولا تربة إلاّ بها أثري

لي في القضاء قضاء والمنونِ منى
وفي ملاحمة الأقدار لي قدري . . .

ولكنني ، وقد رأيتني أعتق من الزمان ، عدت فقلت لنفسي إن ما وعدتّها به « غداً » يجب أن يتم « الآن » ، إذ ليس للروح السرمدي من أمس وغد .

قلت إنّ الأحاسيس والأفكار والتخيّلات التي أملت عليّ تلك القصيدة فكانت آخر ما نظمته بالعربيّة هي عينها عاودتني بعد سنتين بقوّة جارفة .

فشعرت بحاجة ماسّة إلى انتشال نفسي من الرغوة التي كنت فيها ، وإلى الانفراد بها في عزلة ولا عزلة المتوحد في رأس جبل عاصٍ أو في قعر واد سحيق . وهكذا صمّمت في أوائل أيار من العام ١٩٢٨ على السفر إلى والا والا. وكنت قد زرتها قبل ذلك بثلاث سنوات . وفي خلال تلك المدّة كان أخي هيكل قد تزوّج فتاة أميركيّة ، وولد لأخي أديب صبي جديد فأصبح أباً لثلاثة صبيان وابنتين . وإذن فالسفرة تبدو ضرورية من جميع الوجوه .

عزلة

قبل مغادرتي نيويورك إلى والا والا بأكثر من شهر كنت قد أرسلت إلى جريدة « التايمز » أوّل قصيدة نظمتها بالانكليزيّة وجعلت عنوانها « السباق الذي لا ينتهي » — [1] The Endless Race . وقد وقّعتها باسم ميشا نعيمه . وكنت أعرف أن « التايمز » تنشر في كلّ يوم قصيدة واحدة على الصفحة المخصّصة لقلم التحرير ؛ وأنّها ، في كلّ يوم ، تتلقى مئات القصائد ، فلا تختار منها على مدار السنة أكثر من ٣٦٥ قصيدة . فهل تكون قصيدتي من القصائد المختارة ؟

مضى أسبوعان وقصيدتي لم تعد إليّ ، ولم تنشر . فقطعت الأمل منها وكدت أنساها . إلى أن كان الرابع عشر من آذار — وهو يوم أحد — من العام ١٩٢٨ . وإذا بربّة البيت العجوز تطرق باب غرفتي صباحاً لتسألني إذا كان لي نسيب اسمه « ميشا » . وعندما عرفت مني أن الاسم اسمي فتحت عينيها بدهشة وقالت :

— إذن في بيتنا شاعر ونحن عنه غافلون ؟ هنيئاً لك ! وإنّا بك لفخورون .

وعندما سألتها من أين عرفت أنّني شاعر انطلقت في مثل خفّة الغزال وجاءتني بعدد « التايمز » لذلك النهار ودلّتني بإصبعها على قصيدتي المدرجة فيه . فاعتراني ما يعتري الحالم إذا هو أفاق من نومه ورأى حلمه الجميل مجسّداً أمام عينيه وبين يديه . فها هما قلبي وفكري ينبضان اليوم في آلاف القلوب والأفكار . وها أنا أخرج من النطاق الضيّق الذي حصرتني فيه « الضاد »

---

١ انظر الترجمة النثرية للقصيدة في « همس الجفون » طبعة ثالثة — ص ١٢١ .

لأخاطب أقواماً يمشون في طليعة القافلة البشريّة ، ولا تربطني بهم صلة رحم أو جوار . فأخاطبهم بلغتهم على أحسن ما يكون الخطاب . فلا هم عني بالغرباء. ولا أنا عنهم بالغريب . إنّ في ذلك لتعزية كبيرة لك أيّها القادم من سفح صنّين . فدربك الذي حسبته يتلوّى في الضباب لينتهي في الضباب قد أخذت معالمه تنجلي لك أكثر فأكثر ، وأخذ يمتد أبعد فأبعد .

بعد يومين جاءتني حوالة من « التايمز » بعشرة دولارات ، ورسالة من رئيس التحرير يمتدح فيها شعري ، ثمّ رسالة من سيدة أميركيّة وجّهتها إلى « التايمز » وهي تقول فيها إنّها تطالع الجريدة بانتظام منذ خمسين سنة فلا تفوتها قصيدة من القصائد التي تُنشر فيها ، ولكن قصيدة « السباق » لميشا نعيمه كانت أجمل قصيدة قرأتها حتى ذلك اليوم .

أطربني ذلك الفتح الجديد ، ولكنّه لم يسكرني . بل زاد في تصميمي على أن أختلي بنفسي في عزلة مع الطبيعة ولو لبضعة أيّام . لذلك لم ينقض أسبوع أو اثنان على وجودي في وا لا والا حتى طلبت إلى أخي أديب أن ينقلني في سيارته إلى مصيفه في الجبال . وذلك المصيف كان كناية عن بيت خشبي قائم على ضفة نهر في واد أخضر ، منعزل ، تحتضنه عن جانبيه جبال مكلّلة بالشوح والبلوط والشربين . ولأنّنا كنّا لا نزال في أواسط أيّار فقد دُهش أخي لطلبي وحاول جهده أن يصرفني عنه . فالوادي في ذلك الفصل مقفر تماماً من الناس . وهو يبعد عن والا والا أربعين أو خمسين ميلاً . ولا مواصلات بريديّة أو تلفونيّة بينه وبينها . ومن ثمّ فمن يقوم بخدمتي هناك .

إلاّ أنّني هوّنت القضيّة على أخي وأقنعته بأنّني سأجد متعة كبيرة في خلوتي وانّني أعرف كيف أطهي لنفسي بعض المأكولات الخفيفة ، وكيف أخبز الخبز ، وحتى بعض فطائر الحلوى ، في الفرن . فما عليّ إلاّ أن أتزوّد بعض الدقيق والزبدة والسكّر والكثير من الخضار والفاكهة الطازجة والمجفّفة .

أمّا اللّحوم فلست أريد شيئاً منها . وإذا شعرت بحاجة إليها فسأكتفي بما أصطاده من السمك .

وتمّ لي ما أردت . ويا لسحر تلك الليلة الأولى التي أمضيتها وحدي على ضفة ذلك النهر الصغير ، ولا سمير لي إلاّ حفيف الأوراق ، وخرير الماء ، وهمسات النسمات العابرات ، ومغامزات الدراري الحالمات ، ودقّات قلبي المطمئن ، وجذل الحياة في دمي النشوان ! في مثل هذه السكينة يطيب للنفس أن تستحمّ وتستجمّ . لكأنّني ههنا غير الإنسان الذي كنته في نيويورك . بل لكأنّ هذا الكوخ الذي أنا فيه قصر من قصور الجنّة التي يحلم بها التائهون والمعذّبون والمشرّدون في الأرض . فأنا ، وإن لم يكن في الكوخ غيري ، أحسّني شلالاً من الحياة الحافلة بشتّى الذكريات والمخلوقات والمعجزات . وكلّها يؤنسني ويحدّثني ألطف الأحاديث . وليس بينها ما يعضّ أو ينهش .

في هذا الكوخ الصغير تلتقي نيويورك وبسكنتا ؛ وبولتافا وسياتل ؛ والشخروب وساحات القتال في فرنسا ؛ وفاريا ومادلين وبيلاّ وكوتيا وهاري ؛ وشعراء الجاهليّة وأعضاء الرابطة القلميّة ، وألف صورة وصورة ، وألف ذكرى وذكرى . فتنسجم جميعها أبدع الانسجام . حتّى لتبدو وكأنّها نسيج واحد حاكته يد واحدة على منوال واحد . فلا تنافر بين خيط وخيط ، وبين لون ولون . لا ضجيج ولا عجيج . لا ظفر ولا ناب . لا معابد تضاء فيها الشموع ويُحرق البخور ، ولا أوجار يفحّ فيها الفحش والفجور .

ههنا ليس من يكيلني بمكيال ، أو يزنني بميزان ، أو يقيسني بمقياس . فأنا والعوالم التي في داخلي ومن حوالي عالم واحد تضيع فيه البدايات والنهايات ، وتتلاشى المسافات ، وتتعطّل جميع المكاييل والموازين والمقاييس . وقيمتي فوق ما يحصيه عقلي ويدركه خيالي . وقبل أيّام — في نيويورك — كنت إذا ركبت « الصبواي » فقيمتي في نظر الشركة التي تسيّرها خمسة سنْتُوت

لا أكثر . وإذا دخلت مطعماً أو مخزناً أو مسرحاً فقيمتي في نظر أصحاب المطعم والمخزن والمسرح هي قيمة الدولارات التي أنفقها في كلّ منها . ولكم حاولت أن أرفع من تلك القيمة — حتى في عين نفسي — بإكثاري من زيارات المتاحف والمعارض والمكاتب ، والأندية التي تُلقى فيها المحاضرات ، أو تُعزف السمفونيات ، أو تناقش فيها شتى القضايا والمشكلات ، فما كنت أخرج منها وعالمي أرحب وأهنأ وأجمل ممّا كان قبل أن دخلتها .

لكأنّني في هذا الكوخ المتوحّد في الجبال ألاقي نفسي من جديد ، فأُسَرّ بها وتُسَرّ بي كما لم يُسَرّ أبداً عاشقان يتلاقيان بعد فراق طويل . وإنّي لأذكر ببالغ اللذّة ما حدث لي في أوّل ليلة نمتها في ذلك الكوخ . فقد غفوت غفوة هانئة ، عميقة . وإذا بي أفاجأ بضغط شديد على صدري فأشعر أن قلبي يوشك أن يتوقف عن النبض . ويشتدّ الضغط إلى حدّ أن لا يبقى عندي أي شكّ في أنّني مائت لا محالة . فلا أضطرب ولا أجزع . بل أستقبل الموت برباطة جأش غريبة . وأهتف بصوت عال : God ! I am ready ومعناه إنّني مستعدّ يا الله ! ويوقظني صوتي من غفوتي . وإذا بي مستلقٍ على ظهري ، وذراعي اليمنى على صدري !

من ذكريات تلك العزلة واحدة أودّ أن يكون لها مكانها في هذا الكتاب. فقد عنّ لي عصر يوم من الأيّام أن أصطاد السمك . وكان أخي أديب قد علّمني ذلك « الفن » قبل سنوات . وهو فن له جيش لجب من الهواة الذين يجدون فيه أمتع التسلية والرياضة .

أخذت قصبتي في يدي ، ووضعت سلّتي في كتفي ، وانحدرت مع النهر أطرح صنّارتي هنا وهناك . فآناً أخسر الطعم ، وآونة أربح سمكة . إلى أن بلغت حوضاً واسعاً من الماء قلت إنّ السمك فيه لا بدّ أن يكون كثيراً وكبيراً .

ألقيت صنّارتي في الحوض ولبثت أنتظر نصيبي منه . وإذا بالقصبة

ترتجف قليلاً في يدي . إنّها سمكة « تعضّ » . وأنتشل الصنّارة بسرعة فإذا بالطعم الذي كان عليها قد اختفى ، وإذا بالسمكة التي التهمته قد نجت بحياتها . أعدت الكرّة مرّتين وثلاث مرّات ، فكانت النتيجة واحدة — يذهب الطعم وتبقى السمكة في الماء .

إذ ذاك أخذتني سورة من الغضب . وخُيّل إليّ أن في ذلك الحوض سمكة وحيدة ، وقحة ، تبصرني ولا أبصرها ، وتسخر مني وتستخفّ بي ، فلا ينقصها إلاّ أن تخاطبني وتقول : « زه ، زه ! صيّاد وأي صيّاد ! ومن أين ؟ من سفح صنّين ! وقد حشا رأسه بشتّى الترهات والفلسفات . ويدعي أنّه يحبّ المخلوقات . وها هو لا يجد له سلوى أحبّ إلى قلبه من خداع سمكة صغيرة في نهر صغير ، يغريها بالطعم لتغدو له طعاماً . يا له من محتال زنيم ! إلاّ أنّ هذه السمكة ستكون أوسع حيلة منه . فتأكل الطعم و ... هه ! هه ! »

ويثيرني هزء السمكة واستخفافها بي . فأردّ عليها ، وقد أخذ الغيظ مني كلّ مأخذ :

« يا لك من مخلوقة حمقاء ! إنّ صيادك ، لو تعلمين ، لصيّاد ولا كالصيّادين . فهو صاحب « الغربال » ، ومستشار الرابطة القلميّة ، والشاعر الذي تنشر شعره « التايمز » . إنّه صديق أفلاطون وطاليس ، وبوذا ولاوتسو والمسيح ومحمّد ، وجميع العباقرة من كتّاب وشعراء وفنّانين . وقد جاء يتزوّد من هذا النهر وهذه التلال والجبال مواد لقصائد جديدة ، وحكايات ومقالات جديدة . وقد يكون لك الفخر أن تصبحي مادّة لفكره وقلمه إذا أنت أقلعت عن ألاعيبك الحرقاء وعلقت بصنّارته . وإلاّ فستندمين . ولات ساعة مندم ! »

وترتجف القصبة في يدي ، فيرتجف قلبي في صدري . ويتوتّر الخيط ، فتتوتّر أعصابي . وأنتزع الصنّارة من الحوض بسرعة البرق . فإذا السمكة

يلتمع بطنها في الشمس كأنّه صفيحة من اللجين . وإذا بها ، بعد لمحة ، تتخبّط على التراب وقد أوشكت أنفاسها أن تهرب منها . لقد لقيت جزاء وقاحتها واستخفافها. وبوثبة واحدة أُدركها حيث هي . فأُمسك بها بكلتا يديّ مخافة أن تفلت من الصنّارة وتقفز إلى الماء . ولكنّني ، عندما أحاول نزعها عن الصنّارة تتجمّد يداي ، وتغيم عيناي ، ويكاد قلبي يهرب من بين أضلاعي . لقد نشبت الصنّارة في فم المسكينة فاخترقت عينها واقتلعتها من محجرها . وها هي تلك العين لا تزال عالقة برأس الصنّارة . . .

في تلك اللحظة وجدتني هدفاً لشتّى التقاريع تنصبّ عليّ بغتة من كلّ جانب — من السماء . من الهواء . من التراب . من النهر . من كلّ حصاة وعشبة وشجرة ، ومن كلّ قطرة دم في عروقي : مجرم ، مجرم ، مجرم ! لصّ ، لص ، لص ! خسيس ، خسيس ، خسيس ! أيّ البطولة هي هذه البطولة تحملك ، وأنت ما أنت من قوّة البدن والعقل ، أن تنازل سمكة صغيرة تفتّش عن عيشها في مثل هذا النهر الصغير ، فتبطش بها مثل هذا البطش المريع ؟ وما هو الجوع دفعك على البطش بها ، بل البطر وحبّ الرياضة والسلوى . لا كانت رياضة تأتيك من عذاب المخلوقات . ولا كانت سلوى تصرفك عن همومك بسلبك الحياة كائنات ليست لها همومك . ما دمت تعرف قيمة الحياة لنفسك فكيف تنكرها على غيرك ؟ وما دمت تكره الألم لنفسك فكيف تنزله بسواك ؟ مجرم أنت ، مجرم ، مجرم ! ولصّ أنت ، لصّ ، لصّ ! وخسيس أنت ، خسيس ، خسيس !

وعن غير وعي مني نزعت السمكة المسكينة عن الصنّارة وطرحتها في الماء . ثمّ أخرجت من السلّة ثلاث سمكات كنت قد اصطدتّها من قبل فباتت بدون حياة وألقيت بها ، هي الأخرى ، في النهر . وعدت أدراجي إلى الكوخ وفي أذنيّ أصوات كثيرة تردّد : مجرم . مجرم . مجرم ! ولكنّ في ضميري

عزماً لا يلتوي على أن لا أسبّب فيما بعد ألماً لأيّ مخلوق ، إن بيدي ، وإن بلساني ، أو فكري ، أو ضميري .

نظمت في تلك العزلة بضع قصائد بالانكليزيّة . منها واحدة أوحتها إليّ نار أوقدتها في الليل خارج الكوخ ولبثت ، كالمسحور ، أرقب رقصة الشرار المتصاعد منها . فتراءى لي أن تلك الشرارات لم تكن غير أرواح سجينة في ذلك الحطب وقد أطلَقتْها النار من سجنها . فلا يحرّر النار غير النار ، ولا يحرّر الروح غير الروح . لذلك رحت أخاطبها فأقول لها في جملة ما أقول :

إيه شويهباتٍ تشعّ في جلدٍ
ما طاله الشعر ولا الفن !
ماذا الذي تتغنّين به
إذ تصعدين سلّم النّار
إلى قمم غير هذي القمم ،
وغابات غير هذه الغابات ؟
أسَيْف نقمة أنا
فكّك ما كان بينكِ من أواصر المحبّة ،
وبعثر شملك في الفضاء ،
لذلك تنوحين وتندبين ؟
أم سيف رحمة أنا
أطلقك من سجنك الطويل
ولذلك تتهلّلين وتزغردين ؟

وأختم القصيدة بالصورة التالية :

ناري تميد وتلهث وتلملم ألسنتها ،
والرماد يختم شفتيها على مهل
والذي أخفاه عني تحت خاتمه
يأبَى عليّ كشفه الليل الغيور[1] .

أسِفت لتلك العزلة تنتهي ، ولذلك الصيف ينصرم فأعود في آخره إلى « الدردور الرهيب » غير عالم أنني أودّع والا والا وأحبّة لي فيها وداعاً قد يكون الأخير . . .

1 « الشرار » في « همس الجفون » طبعة ثالثة ، ص ١٢٨ .

صديقان

عدت إلى نيويورك لأواجه عين المعضلة التي واجهتها بضع مرّات من قبل . وأعني معضلة العمل والمعيشة . فالدولارات المتبقية في جيبي تكاد لا تكفيني مؤونة شهرين .

اكتريت لنفسي غرفة متواضعة قريبة من الهدسن . وكنت ، قبل سنتين أو ثلاث سنوات ، قد اقتنيت ماكنة للكتابة الانكليزيّة . فرحت أنفق معظم وقتي في معالجة مفاتيحها كلّما خطر لي أن أنظم قصيدة أو أكتب رسالة . أمّا الرزق فبقيت أهمل التفكير فيه والتفتيش عنه إلى أن كان يوم بات فيه الإهمال مجازفة . ولأنّني كنت أرى شيئاً من المذلّة لي في طرق أبواب المتموّلين من عرب وغير عرب فقد لجأت إلى الوسيلة التي يلجأ إليها الآلاف من العاطلين عن العمل في مدينة كنيويورك . وهي الإعلان عن نفسي في الصحف .

ولك أن تتخيّل شعوري عندما وجدتني في دائرة الإعلانات المختصّة بالعمل من إدارة « التايمز » المتعدّدة الدوائر أسطّر على ورقة خاصّة إعلاناً عن نفسي في ثلاثة سطور ولمدى ثلاثة أيّام . يا لسخرية القدر ! إن الشاعر الذي فتحت له « التايمز » صدرها منذ شهور يقف اليوم في زاوية من زوايا بنايتها الكبيرة واحداً من مئات النكرات الذين سُدّت في وجوههم أبواب الرزق فجاؤوا يحاولون اقتحامها بإعلان ! وماذا عساني أقول عن نفسي في ثلاثة سطور قصيرة ، وكيف أشوّق أصحاب الدولارات إلى إنفاق جزء ، ولو ضئيل منها ، على رجل مؤهلاته الوحيدة أنّه خرّيج جامعة في الأدب والحقوق ويتقن من اللغات العربيّة والروسيّة والانكليزيّة ؟

ذهبت سدًى الدولارات العزيزة التي دفعتها ثمناً للإعلان ، والآمال التي علّقتها عليه . والأنكى من ذلك أنّ الأجوبة التي وردتني كانت جميعها من رجال أو شركات ليست لديهم ولديها إلاّ مشاريع هوائيّة تفوح منها رائحة التدجيل والاحتيال . ولكنني لم أؤخذ بأيّ منها .

وأنا كذلك إذا بي ألتقي ذات يوم أحد الأصحاب السوريّين فيقول لي إنّه كان منذ ساعة عند التاجر فلان وقد سأله عني ، وإذا كنت أرضى أن أتسلّم إدارة فرع المطرّزات الفيلبينيّة في متجره . وهو الفرع الذي أدرت مثله خمس سنوات عند الإخوة الثلاثة . ونصح إليّ صاحبي أن أتصل بالرجل . وكنت أعرفه وأعرف أنّه من أبرز تجّار الجالية وجاهة وثروة . فخاطبته بالتلفون . ثمّ قابلته ورضيت بالمرتب الذي عرضه عليّ دونما مساومة . وكان المرتّب ٦٥ دولاراً في الأسبوع . وممّا زادني رغبة في العمل عنده أنّه كان يملك مكتباً واسعاً في الصين لاستيراد المطرّزات الصينيّة ، وأن الرجل الذي كان يتولّى إدارة ذلك المكتب لم يكن غير صديقي اسكندر اليازجي .

ما أكثر ما يمتهن الناس كلمة « صداقة » و « صديق » مثلما يمتهنون كلمات « الحقّ » و « الخير » و « الجمال » و « المحبّة » و « الحريّة » وما أشبه . فما كلّ عشير أو رفيق ، ولا كلّ من طابت لك مجالسته ومحادثته ، ولا كل من حمل إليك الفَرَجَ عند الضيق بالصديق . بل الصديق هو الذي يأتيك لحاجة في نفسك إليه ، وفي نفسه إليك ، مثلما تأتي النحلة الزهرة لحاجة فيها إلى الزهرة ، وفي الزهرة إليها . فتكسب الزهرة من النحلة اللّقاح الذي لولاه لظلّت زهرة عقيمة ؛ وتكسب النحلة من الزهرة الرحيق الذي لا حياة لها إلاّ به . وإذ ذاك فأخذ الواحدة من الأخرى هو ، في الواقع ، عطاء في سبيل البقاء .

والصديق هو الذي تتضخّم في عينه محاسنك وتتقلّص معايبك ، والذي

لا يحسدك إذا كنت أغنى منه في أيّ ناحية من النواحي ، بل يتمنى لك المزيد . ولا يكبر عليك إذا كان أغنى منك ، بل يجعلك تشعر كما لو كنتَ أنت الغنيّ وكان هو الفقير .

والصديق هو الذي يخدمك ولا يستخدمك ، ويعطيك ولا يستعطيك . والذي إذا خطرت في باله ، وكان في حالة النزع ، تقبّل الموت بالرضى لأنّك عشت فيه ولأنّه عاش فيك .

والصديق هو الذي يفهمك بغير كلام ، وتفهمه بالإشارة . فروحك وروحه زهرتان ، أو ثمرتان على غصن واحد .

مثل ذلك الصديق كان — وما برح — في حياتي اسكندر اليازجي . عرفته — أوّل ما عرفته — إثر قدومي إلى نيويورك عام ١٩١٦ . وعرفت أنّه من مقاطعة الحصن في سوريا ، ومن الطائفة الأرثوذكسيّة . مثلما عرفت أنّه كان عضواً في جمعيّة « س . ح . » السريّة . ولكنّه ، في البداية ، لم يسترعِ انتباهي إلاّ بأمرين : بخجله ورصانته . فما رأيته مرّة يقحم نفسه إقحاماً في أيّ جدل . ولا سمعته ، إذا حدّث ، يتبذّل في الحديث أو يلجأ إلى البذيء منه . ثمّ ما لبثت أن اكتشفت فيه ذوقاً أدبيّاً رفيعاً ، وإحساساً مرهفاً في علاقاته مع الغير . فهو حريص منتهَى الحرص على أن لا يمسّ أحدٌ كرامته بإشارة أو بكلمة ، وعلى أن لا تبدر منه أيّ حركة أو كلمة تمسّ شعور أحد وكرامته . وهو أبعد ما يكون عن التملّق والتضليل والتدجيل ، وعن الغيبة والنميمة والتشفّي . ولعلّ أبرز صفاته هو الكَرَم — الكرم إلى حدّ الإسراف بكلّ ما في قلبه وجيبه .

إلاّ أنّني ما عرفت جمال نفس اسكندر وغناها وكرمها حقّ المعرفة حتّى كان يوم أزمع فيه على السفر إلى الصين ليتسلّم هناك إدارة مصنع من المصانع السوريّة للتطريز . فرافقته مع نسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد

إلى محطّة القطار . وعندما أوشك القطار أن يتحرّك أقبل يعانقنا والعبرات تنهلّ من عينيه فتروّي وجنتيه وتخنق صوته فما يستطيع الكلام ، ولا يتنفّس إلاّ بصعوبة متناهية . لقد كان لتلك العبرات أبلغ الأثر في نفسي . إذ أنّها ، وهي تغسل وجنتي اسكندر ، كشفت لي كلّ ما في روحه من كنوز المودّة والمحبّة والإخلاص والتفاني . وكأنّني ، لأوّل مرّة في حياتي ، عرفت كيف تكون الصداقة وكيف يكون الصديق . وحتى الساعة لا تزال تلك الصداقة ترعى في قلبي فتزيده نضرة وخصباً .

لئن وقعت في صداقة اسكندر على كنز روحي بالغ القيمة والجمال فقد وقعت في صداقة اميل ضومط على كنز لا يقلّ عن الأوّل قيمة وجمالاً ، وإن اختلف عنه في الشكل والمصدر . واميل ضومط هو أحد أنجال المعلّم جبر ضومط الذي تولّى منذ سنين رئاسة الدائرة العربيّة في الجامعة الأميركيّة ببيروت فرفعها إلى مستوى عال من النشاط والكفاءة . وقد جاء اميل نيويورك ليتابع دروسه العالية في جامعة كولومبيا وفي المعهد التكنولوجي بولاية ماساتشوستس من بعد أن تخرّج من الجامعة في بيروت . ولا أدري ما الذي جعله يرغب في التعرّف إليّ ، ولا الذي جعله يتردّد عليّ من حين إلى حين . فقد كان من تلاقينا الفترة بعد الفترة أن لمست في الرجل ميلاً إلى التفكير في معضلات الحياة الأساسيّة : من أين جئنا ؟ ولماذا ؟ ومن أين الخير والشرّ ؟ وما معنى حياة تنتهي بالموت ؟ وهل بعد الموت حياة ؟ وإلى أيّ حدّ أفلح الدين في حلّ تلك المشكلات ، وإلى أيّ حدّ أخفق ؟ وهل في استطاعة العلم وحده أن يحلّها ؟

ويظهر أن ما كنت أبديه من نظرات في مثل تلك المشكلات أخذ ، على غرابته ، يترك أثراً في نفس اميل . فاستأنس بي إلى حدّ أن بات يأتمنني على أسراره القلبيّة ويستشيرني في قضاياه الزمنيّة والنفسانيّة . ولقد أعجبني من

الرجل ، وهو إذ ذاك في عنفوان الشباب ، عزوفه عن اللهو والعبث ، وطهارة في نفسه ، وعفّة في لسانه، وإخلاص في ما يقول ويفعل . ففي نطقه وتصرّفه ما يوحي بأنّه لا يمكن أن يكون للغشّ والرياء والحسد والجشع أيّ نصيب في طبيعته . وأنّه يضنيه أن يتظاهر بما ليس فيه ؛ أو أن يستغل رفيقاً أو صديقاً لمصلحة من مصالحه ؛ أو أن يقدّر نفسه فوق ما يستحقّ ؛ أو أن يحتال أو يتزلّف أو يماري ؛ أو أن يتكل على غيره في قضاء حاجة يستطيع هو قضاءها بنفسه .

تلك الصداقة التي ابتدأت بيني وبين اميل في نيويورك فحسبتها علاقة طارئة عادت فتجدّدت وتمكّنت أواصرها في لبنان من بعد أن عاد هو إليه سنة ١٩٣١ وعدت سنة ١٩٣٢ . وها هي اليوم والصداقة التي تربطني باسكندر واحتان حلوتان في حياتي وحياتهما . وإنّي لأشفق على الذين خلت حياتهم من مثل تلك الواحات . فدروبهم شاقّة ، جافة ، قاسية وإن هم فرشوها بالذهب وشتى الحجارة الكريمة .

إلى أخي نسيب

يوم غادرت بسكنتا إلى والا والا في أواخر سنة ١٩١١ كان أخي الأصغر نسيب في السابعة من عمره . ولكم كان يطربني أن أسمعه يلقي قصيدة عنترة التي مطلعها :

« أنا في الحرب العوانِ   غير مجهول المكانِ »

والتي كان يحفظها عن ظهر قلب . فقد كان يتحسّس الحماسة التي فيها تحسّساً بالغاً ، ويكثر من الإشارات العفويّة ، البريئة إبّان إلقائها ، ويرفع صوته ، ويصول ويجول غير آبه بما ينزله من التحريف ببعض المفردات التي لم يكن يفهم منها أكثر من أنّها تتحدّث عن البطولة والفروسيّة . هكذا كان بيت عنترة :

« أينما نادَى المنادي   في دجَى النّقع يَراني »

يغدو على لسان أخي :

أينما نادَى المنادي   في دجَى النّكع يراني

ويغدو بيته :

« إنّني أطعنُ خصمي   وهو يقظان الجنانِ »

إنّني أطعم خَصْمي   وهو يكزان الجنانِ

وكذلك بيته :

« خُلق الرّمحُ لكفّي   والحُسامُ الهندواني »

فقد كان يغدو :

خُلِيكَ الرّمحُ لكَفّي والحصانُ المندوامي

ولست أشكّ في أن فارس بني عبس ، لو هو قام من قبره وسمع ذلك الصبي يلقي قصيدته في الشخروب ، وعلى النحو الذي ذكرت ، لضرب كشحاً عن كلّ ما ينزله بها من تحريف وتهشيم ، ولضمّه إلى صدره وقبّل جبينه كما كنت أفعل بالتمام .

وعندما لم يبق للولد ما يجنيه من المدرسة الابتدائيّة في بسكنتا أرسله أهله إلى « الكليّة الشرقيّة » في زحلة . ولكنّه لم يمكث فيها أكثر من سنة لأن القائمين عليها كانوا من الرهبان ، ولأنّ جوّها كانت تغلب عليه الصبغة الدينيّة . فانتقل إلى « الجامعة الوطنيّة » في عاليه حيث الجوّ علماني ولا أثر فيه للروح الكهنوتيّة والطائفيّة . ومن بعد أن أنهى دروسه فيها التحق بجامعة مونبليه في فرنسا ، ثمّ انتقل منها إلى جامعة نانسي حيث درس الزراعة وتخرج برتبة مهندس زراعي . وذلك في سنة ١٩٣١ . وعلى أثر تخرّجه من الجامعة تزوّج ابنة فرنسيّة من نانسي وعاد معها إلى لبنان .

وكنت قد قطعت عهداً على نفسي بأن أيسّر لأخي الأصغر الدرس حتى نهاية الجامعة مهما كلّفني الأمر من جهد وحرمان . وقد أطلقت له الحرية أن يدرس ما شاء وأينما شاء . وكان من الطبيعي أن تقوم بيني وبينه مراسلات طويلة في شتى الشؤون . ويبدو أنّه احتفظ بطائفة كبيرة من رسائلي إليه . وهذه الرسائل هي الآن بين يديّ . وقد وقعت في بعضها على أشياء حريّة بأن تأخذ مكانها في هذا الكتاب . أليس أنّي أروي حكاية عمري ؟ وفي ما سأنقله من تلك الرسائل جانب من تلك الحكاية :

أوّل كانون الثاني ، ١٩٢٣

« عزيزي نسيب . أسعد الله صباحك ، وغمر صباح عامك الجديد بنور الرجاء والإيمان والمحبّة . وبثّ في عضلاتك العافية . ومهّد سبيلك في الحياة وجعله نيّراً ، مستقيماً .

وبعد فعندي أمور كثيرة أحدثك بها . وأسئلة عديدة أطرحها عليك . غير أنّي أراني مضطرّاً إلى إرجائها ليوم آخر ريثما تأتيني منك رسالة ضافية تبسط لي فيها آمالك ، وتكشف لي مخبّآت قلبك وفكرك . فأعرفك كما أنت لا كما أصوّرك في خيالي . فأنت ، وإن تكن أخي وفي حبّة قلبي ، غريب عني وأنا غريب عنك . إذ لم تكن ، يوم تركتك ، إلاّ نبتة صغيرة . وأنت اليوم شجرة بفروع وأفنان . أنا أعرف النبتة لأنّي رأيتها بعينيّ . أمّا الشجرة فلا أعرفها ، ولا أراها إلاّ بعين خيالي . وسأعرفها عندما أراها مصوّرة في رسائلك . فأشمّ عبيرها ، وأراقب نموّها ، وألاحظ مع أيّ الرّياح تميل .

حينئذ إذا حدّثتك فحديث محبّة عارفة لا محبّة جاهلة . وحينئذٍ أحدّثك لا حديث أخٍ محبّ لأخٍ محبّ فقط . بل حديث صديق لصديق . فالأخوّة لا تمازجها الصداقة لأخوّة ناقصة . وأجمل ما يقال في أخوين انّهما صديقان حميمان .

إنّ ما أرغبه إليك قبل كلّ شيء أيّها الحبيب هو أن تضع نصب عينيك محجّة محدودة ، وأن تحصر كلّ قواك في الوصول إليها ؛ وأن لا تحاول قطع ميلين حيث لا قدرة لك إلاّ على قطع ميل واحد .

إن لديك من عزيمة الشباب رأس مال وافراً . فعليك ألاّ تبذّره وأن تستخدمه بحكمة وتعقّل . لا تركض وراء السهل من الأمور مخدوعاً بسهولة الحصول عليه . ولا تشترِ البخس من الأشياء . فالسهل يكلّفك من العناء على

مرّ الأيّام أضعاف ما يكلّفك الصعب . والبخس يتلف بين يديك عشر مرّات قبل أن يتلف الثمين مرّة واحدة . . .

لا تقل لنفسك : « عليّ أن أسرع في الدرس ما أمكنني لأترك المدرسة عن قريب وأخرج إلى العالم لأتعاطى مهنة من المهن تدرّ عليّ وعلى أهلي شيئاً من المال » . لأنّك إذا فعلت ذلك تضرّ مع الزمان نفسك وأهلك . أمّا إذا تروّيت في أمرك وانتقيت لك في الحياة سبيلاً وقلت : « هذا هو سبيلي . وعليّ أن أسلكه دون سواه » . وبقيت تسعى سعياً حثيثاً للوصول إلى غايتك فلا بدّ من أن تصل إليها إذا لم يعاكسك الله . وحينئذ تكون قد خدمت نفسك وذويك أصدق خدمة . . . » .

نيويورك ، ٤ شباط ١٩٢٣

« . . . ما دام جسمك زاهياً فلا خوف على عقلك من الذبول . ولا يكون جسمك زاهياً إلاّ إذا كان عقلك زاهياً. لأنّ للعقل تأثيراً كبيراً على الجسد . . .

إن العقل البشري يا أخي مستودع غريب . فإنّك لا ترى شيئاً ، ولا تسمع كلمة ، ولا تفكر فكراً ، ولا تشعر شعوراً إلاّ يحفظه هذا العقل في خزانه وأنت لا تدري . ومن هذا الخزّان تنبثق في المستقبل كلّ أعمالك وأهوائك وأفراحك وأتراحك مثلما تتفجّر الينابيع الّتي على وجه الأرض من خزّانات أو بحيرات تحت الأرض . لذلك عليك أن تنتبه إلى ما تودعه خزّان عقلك من الأفكار والشهوات والأحلام . . . إن ما تخزنه اليوم في هذا الخزّان العجيب ستلقاه في الغد . . . فهو كالفونوغراف يغني لك ما تغني له . . . دع عنك الهم بما قد يكون بعد عام أو بعد أعوام . واذكر المثل القائل : « نحن بالتفكير . والله بالتدبير » . فليس لك معرفة الغيب . ولا في يدك مقاليد الحياة تديرها كيف شئت . . .

سالِم الناس تخلص من شرّ النّاس . وأخلص لهم النيّة يخلصوا لك النيّة . ولا تقل في أحدهم سوءاً فلا تسمع منهم كلام سوء . لا تدنِ أحداً من رفاقك بهفوة . ولا تفخر على أحدٍ منهم بمقدرة فيك ليست فيه ، فلعلّه يفوقك بموهبة،أو بمقدرة أخرى . فهل ترضاه أن يفخر عليك ويسخر بك ؟ . . »

كان نسيب قد بعث إليّ بقصيدة نظمها وألقاها في جمعية مدرسية . وكانت القصيدة على شاكلة القصائد التي ينظمها الطلاب في ذلك الزمان . فنقدتها له نقداً مسهباً وختمت النقد بالتوجيه التالي :

« لست أحبّ أن أراك تمشي حيث مشى غيرك ولا عذر لك في ذلك إلاّ أنّك وجدت سبيلاً مطروقاً فسلكته لتخفّف عن نفسك مشقّة البحث عن سبيل جديد . لست أودّك أن تسخّر فكرك أو قلبك في شيء . بل أتوسّل إليك أن تراقب أفكارك وعواطفك وتنطق بها لا بسواها . وعندما يتيسّر لك ذلك ستجد لذّة سماويّة في التفكير والتأمّل والشعور ، وترى نفسك قادراً على تحليل الأمور بالنسبة إلى مداركك كأكبر الفلاسفة والعلماء . وما الفيلسوف إلاّ من يستعمل فكره ويرافقه في تجواله وصعوده وهبوطه . »

٢٠ أيار ١٩٢٤

« إذا ما شددت عليك النكير في نقدي لكتاباتك فليس قصدي أن « أضيق أنفاسك » . بل أن ألويك عن سبيل في الإنشاء والنظم هو قديم وعقيم . لأنّه لا يؤدّي إلى فكر حيّ ، أو صورة جميلة ، أو عاطفة رقيقة . واللّوم ليس عليك . بل على بيئة أنت فيها ، وأساتذة يهتمّون بتصحيح لغتك أكثر من اهتمامهم بتسديد أفكارك وتشجيعك على قول ما تشاء إذا كان عندك ما تشاء قوله .

السرّ في الكتابة أيّها الحبيب أن يكون عند الكاتب فكر يبديه . هذا قبل

كلّ شيء . ومن ثمّ فالقالب الذي يسكب فيه فكره يتوقّف على دقّة ذوقه في انتقاء الألفاظ الأكثر فعالية في تأدية المعنى ، والألطف وقعاً على السمع . أمّا الفكر فلا يولده إلاّ الفكر . وأعني أنّك إذا أحببت أن تكون لك أفكار تبديها فعليك أن تمرّن نفسك على التفكير . ومتى عرفت لذّة التفكير وجدت في كلّ خطوة تخطوها ، وكلّ لقمة تزدردها ، وكلّ قطرة ماء تشربها ، وكلّ ذرة غبار أو نفحة عطر تتنشقها ، وفي كلّ شيء تقع عليه عينك من حيّ وجماد ، وفي كلّ علاقة بشريّة تشاهدها ما يدعو إلى التفكير . وحينئذ لا تعدم موضوعاً تكتب فيه . . .

إنّ كلّ ما في العالم أيّها الحبيب عجيب غريب . من ذرة الرمل إلى الجبل ، ومن البعوضة إلى الجمل ، ومن السعدان إلى الإنسان . وفي كلّ منها ما يطرح على الفكر ألف سؤال وسؤال . ومتى بدأت تطرح على نفسك أسئلة وتحاول الردّ عليها ، إمّا من تلقاء نفسك أو بمعونة سواك ، حينئذٍ تبدأ تفكّر . ومتى بدأت تفكّر وجدت نفسك بين الفلاسفة ، وتذوّقت حلاوة الفلسفة ومرارتها . وإذ ذاك تراك مدفوعاً على التدقيق في اللغة لا حبّاً باللغة بل بأفكارك التي تودّ أن تبرزها في أجمل حلّة وأبهى منظر . . . »

نيويورك . ١١ ك٢ سنة ١٩٢٥

« . . . ليت لي أن أكون بجانبك أيّها الحبيب لأعطيك إيماناً جديداً ووجهة جديدة . وأقف بينك وبين « العواصف » التي تهبّ على روحك الفتيّة بين الفترة والفترة ، والتي لا أعلم مصدرها فأقيك شرّها . أنت في أوّل حياتك — في عهد الأحلام والآمال . فافتح باب قلبك للأمل وأوصده دون الهموم والمتاعب التي ستحمل قسطك منها فيما بعد .

ما كنت خليّاً من الهمّ يوم كنت في سنّك . بل أظنّ أنّي حملت منه

أكثر من قسطي . غير أنّي كنت في ظروف أحرج من ظروفك . فوالداك في مأمن من الحاجة والحمد لله . ووالداي كانا يصابحان الحاجة ويماسيانها . وإخوانك في هذه البلاد وفي تلك كانوا إمّا غرباء يجاهدون في سبيل معيشتهم . أو صغاراً تحوم حولهم الهموم . ثمّ إنّ لك من يهتمّ بأمر تهذيبك . أفلا نزعت من فكرك الهموم أيّها الحبيب ، وانصرفت إلى دروسك وأحلامك ، وحبست « عواصفك » في مغاورها ، وتركت هموم الغد للغد ، وآمنت أن في الحياة إلهاً يخطّ لنا دروبنا . فلنسلكها راضين لا ساخطين . . . »

٢٠ ت١ سنة ١٩٢٦ (وكان قد وصل فرنسا)

« . . . وبعد فإنّك لأوّل مرّة في حياتك تراك غريباً بين أغراب . غير أنّه لا ينقضي من غربتك شهر حتّى تبدأ تشعر وتدرك أنّ الناس في كلّ أقطار العالم هم هم . فقد تتنوّع اللغات والمذاهب ، وتتعدّد الأزياء والمشارب . وتبقى ، مع ذلك ، القلوب البشريّة قلوباً ، والعقول عقولاً ، والنفوس نفوساً . وستلقى حيث أنت قلوباً سليمة ، وعقولاً نيّرة ، ونفوساً طيّبة . اللهمّ إذا أنت حافظت على سلامة قلبك ، ونور عقلك ، وطيبة نفسك . لأن السليم يجذب السليم ، والأجرب الأجرب . فما أخطأ من قال إن الطيور على أشكالها تقع . . .

سترى في فرنسا حريّة بين النساء والرجال لم ترَ مثلها في لبنانك . ولتلك الحريّة حسناتها وسيئاتها . فمن حسناتها أنّها تقرّب بين الجنسين وتسهّل التعاون بينهما . . . لا بأس من أن تصادق البنات الفاضلات . غير أنّك إن شئت أن تحتفظ بصداقتهن فكن عفيفاً معهن . لأن في الرجل العفيف جاذباً خفيّاً يزيده كرامة واعتباراً ومحبّة تقرب العبادة في أعين النساء . . .

أمّا سيّئات الحريّة الجنسيّة فهي أنّها تهبط بالناس من مستوى الإنسانيّة

إلى مستوى الحيوانيّة لما تولّده من التهتّك والدعارة والاسترخاء الروحي ، والأمراض الجسديّة . ولا أظنّك أبداً تقرب من التهتك والمتهتّكين والمتهتّكات . . .

اصرف أوّل همّك إلى صحتك ، ثمّ إلى دروسك ، ثمّ إلى تهذيب عقلك وذوقك . فتتميم فروضك المدرسيّة وحدها لا يعمل منك رجلاً مهذّباً . لأن العلم شيء والتهذيب شيء آخر . وأقرب سبل التهذيب هو المطالعة . وليس أغنى من اللغة الفرنسيّة بموارد التهذيب إن في الفلسفة أو الأدب أو الفن أو التاريخ أو العلم وما شاكل . . . »

٢٠ آذار ١٩٢٧

« يهمّني أن أعرف عن حياتك الاجتماعيّة بقدر ما يهمّني أن أعرف عن حياتك العلميّة . إذ لا أخاف عليك أن تقصّر في دروسك . غير أنّك إن لم تكن محبوباً ومعتبراً من رفاقك ومعلّميك فسيصعب عليك أن تستثمر علومك في المستقبل ، وأن تنفع الناس وتنتفع منهم . لأنّه يتعذّر عليك أن تنفع أحداً إلاّ إذا أنت أحببته أوّلاً . لذلك أحبّ النّاس يحبّك الناس . ومتى أحبّوك فتحوا قلوبهم وعقولهم لما عندك من البذور الصالحة التي تودّ زرعها بينهم وفيهم .

كن عشوراً يا أخي وخدوماً . ظنّ خيراً بإخوانك في البشريّة تجد أقرب السبل إلى قلوبهم . إذا أنت اعتزلت الناس إن خجلاً وإن ترفّعاً فقد لا يهمّك الأمر ما زلت فتيّاً وفي غنًى عنهم . إلاّ أنّه يأتيك يوم يعتزلك الناس فتشعر بوحدة وانقطاع ، وتتعرقل مساعيك ، وتنحصر قواك فيك . فتفتر همتك وتذبل آمالك . . . »

١٣ ت٢ سنة ١٩٢٧

« . . . لقد جئت عند ظني بك . إذ ملت عن الأسهل واقتحمت الأصعب. وكنت فائزاً . . . ليكن فوزك في امتحانات الدخول إلى « نانسي » وثيقة لك . . . بأن مَن يجمع كلّ قواه للتغلّب على صعوبة ما – ولا يفكّر بالفشل – يغلبها لا محالة . وأن من يقف أمام الصعوبة حائراً ، متردّداً ، وجلاً ، وغير واثق من نفسه يرتدّ عنها منكّس الأعلام . . .

إنّ مَن تحسبهم أرفع منك وأسبق منك في العالم ليسوا كذلك إلاّ في اعتبارك . فإذا قلت في نفسك إنّك قادر على اللّحاق بهم فأنت وإيّاهم فُرسان ميدان واحد . وليس يُعرف المجلّي إلاّ عندما ينتهي السباق . أمّا والسباق لا يزال جارياً فمن أدراك أنّك لا تكون الأسبق ؟ ومَن أدرى الذي هو اليوم أمامك أنّه سيبقى أمامك حتّى النهاية ؟

لا تكن خجولاً بين الناس . فالخجل ضرب من احتقار النفس . ولعلّ مَن لا تحسب نفسك أهلاً لهزّ يده ومجالسته يكون أحوج إليك منك إليه . ثمّ إنّ الخجل يعرقل مساعيك ، ويؤخّر تقدّمك . فالناس سلالم بعضهم لبعض. أنت ترقّى على ظهر جارك . وجارك يرقّى على ظهرك . . . »

٧ آب ١٩٢٧

« . . . تقول إن من الأسباب الّتي أقعدتك عن السفر إلى لبنان خوفك ركب البحر من بعد ما ذقته من المضض في سفرك من بيروت إلى مرسيليا . فما قولك بما كنت أعانيه أنا في سفري بين لبنان وروسيا ؟ أنت سافرت في الدرجة الثالثة. أمّا أنا فكنت أسافر ذهاباً وإياباً على ظهور بواخر صغيرة ، قذرة ، تجمع أجناساً من البشر من حجّاج روسيّين وتتر وترك وعجم ويهود. فأنام ولا سقف فوق رأسي إلاّ السماء ، ولا سرير تحتي إلاّ أخشاب الباخرة

الصلبة ، ولا غطاء عليّ إلاّ ثيابي . لقد سافرت كذلك لا أقلّ من ستّ مرّات . وكانت سفرتي تدوم من الاثني عشر إلى الخمسة عشر يوماً . وكنت أصاب بالدوران . وكنت أتألّم من البرد والأقذار . ومن الجوع أحياناً . مع ذلك ، فلو أعطيتني اليوم ألف مثقال من الذهب ، على أن أحذف تلك الأيّام من حياتي ، لما رضيت .

إنّي لأشفق على من لا يعرف ولو بعض ألوان الشقاء وأشكال العذاب . فالذي يبدأ سفرة الحياة في الدرجة الثالثة وينهيها في الأولى لأسعد بما لا يقاس من الذي يبدأها في الأولى وينهيها في الثالثة . الصعود أشقّ من الانحدار . لكنّه ألذّ . ولا أظنّك إلاّ صاعداً أيّها الحبيب . فاتّكل على ربّك . ولا تتمرمر من عثرة هنا أو من عقبة هناك . . . »

نيويورك ، ٢٢ شباط ١٩٢٨

« تعالَ نتحدّث قليلاً في الكتب والكتّاب .

أراك تعشّقت روسو واستسلمت له بكلّ أفكارك ومشاعرك . حتّى إنّك أصبحت تحبّ ما أحَبّ ، وتكره ما كَرِه ، وتؤثر البقاء في غرفتك ليل نهار على معاشرة الناس . فمع علمي أنّها حالة لن تدوم أخشى أن تطول ولأنّي لا أحسبها حالة صحيّة أودّ أن أعطيك الآن بعض ملاحظات وتأمّلات لعلّك تجد فيها رفيقاً ودليلاً في مسيرك الروحي :

هل فكّرت يوماً في الأزهار وأريجها ؟ هوذا حوض فيه وردة وزنبقة وبنفسجة . لكلّ زهرة لونها وأريجها . ترى من أين جاء ذلك الأريج ؟ أفي الفضاء أم في الشمس أم في التراب رائحة مستقلّة في ذاتها ندعوها « رائحة البنفسج » وأخرى « رائحة الورد » ؟ أم أنّ في النور والفضاء والتراب رائحة واحدة لكنّها تظهر ذاتها في كلّ زهرة على قدر ما يمكن تلك الزهرة

أن تستوعب منها ؟

إنّي أرى الفكر واحداً . هو الفكر العالمي ، أو الذات الكبرى ، أو الحقيقة القصوى ، أو الله . لا عبرة بالأسماء . فالمهمّ أن مصدر الحياة واحد ، وأنّ كلاً منّا يستمدّ منه بقدر ما يمكّنه من ذلك « تركيبه » العقلي والروحي والجسدي . لذلك فكلّ فكر نبديه ليس إلاّ انعكاس بعض ذلك الفكر الأكبر ، الشامل ، كما أن أريج الوردة ليس كلّ الأريج ، بل هو « نوع » منه أو بعضه . زد على ذلك أنّنا نلجأ في التعبير عن أفكارنا إلى رموز هي الكلمات التي تتألّف منها اللغات . وهذه الرموز يستحيل أن تأتي بكلّ المعاني التي ترمز إليها . فإن يكن الفكر الذي يجول في خاطرنا ليس إلاّ شبحاً من أشباح الفكر الأكبر ، فهو متى قيّدناه بالكلام أصبح شبحاً لذاك الشبح .

إذا قرأتَ كتاباً لروسو أو سواه وشعرت بعد قراءته بأنّ العالم قد انقسم في نظرك إلى قسمين — قسم تحبّه وقسم تكرهه — قسم صالح وقسم طالح — فاعلم أنّك لم تعثر إلاّ على شبح من أشباح الحقيقة . وانّ الحقيقة التي تنشدها — الحقيقة القصوى — ليست هناك . فلا تقف عند ذلك الحدّ قائلاً : لقد نلت كلّ نصيبي من الحقيقة ، وهنا سأستريح . بل تابع السير والتفتيش . فلا بدّ من أن تعثر على وجه آخر من وجوه الحقيقة التي لم يرَها روسو ولم تنعكس على زجاجة روحه الحسّاسة . وعندئذ قد تشعر — مثلما أشعر أنا اليوم — بأنّ ما يبدو لك وجوهاً عديدة للحقيقة ليس في الواقع إلاّ وجهاً واحداً . فالحقيقة هي هي . . . هي الجوهر الواحد الذي لا يحول ولا يزول . هي الله .

لو كان لنا أن نتخلّص ولو لحظة من أوهام الزمان والمكان لبان لنا كلّ شيء في العالم غير محدود — من الشمس حتى ذرة الرمل . ولرأينا البحر في قطرة الندى . . . وإذ ذاك لأمكن كلاً منّا أن يقول : أنا العالم . والعالم أنا . . .

خلاصة الكلام يا أخي أن من الخطإ أن تستسلم لكتاب أو كاتب أو معلّم

لا يحبّب إليك شيئاً إلاّ لينفّرك من أشياء . . . لأنّ من يعرف الحقيقة لا يكره أحداً أو شيئاً .

ومن الخطإ أن تهرب من الناس . لأنّك ، في الواقع ، لا تهرب إلاّ من نفسك . ففي كلّ إنسان شيء منك . وفيك شيء من كلّ إنسان . . . إذا كنت تحسب نفسك عاقلاً فأنت مدين بعقلك للعقلاء والجهلاء على السواء . . . وإن كنت تحسب جسمك صحيحاً فأنت مدين بصحّتك للسليم والعليل . وقد يكون دَين العليل أكثر من دين السليم . . . وبعد ذلك كلّه فلا تنس أنّك إن كنت تطلب الكمال فالإنسانيّة بأسرها هي سلّمك إليه . وإن كنت تطلب السعادة فلن تجدها إلاّ في جعل غيرك سعيداً . لا تحصر همّك في نفسك إذ لا بدّ لك من أن تدرك يوماً تعرف فيه أن نفسك تتعدّاك إلى كلّ نفس . . . »

كتب إلي نسيب مرة أن شاباً سورياً غريباً قدم نانسي فاحتال عليه بأن اقترض منه ألف فرنك على أن يردها في اليوم التالي . ولكنه اختفى بين الأرض والسماء . وكان ذلك مما زاد في تشاؤم أخي من الناس . فكتبت إليه بتاريخ ١٧ آذار ١٩٢٨ :

« ما أسفت لأن رجلاً خدعك في مالك . وأسفت لأن خديعته سلبتك شيئاً من جمال روحك الذي هو أثمن عندي من المال بما لا يقاس ، والذي أحاول بكلّ ما لديّ من مقدرة وما في قلبي من محبّة لك أن أنميه وأغذّيه .

في اعتقادي يا أخي أن الخادع أحقّ بالشفقة من المخدوع ، والقاتل من المقتول . وأنّه إذا خدعك حتى كلّ الناس لا تكون خاسراً إذا لم تخدعك نفسك . غير أنّي أعرف أن الناس كالنبات : بعضه يقيتك . وبعضه يميتك . وأنّهم كالورد له الأريج المنعش والشوك المخدّش . أتهجر حقلك لأنّه يُنبت لك مع الحنطة الزؤان ؟ أم تلعن الشمس لأنّها تحرق بنفسجة في حوضك ولا تباركها لأنّها تُنضج الأثمار في بستانك وتمدّك بقوّة الحياة ؟

في الناس خداع ، وسرقة ، وزنا ، وكلّ أصناف الشرور . لكنّ فيهم



اسكندر اليازجي



نجيب (الواقف) ونسيب ١٩٢٠



نسيب في نانسي ١٩٣١



التجربة

بريشة المؤلف

صدقاً ، وأمانة ، وعفة وكلّ أصناف الفضائل . من رأى شرّهم دون خيرهم كان أعمى أو أعور . . . لو لم يكن في نفسك شرّ لما رأيته في الناس . ولو لم يكن في الناس خير لما رأيته في نفسك . نحن نعطي ممّا فينا ونأخذ ما ينطبق على أخلاقنا وجوهرنا .

لقد شُغِفتَ بروسّو لأن فيك نزعة توافق نزعته . لكنّك لم تفكّر قطّ أنّ في كثيرين سواك مثل تلك النزعة . ثمّ إنّك لو فكّرت أبعد من ذلك قليلاً لرأيت أن روسّو النافر من الناس لم يكن شيئاً لولا الناس . مَن أبرزه من الظلمة إلى النور ومن ألبسه ثوب العظمة – أليس الناس ؟ لولا جائزة أكاديمية ديجون لما كتب أوّل مقالاته . ولو لم يكن من يقدّر جمالها من الناس لما قُبلت . ولو لم يكن من يطبعها لما طُبعت . ولو لم يكن من يقرأها لما انتشرت . وعلاوة على ذلك فقد فات روسّو أن الطبيعة التي كان يبشر بالعودة إليها هي أمّ الحَمَل كما هي أمّ الذئب ؛ وأمّ السمكة كما انّها أمّ الأفعى ؛ وأمّ الإنسان مثلما هي أمّ الشيطان .

وعلى الإجمال يا أخي لو لم يكن في الناس طهر وجمال وصدق وأمانة لما انعكست هذه الصفات في أرواحهم . بل إنّ هذه الصفات ما كانت قطّ لو لم تكن لها جذور في طبيعة الناس . هي فيك مثلما هي في سواك . لكنّها قد تظهر في الواحد فتزهر وتورق وتثمر . وتظلّ مكتومة في الآخر كالحبّة تحت التراب إلى أن يحين حينها . . . »

نيويورك ، ٦ أيار ١٩٢٩

« . . . أمّا السبب الثاني (في تأخّري عن العودة) فهو أنّي أرغب ، إن أنا عدت إلى الوطن،أن أجعله مقرّي إلى آخر حياتي ، وأن أبدأ هناك حياة هي أقرب إلى قلبي وفكري من الحياة التي أنا فيها اليوم . غير أن هذه الخطوة

تتطلّب نكراناً لا مقدرة لي عليه الآن . والنكران الذي أعنيه — ولعلّك تفهمه — لا يتمّ إلاّ بعد حرب داخليّة تكون فيها الغلبة للفكر على الشهوة ، وللنفس على الجسد ، وللنظر الباطني على النظر الخارجي . وقبل أن أكون واثقاً من نفسي ومن أنّ مثل هذا النكران — إذا هو تمّ — لا يجرح قلب أمّي وأبي ، ولا يضرّ بقريب أو بعيد ، لن أقدم عليه[1] . . . »

نيويورك ، ٢٦ آب ١٩٢٩

« . . . حسن أنّك تعثّرت ببلزاك ونيتشه ولو بطريق العرض . ولا غرابة في أنّك لم تفهم كتاب « زراتوسترا » . فقلّ من يفهمه حقّ الفهم . غير أنّك — إذا كانت ترجمته الفرنسيّة بليغة كالانكليزيّة — لا بدّ من أن تكون أخذت بقوّة بيانه ، وجمال تنسيقه ، وابتعاده عن المألوف والمطروق . ومن ثمّ لا بدّ أنّك شعرت بأنّ مؤلفه من أشدّ الناقمين على الطقوس البشريّة والمدنيّة ، والساخرين بكلّ ما رتّبه النّاس لمعيشتهم من عادات ومقاييس يقيسون بها الخير والشر ، والجمال والشناعة ، وكلّ فضيلة ورذيلة . وفي اعتقاده أن الحياة الأسمى هي وراء الخير والشرّ . والرجل الأمثل هو الذي لا يتقيّد إلاّ بطموحه إلى الإفلات من كلّ قيد . وإذا كان لا بدّ لمثل هذا الرجل من أن يصعد إلى قمته على جثث الضعفاء والمساكين فنيتشه يعتقد أن لا بأس في ذلك . بل من الواجب أن لا يتقيّد القوي بالضعيف . وبالإجمال فهو يرى أن غاية الحياة القصوى هي أن تلد « الرجل الأمثل » أو « السوبرمان ». وفي ما خلا ذلك لا معنى للبشر ووجودهم ومدنياتهم وأديانهم . تراني أحبّ مطالعة « زراتوسترا » وإن كنت لا أوافقه في الرأي ، ولا في النظر إلى الحياة وغاياتها وخيرها وشرّها . . . »

---

[1] عنيت بـ «النكران» مثل نكران بوذا والمسيح العالم وأمجاده، وللذات المحدودة Renunciation

١٣ أيار ١٩٣٠

« . . . يمرّ بي الشتاء شهراً فشهراً فأكاد أنسى ما هو العَرَق الذي حتّم يهوه على آدم أن يأكل خبزه به . ولست وحدي من هذا القبيل . فالناس في هذه المدينة — بل الناس في هذه المدنيّة — إلاّ الذين يعملون بأيديهم ، يكادون لا يعرفون لذّة العَرَق إذا هو تصبّب من كلّ شعرة في البدن فبلّل الجسم من قمّة الرأس حتّى الأخمصين . إذا اتخذت أمر الله لآدم مقياساً تميّز به الذين يأكلون خبزهم بحقّ أو بشرف من الذين يأكلونه خلسة أو بغير حقّ وجدت أن معظم ساكني المدن . . . يأكلون خبزهم بعرق جبين غيرهم . . .

مهما يكن أمرك في المستقبل تراني أترجى لك أن تأكل خبزك بعرق جبينك — حرفاً ومجازاً . . .

نجيب يقول إنّ له في ذمّتي كتابين أو ثلاثة . وأنا أقول إنّ لي في ذمّته كتابين في الأقل . وآخرهما — حسبما أذكر — تهنئة مني بمولوده الجديد الذي استشارني في انتقاء اسم له . فانتقيت اسم « نديم » . ومن بعد أن أرسلت الكتاب عدت ففكرت أن وزن « فعيل » سيكثر في العائلة . فهناك « نجيب » و « نسيب » و « نديم » . وكلّها يبتدىء بحرف النون . أمّا الاسم الكامل للمولود الجديد فسيكون : نديم نجيب نعيمي . وكلّها نوني . غير أنّي أتبرّك بحرف « النون » . فهنالك الذين يتّخذونه رمزاً للكمال ويشبّهون به العرش — عرش الله . فالنون بمثابة الكرسي . والله بمثابة النقطة الّتي في وسطها . والنقطة هي المحور والبداية والنهاية .

لعلّك لاحظت أنّني كتبت اسم نعيمي بالياء . وهي ياء النسبة . وعندي أن هذه التهجئة هي الأصحّ . . . »

في أواخر تشرين الأول ، ١٩٣٠ ، جاءني من نسيب كتاب من المستشفى ، وفيه أنه أصيب بداء الجنب ، فذاق من الآلام أمرها ، وأشرف على الموت . إلا أن الموت لم يخفه ولم يحزنه . وأحزنه

الحزن والآلام التي سيسببها موته لوالديه وإخوته ، وبالأخص لأخيه نجيب الذي كانت تربطه به عاطفة تفوق عاطفة الأخوة بعمقها وصفائها ومداها . فكتبت إليه في ٩ ت ٢ من تلك السنة :

« . . . لقد عصرت قلبي بكتابك عصراً . ولو كان لي أن أطير إليك الساعة لطرت . إلاّ أنّه إذا تعذّر عليّ أن أكون معك بجسدي فروحي ترفرف حواليك ، وقلبي ينبض مع قلبك ، وكلّ ما فيّ من حياة ينسج حول سريرك ستاراً من المحبّة .

بعد أن يقع المرض لا ينفع التساؤل لماذا وكيف وقع . والذي ينفع هو صرف الفكر والإرادة إلى التغلّب على المرض . لذلك أسألك أيّها الحبيب باسم الأخوّة المقدّسة أن تنزعَ من فكرك كلّ ما تعلّق بالدرس والمدرسة والامتحانات . وبالأخص أن لا تهتمّ على الإطلاق بما يكلّفك بقاؤك في المستشفى من المال . فالمال أبخس ما في الأرض وأقلّ ما يدفعه الإنسان ليدرأ به المرض عن جسمه . لا بل أقول إنّني إذا قدّمت لك اللحم الذي على كتفي فتقدمتي ليست بشيء . فالمحبّة لا تقاس بالقناطير من المحسوسات . والذي أقوله وأشعر به يقوله أبوك وأمّك وكلّ إخوتك وأختك

لا بأس لو كتبتَ إلى نجيب كما قلت في كتابك . على أن لا تخبر الأهل الآن بما أنت فيه ريثما تكون قد نقهت تماماً . وذلك قريب بإذن الله . لأن شبابك القويّ وجسمك النقيّ سيتغلّبان بإرادتك وإرادة الله على مرضك .

إلاّ أنّي أضرع إليك أيّها الحبيب أن تداري نفسك كلّ الدراية حتى في المستشفى . . . وأن تكتب إليّ ما زلت في المستشفى لا أقلّ من مرّتين في الأسبوع . وإن أمكنك فأكثر . وأن لا تكتم عني شيئاً . وأن تخبرني بالتفصيل عن سير مرضك ، وعمّا يقوله الأطباء ، وعن المعاملة التي تعاملها والتسهيلات الحاصل عليها ، وأمور قد تحتاجها هناك وبإمكاني أن أقدّمها لك . . . »

نيويورك ، ١٧ كانون الأوّل ١٩٣٠

« دعني ، قبل كلّ شيء ، أهنئك برجوع العافية إليك . فقد علّمتني اختباراتي ودروسي في المعيشة أنّ العافية الصالحة – كالإيمان الصالح – من أثمن الكنوز للإنسان في حياته هذه على الأرض . . . أسألك أيّها الحبيب أن لا تكون من المتشائمين . وإذا ما عاكست الأيّام بعض رغائبك فلا تلُمها . فقد يكون اللوم على رغائبك . ولا تمْ للأيّام . بل قل إنّ هناك سبيلاً للتغلّب عليها . وإنّك لا تزال تجهله . وإنّك لن تجهله إلى الأبد . بل لا بدّ من أن تهتدي إليه . ذلك هو سبيل التغلّب على النفس . من غلب نفسه غلب العالم . وأخيراً لست أنصح لك أن تتلهّى بالشعر إلاّ إذا وجدت فيه تفريجاً لكربة ، أو تخفيفاً لفكر مثقل وقلب طافح . . . »

سأكتفي الآن بهذا القدر ممّا جاء في بعض رسائلي إلى أخي الأصغر نسيب . على أن أعود إلى ما تبقّى منها في حينه .

ميكالانجلو جديد ؟!

عنّ لي ذات يوم ، وأنا جالس إلى طاولتي في مقرّ عملي ، ولا شغل لديّ ، أن آخذ قلماً من الرصاص و « أخَرْبش » به على ورقة بيضاء أمامي . فرحت ، دونما أقلّ اكتراث أو تصميم ، أجري بالقلم يميناً ويساراً ، صعوداً ونزولاً ، وفي خطوط متكسّرة أو مستديرة ، أو هو القلم كان يقود يدي بدلاً من أن تقوده . إذ لم يكن لي من غاية غير قتل الوقت ، وغير صرف الفكر عن أمور كثيرة كان كلّ منها يحاول أن يستقلّ به ، فلا يفلح إلاّ في تشتيته .

إنّ غربتي عن نفسي في هذا المحل التجاريّ تزداد قساوة ومرارة يوماً بعد يوم . فما شأني وشأن مطرزات واردة من الصين أو الفيليبين تنهب من وقتي ثمانياً وأربعين ساعة في الأسبوع لتعوضني عنها خمسة وستين دولاراً ؟ وما قيمة كلّ ما في صناديق « وول ستريت » من دولارات لإنسانٍ يفتش عن إله ؟

إلاّ أنّ هذا الانسان من لحم ودم . واللحم والدم لا يعيشان بغير الخبز والكساء والمأوى . وهذه لا تُنال بغير الدولارات . ولهذا الإنسان أخ حبيب في فرنسا أفلت حديثاً من براثن الموت . وأهل أحبّاء في لبنان . وذلك الأخ وأولئك الأحبّاء في حاجة إلى الدولارات ، مثلما هو الآخر في حاجة إليها . والدولار من طبيعته أن يتعزّز ويتكبّر ويتجبّر على الذين لا يعبدونه عبادة صافية بكلّ أفكارهم ، وكلّ قلوبهم ، وكلّ نيّاتهم . فلا يأتيهم حيث يشاؤون وساعة يشاؤون . بل حيث يشاء هو ، وساعة يشاء . وقد يحتجب

عنهم فما تجديهم ضراعة أو شفاعة . وقد يسلّم عليهم فيكون تسليمه وداعاً .

ألعلّه لن يتاح لهذا الإنسان البَرِم حتى الانفجار بغطرسة الدولار ومخرقاته أن يرتاح من تلك الغطرسة وتلك المخرقات لينصرف بكليته إلى التعبّد للإله الذي ما برح يفتش عنه منذ صباه ؟ وها هو شقيقه الأصغر ينتهي قريباً من دروسه فلا يبقى في حاجة إلى معونته . بل انّه سيعول نفسه ويعول والديه . وإذ ذاك فماذا يمنع هذا الإنسان من العودة إلى حضن صنّين ليختلي هناك بنفسه المتعبة في عزلة لا يضجّ فيها الدولار ولا يصخب ، ولا تعربد فيها الشهوات وتثور ؟ إنّه ، في مثل تلك العزلة ، سينقّي نفسه من كلّ أدرانها . وسيجلو بصيرته ، ويشحذ إرادته ، فينفذ من ازدواجية الحياة إلى قلبها الموحّد ، ويغدو ذلك الرجل الحكيم الذي يحدث عنه « كريشنا » في « الغيتا » إذ يقول:

« إنّ الحكيم في نظر الذين يملكون قدرة التمييز الروحي هو الذي يعمل عمله غير مدفوع إليه برغبة أو شهوة أو طمع في أجر . . . وهو الذي يقنع بما يأتيه عفواً فلا سلطان عليه للمتناقضات وللحسد ، وهو هو في فوزه وفشله على السواء . . . إنّ مثل ذلك الإنسان ، وقد تجرّدت أعماله من حبّ الذات ، وانصبّ قلبه على المعرفة الروحيّة . . . لا تقيّده أعماله . . . والذي جعل الروح الأعلى محور تأملاته وأعماله فانّما يمضي إلى الروح الأعلى . »

أجل . ماذا يمنعك يا ميخائيل من أن تنتشل نفسك من هذا الدردور الرهيب وتعود إلى لبنان من بعد أن يعود إليه أخوك نسيب ليباشر فيه عملاً من الأعمال الزراعيّة التي يفكّر فيها ؟ وماذا يربطك بعد بهذا الدردور ؟ إنّ الحركة الأدبيّة التي قمت ورفاقك بها قد أعطت أكُلها . فها هو المستشرق الروسي « إيغناتي كراتشكوفسكي » يكتب عنك وعنها . والمستشرق الألماني « كامفماير » يصدر كتاباً عن « قادة الأدب العربي المعاصر » فيحصيك في عدادهم ، وها هو كاهن يسوعي في بيروت اسمه الأب روفائيل نخلة يترجم

مختارات من شعرك وشعر رفاقك إلى لغة « الإيدو » العالميّة . هؤلاء وكثير غيرهم في الشرق والغرب قد بدأوا يشعرون بوجود شيء اسمه الأدب العربي الحديث .

ماذا يربطك بعد بهذا الدردور الرهيب ؟ بيلاّ ؟ لقد تلاشت الصلة بينك وبينها بالتدريج ، وكان من الواجب أن تتلاشى على ذلك النحو فلا تنتهي إلى فاجعة . و « بيلاّ » اليوم في حياتك بقيّة من عطر . ولا شك أنّك بقيّة من عطر في حياتها . فما أحسن أن نترك في نفوس الناس ذكريات عطرة وأن نحمل منهم مثل تلك الذكريات ! ولكن ، ماذا أنت فاعل بالعلاقة التي نبتت لك منذ عهد قريب ؟ ماذا أنت فاعل بهذه التي اقتحمت قلبك عنوة واسمها « نيونيا » ؟ وكنت تحسب أن قلبك بات منيعاً . . .

القلم في يدي لا ينفكّ يجري على غير هدى . متباطئاً هنا ، ومسرعاً هناك. ولكن . . . ما هذا ؟ إنّ عيني لتلتقط بين الخطوط المتشابكة التي على الورقة أمامي ملامح صورة فيها الأشكال العجيبة ، الغريبة . وتستهويني تلك الأشكال ، فلا ألبث أن أرى فيها موضوعاً قابلاّ للعناية والتصميم . والموضوع هو خلق صخرتين ، عاليتين ، متقابلتين ، تفصل بينهما هوّة ، ضيّقة ولكنّها سحيقة . والصخرتان ليستا من الصخور المألوفة . فعند أسفل كلّ منهما أعشاب وأشواك وطحالب . وكلتاهما مكوّنة من أجزاء بعضها يشبه جذوع الشجر ، وبعضها يبدو كما لو كان جانباً من حيوان أو إنسان . فهنا ذراع ، وهناك فخذ ، وهنالك عين أو أنف ، أو رأس بكامله . إنّها فكرة تداخل الحياة بعضها في بعض ، وانبثاق الأشكال بعضها من بعض ، وفكرة الحركة الصاعدة من البسيط إلى المركّب ، ومن الغيبوبة إلى الوعي ، ومن غير العاقل إلى العاقل.

وتنفيذاً لتلك الفكرة جعلت كلتا الصخرتين تنتهي في أعلاها بشكل بشريّ مستلقٍ على الظهر ، وذراعاه لا تزالان مغلولتين في الصخر . فهو لم

ينطلق بعد كلّ الانطلاق ، إنّه سجين ، ولكنّ رجليه طليقتان . وجعلت الواحد أبيض والآخر أسود ، وقد رمزت بالأبيض إلى المرأة . وبالأسود إلى الرجل . ثمّ جعلت رِجْل المرأة ورجل الرجل تتلامسان بأطراف أصابعهما عبر الهوّة . وهكذا تخلقان تيّار الحياة كما يخلق تلامس سلك سلبي وسلك إيجابي التيار الكهربائي . ودعوت الصورة « عبّارة الحياة » .

فعلت ذلك وليس لي أيّ خبرة سابقة حتّى بأوليات فنّ الرسم ، ولا أداة في يدي غير القلم وغير الماحي أستعين به على إبراز شكل ، أو إخفاء شكل ، أو تلطيف ظلّ ونحوَ ذلك ، وعندما انتهيت من الصورة هممت بتمزيقها على أنّها ضرب من العبث الصبياني وقد انتهت مهمّته من بعد أن ساعدني في قتل ساعة من الفراغ ، وفي صرف أفكاري عن مشكلات لم أظفر لها بحلّ نهائي . إلاّ أنّني عدت فاحتفظت بها .

وتكرّرت المحاولات . فتجمّع لديّ من الرسوم نحو الستة أو السبعة . منها واحد دعوته « التجربة » . وهو يمثّل متعبّداً خارجاً في الليل من كهفه ، وفي يده شمعة مضاءة ، وقد برز — كما لو كان من تحت إبطه — فخذان أنثويّان عاريان . فسُمّر مكانه . وآخر يمثّل طفلاً حيّاً يرضع ثدي أمّه الميتة . وقد دعوته « الموت ثدي الحياة » .

وخطر لي بعد ذلك بقليل أن أداعب جبران . فانطلقت إليه حاملاً معي رسومي . ومن بعد أن تحدّثنا قليلاً دفعت إليه بتلك الرسوم ، وبشيء من الاستهتار ، على أنّها رسوم صنعها وبعث بها إليّ أخي في فرنسا . وذلك كان أوّل تلميح يأتيني منه إلى أنّه يميل إلى الرسم ويهتمّ بالفنّ . وكان جبران يعرف أنّ لي أخاً يدرس في فرنسا . فأخذ الرسوم وراح يقلّبها ويتأمّلها هاتفاً بين الفينة والفينة :

— أيّ خيالٍ هذا ! أيّ شعور دقيق بالتوازن والتناسب ! أيّ لطافة

في الذوق ، وأيّ عمق في التفكير والإحساس ! إنّ هذا الرسم الذي دعاه « عبّارة الحياة » يصلح للنشر في أحسن مجلّة فنيّة — بعد تعديل طفيف . وكذلك « التجربة » [1]

وطفت على وجهي ابتسامة خفيفة . ولحظ جبران الابتسامة . فداخلته ريبة في صدق ما عرضت عليه ، وقال :

— ماذا وراء هذه الابتسامة ؟ هل هنالك « مقلب » ؟

فأكّدت له براءتي من أيّ نيّة « خبيثة »، وأنّني ابتسمت فرحاً واعتزازاً بما اكتشفه في أخي من مواهب كانت خفيّة عني . عندئذٍ قال بمنتهى الجدّ :

— لو كان لي يا ميشا أن أتولّى تدريب أخيك شهراً واحداً فقط لجعلت منه ميكالانجلو !

لم أستطعْ إلاّ أن أبتسم ثانية . ويبدو أنّ جبران حسبها ابتسامة رضى فأخذ الرسوم من جديد وراح يتأمّلها ويحلّل شخصيّة أخي على أساسها . إنّه يميل إلى التأمّل ، ولا يؤخذ من الأمور بظواهرها . وإنّه ذو مزاج مستقلّ لا يأتلف إلاّ مع القليل من الأمزجة . وإنّه يملك عاطفة جنسيّة جامحة ، وغير ذلك ممّا لا أذكره . عندها لم أتمالك من الضحك . فضحكت . وأدرك جبران أنّ في الأمر « مقلباً » . فتوقّف عن الكلام هنيهة وقال :

— يا شرّير ! لقد جازت عليّ خدعتك . أفلا صدقتني الآن الخبر وقلت لي مَن هو صاحب هذه الرسوم ؟

وعندما أخبرته الحقيقة تجهّم وجهه لحظة كأنه ، وقد عرف اني صاحب الرسوم ، راح يستعيد كلّ ما قاله فيها وفيّ مخافة أن يراه مضطرّاً إلى الرجوع عنه أو عن بعضه ، وبغتة ضرب الطاولة التي أمامه بيده وصاح :

---

[1] فتشت عن « عبارة الحياة » فلم أجدها بين أوراقي .

– أقسم بالله انّني لن أعود عن كلمة واحدة ممّا قلته !

ولكنّي لم أذهب إلى جبران لأدرس عليه الفنّ شهراً أو ساعة . فضاع على العالم ميكالانجلو آخر . . .

أمّا محاولاتي البريئة في التصوير فقد أقلعت عنها بعد ذلك بقليل .

نيونيا

« كلّما وضعتُ يدي في يد ما لمستُها من قبل قلت : تبارك الله ! فتح جديد وكنز لا نفاد له » .

هكذا قلت بعد سنين في كتابي « كَرْم على درب » . وهو قول عبّرت فيه عن شعور لازمني — وما برح يلازمني — منذ أن بدأت أفكر جدّيّاً في مفاجآت الحياة والأساليب العجيبة ، المدهشة ، التي تلجأ إليها في كشف ما استتر عنّا من علاقاتنا بالناس والمخلوقات ، وأهميّة الدور الذي يلعبونه في حياتنا ونلعبه في حياتهم . فربّ يد تصافحها لأوّل مرّة ، وشفتاك تتمتمان الكلمات المألوفة عند التعارف : « تشرّفنا يا سيّدي ، أو يا سيّدتي ، أو يا آنستي » وإذا بتلك اليد تحمل إليك بعد حين ألواناً من الشقاء أو الهناء . وقد تحمل إليك الموت مثلما قد تنقذك من الموت . فهي ، في الحالتين ، كنز من الخبرة التي أنت في حاجة إليها ، والتي لن تأتيك إلاّ عن طريق صاحب تلك اليد ، أو صاحبتها .

لست أحسد الذين يرهقهم التفكير في العلاقات البشريّة والنواميس التي تسيطر عليها . فيتخلّصون منها بقولهم إنّها لا تخضع لأيّ نواميس ، وإنّها نتيجة لمصادفات عمياء . وعندي أنّ الناس في تجاذبهم وتدافعهم يخضعون لقوانين لا تقلّ في دقتها وصرامتها عن تلك التي تخضع لها الكواكب في أفلاكها . ولكنّها ألطف بكثير ، وأبعد بكثير من أن يتناولها تلسكوب أو ميكروسكوب ، أو أيّ جهاز آخر استنبطه ، وقد يستنبطه العقل البشري . إنّها في سيرة الروح لا في سيرة الجسد . وانّ جذورها لسحيقة جدّاً في الزمان .

ــ المستر نعيمه . الآنسة فلانة (وسأدعوها نيونيا) .

قال صاحبي ذلك عندما نهض ورفيقته عن العشاء في مطعم سوريّ واقتربا من الطاولة المنفردة التي كنت جالساً إليها وحدي وقد أوشكتُ أن أنهي عشائي . فدعوتهما إلى الجلوس معي ريثما أفرغ من الأكل لعلّنا نترافق في الطريق ، وكنت قد عرفت من صاحبي أنّه ورفيقته ماضيان في الاتجاه الذي سأمضي فيه . فجلسا .

صاحبي شاب مثقّف وذو مواهب موسيقيّة بارزة . ومعرفتي له سطحيّة . فقد يمضي العام ولا نتلاقى غير مرّة أو مرّتين ، وقد لا نتبادل عند التلاقي أكثر من التحيّة وبعض المجاملات . أمّا رفيقته فلم تكن عيني قد وقعت عليها من قبل . إنّها تتكلّم الانكليزيّة بطلاقة . ولكنّ في لهجتها ما يؤكّد لي أنّها ليست أميركيّة أو انكليزيّة . بل في ملامحها ما يجعلها تبدو كما لو كانت من أصل سلافي وفي نحو الخامسة والعشرين من العمر. وكيفما كان الأمر فهي فتاة فوق المستوى العادي بكثير . في قوامها خفّة وانسجام وعنفوان . وفي حركاتها عفويّة ورشاقة واتزان . وفي صوتها جرس تُسَرّ الأذن بعمقه وصدقه وصفائه . وفي أصابعها مرونة فائقة وإحساس مرهف . أمّا بشرتها البضّة المروّاة بدم العافية ففي مثل نعومة بشرة الطفل . وأمّا عيناها الواسعتان فتتدفّق منهما شلالات من الدهشة والتعطش إلى جمالات الحياة وملذاتها . وأمّا شفتاها فتنضحان أنوثة بلجوجة لا تطيق اللفّ والدوران في الوصول إلى أهدافها . وبالاختصار ، إنّها عالم يضجّ بالشهوة والشوق والحركة . فكأن في قلبه من النار مثل ما في البركان . إنّ جلد هذه المخلوقة يضيق بالحيويّة التي فيها .

خرجنا من المطعم ومشينا إلى محطة « الاومنيبوس » والفتاة تتولّى ادارة الحديث فتخلق له شتّى المواضيع ، دونما أقل تكلّف ، وتضفي عليه شيئاً من المرح ، وتقهقه قهقهة جذّابة تسري عدواها إلينا . وركبنا الدور الثاني

من « الاومنيبوس » فهو المحبّب إلى النيويوركيين أيّام الصيف لأنّه يخفّف من وطأة الحرّ . ولكنّ سفرتنا معاً لم تطل أكثر من ربع ساعة . إذ انّ صاحبي ورفيقته بلغا المحطة التي كانا يقصدانها ، وكنت لا أزال بعيداً عن محطّي . فودّعتهما وودّعاني وكأنّني أودّع شخصين لا شأن لهما في حياتي على الإطلاق ، ولا تربطني بهما صلة أقوى من التي تربط بين غريبين جمعتهما « المصادفات » لبضع دقائق في خافلة تراموای ، أو في تاكسي .

نسيت الفتاة . ولكنّها لم تنسني . فما انقضى يومان على تلاقينا حتى خاطبني رفيقها بالتلفون يدعوني باسمها لنزهة معهما على شاطىء الهدسن . وإذا بي ألقاها في الموعد المتّفق عليه ومعها رفيقها الذي ذكرت وشابّ آخر عرفت فيما بعد أنّه رسّام من أصل إيطالي . وإذا بها يتدفّق المرح من وجهها وصوتها وكلّ حركة من حركاتها . فما انتهت النزهة إلاّ عند نصف الليل ، وإلاّ من بعد أن ارتفع « التكليف » من بيننا فباتت تناديني « ميشا » وأناديها « نيونيا » . وقد عرفت أنّها من أصل بولوني ؛ وأنّها تتعشّق رقص « الباليه » وتجيده كلّ الاجادة ، وتجد فيه خير المعبّر عمّا يجيش في نفسها وجسدها من عوامل الحياة ، ومن الشوق إلى الانطلاق نحو الجمال المنطلق من القيود ؛ وأنّها ، من حين إلى حين ، كانت تحيي حفلات في محترفها تحضرها نخبة من متذوّقي فنّ الباليه . فتقوم بالرقص وحدها ، ويصاحبها على البيانو الموسيقي الذي لقيته معها في المطعم ، ويساعدها الرسّام الإيطالي في اختيار الملابس المناسبة لكلّ رقصة .

وبلباقة متناهية ، وعفويّة لا تقاوَم ، أخذت « نيونيا » تخلق في كلّ يوم تقريباً دواعي جديدة لمواعيد جديدة . فهنا معرض فنّي لا بدّ من زيارته . وهناك سهرة في ندوة شعريّة ينبغي ألاّ تفوتنا . وهنالك محاضرة لزعيم بهائي يجدر بنا أن نسمعها . وفي كلّ مرّة كانت تأتي إلى الموعد مصحوبة برفيقها

الموسيقي ورفيقها الرسّام . إلى أن كان موعد جاءتني فيه وحدها . وكان في حديقة على شاطىء الهدسن تعجّ بالمتنزّهين .

وأقبل الليل . ولكنّه لم يكن « كخافية الغراب الأسحم » . بل كان ليلاً أبهر لكثرة المصابيح الكهربائيّة . وكنت و « نيونيا » قد استقلّينا بمقعد منفرد في زاوية منعزلة من الحديقة . وإذا بذراعها تطوّقني ، وبذراعي تطوّقها . وإذا بصوتها — وكأنه صوت نار تلتهب — يهمس في قلبي قبل أذني : «مي-ي-شا !» وتمضي تفنّن في ابتداع صِيَغ جديدة من الاسم إغراقاً منها في التحبّب . فهو « ميشون » و « ميشونيو » و « ميشونتشيك » . فتبتدع من تلك الصيغ نحو العشرين . وشفتاها لا تنفصلان عن شفتيّ إلاّ لتعودا إليهما بنهم أشدّ من ذي قبل . إنّهما تنهشانني ، وتودّان — لو تستطيعان — أن تمتصّاني بلحمي وعظمي .

تلك العاصفة الهوجاء التي أطلقتها عليّ « نيونيا » جرفتني كما يجرف السيل صخرة في رأس جبل . فتولتني دهشة من نفسي . اني أكاد لا أعرفها . وأكاد لا أصدّق أنّني عين الرجل الذي فكّر غير مرّة في هجر العالم ومفاتنه ومغرياته لينصرف إلى البحث عن حقيقة نفسه وحقيقة العالم . ففي هذه المرأة التي بين ذراعي جوع صارخ إلى أقوات لا يوفّرها لها غيري وهذه الأقوات قد تكون في نظراتي ، أو في خطواتي ، أو في كلماتي ؛ مثلما قد تكون في صوتي ، أو في خُلُقي ، أو في لحمي ودمي . وجوع هذه المرأة إلى أشياء لا يوفرها لها غيري يثير فيّ جوعاً إلى أشياء لا يوفّرها لي غيرها . فكأنّنا يتمّم واحدنا الآخر . وكأنّنا لم نعش ما عشناه من السنين قبل اليوم إلاّ لنستعدّ لهذا اليوم ، وإلاّ لنكتمل في هذا اليوم . وأيّ بأس إذا نحن دفعنا جزية للحم والدم ؟

بعد ذلك وجدت « نيونيا » طريقها إلى غرفتي مثلما وجدت طريقها

إلى قلبي . والغريب أنّه لم يخطر في بالي مرّة أن أسألها عن علاقتها برفيقها الموسيقي ورفيقها الرسّام . ولماذا هما يلازمانها ملازمة تكاد لا تنقطع . فما زرتها يوماً في محترفها إلاّ وجدت واحداً منهما ، أو كليهما ، عندها . فقد تحسب ذلك غيرةً مني ، أو شكّاً في إخلاصها لي ، أو تدخّلاً في حياتها الخاصّة ، ومن ثمّ فأهل الفن أطوارهم غير أطوار الناس العاديين . ولا تثريب عليهم إذا هم انفلتوا من بعض التقاليد والمفاهيم الاجتماعيّة التي يحتمي بها ويتظاهر بالغيرة عليها عامّة الناس .

دامت علاقتي مع « نيونيا » من صيف ١٩٢٩ وحتى مغادرتي أميركا في ربيع ١٩٣٢ . وقد نبتت لي على هامشها علاقات أخرى كانت جميعها بريئة لأني أردتها أن تكون بريئة . فما كنت أريد للحبّ الذي بيني وبين « نيونيا » أن تدنّسه أيّ علاقة مع أيّ امرأة مهما يكن نصيبها من الفهم والغواية والجمال .

من تلك العلاقات واحدة قامت بيني وبين رئيسة تحرير مجلّة أميركيّة محترمة . ورئيسة التحرير هذه كانت فتاة تخطّت الثلاثين ، وشاب شعرها قبل الأوان ، وركبها صداع مزمن كانت تتحمّل آلامه بصبر مدهش . إلاّ أنّها كانت على جانب كبير من الثقافة والذوق والاخلاص والرزانة وحسن الصورة والخلق الكريم . حتى إنّني ، كلّما تحدّثت إليها ، شعرت كما لو كنت أتحدّث إلى سيّدة أريستوقراطيّة من عهد فكتوريا أو اليصابات . وما شككت دقيقة في أنّها كانت فتاة طاهرة طهارة الملاك . فتصادقنا ، ورحت أتمنى لو تدوم صداقتنا مدى العمر . ولكنّها لم تدم إلاّ سنتين إذ تبيّن لي أنّ الفتاة كانت تطمع في أكثر من صداقتي . لقد كانت تفكّر في الزواج . واني لأشهد انّها كانت من أنبل النساء اللّواتي عرفتهنّ في حياتي.

وكانت لي علاقة أخرى مع إحدى السيّدات اللواتي وجدتهنّ في

المستشفى ليلة وفاة جبران . فقد جمعتني بها ظروف نتج عنها تعارف وتقارب . وكانت رسّامة لها قيمتها في دنيا الفنّ ، وقد عرفت جبران معرفة واسعة أيّام كانت تسكن وإيّاه في بناية واحدة . ولأن محترفها الحديث كان قريباً من محل سكني فقد كانت تدعوني مرّة أو مرّتين في الأسبوع لتناول الشاي أو العشاء عندها. وكانت تعجب لجبران كيف استطاع أن يخفي عنها صديقاً مثلي.

أخيراً اقترحت عليّ ، وبالكثير من الإلحاح، أن تصنع لي رسماً كبيراً « بالباستيل » . فقبلت . ورحت أتردّد عليها لتلك الغاية . فنتحدّث وتطول جلساتنا لأنّها كانت تريدها أن تطول . وعندما أشرف الرسم على النهاية ، وكان في الواقع موفّقاً جدّاً ، تظاهرتْ بالتعب وارتمت على ديوان وثير ودعتني إليها . وفهمت قصدها من الدعوة . فوقفت بجانبها وقلت :

ــ إذا شئت أن تبقى هذه الصداقة بيننا فمن الخير أن لا تلوثيها بشهوة عابرة .

وكان ما قلته صدمة عنيفة لها حاولت أن تخفّف منها بقولها انّها لا تؤمن بالصداقة بين رجل وامرأة . فانتهت علاقتنا عند ذلك الحدّ .

وهناك العلاقة التي نبتت بيني وبين الفتاة اليهوديّة التي ذكرتها في كتابي عن جبران . وسآتي على ذكرها في غير هذا المكان . أمّا الآن فأعود إلى « نيونيا » .

لقد كنت ، كلّما قارنت بين « بيلاّ » و « نيونيا » بدت لي « بيلاّ » نعامة و « نيونيا » لبوءة . فاقدامها ، وثقتها بنفسها ، وزخم الحياة فيها كانت لا تعرف الحدود . ذلك إلى جانب ثروة لا يستهان بها من العذوبة ، والذوق الرفيع ، والحسّ المرهف ، والذكاء المتوقّد . إلاّ انّها لم يكن يشغلها من شؤون الحياة غير إرضاء نزواتها الجسديّة ونزعاتها الفنيّة . أمّا الأمور التي كانت تشغلني بغير انقطاع ــ أمور الحياة والموت، والمصدر والمآب ، والخير

والشرّ ، والغاية من وجودي كما أنا في عالم هو ما هو — فهذه وما إليها كانت بعيدة عن ذهنها كلّ البعد . وعبثاً حاولت أن أثير اهتمامها بها .

لذلك كان يعاودني الشعور من حين إلى حين بأن هذه الفتاة التي أثارتني كما لم تثرني أيّ امرأة قبلها لن تلبث أن تغدو غريبة عني من بعد أن أثوب إلى نفسي . وإذ ذاك فلا مناص لي من العودة إلى قوقعتي — إلى الوحدة التي لازمتني وستلازمني مثلما لازمت كلّ الذين لم يقنعوا من الحياة برغوتها وقشورها ، والذين شاقهم أن يعرفوا القوى الهائلة الدفينة فيهم ، حتى إذا عرفوها واستخدموها لخيرهم ولخير الناس عرفوا الكون والقوى التي تسيّر الكون . لأنّها عين القوى المخزونة في كيانهم .

من ذلك الشعور نبعت ثلاث أو أربع من قصائدي الانكليزيّة . وعلى الأخصّ تلك التي عنوانها « يا وحدتي ! » وهي التي أخاطب فيها وحدتي فأقول :

« إيه وحدتي !
ما إخالها تستطيع أن تجوب سمواتك
التي لا شموس فيها ولا أقمار ؛
وأن تطأ صحاريك
التي لا دروب فيها ؛
وأن تمخر بحورك
التي لا شواطىء لها ؛
وأن تسبر أغوارك
التي بغير قرار ؛
وأن تتسلّق قممك القاسية ، الجرداء ؛
وأن ترقص بقدميها المجنّحتين

على طحالبك الزّلِقة .
ولا إخال شفتيها المعسولتين
تقويان حتى على لمس كأسك
الملأى علقماً بِكراً ،
ولا قلبها البتول قادراً أن يسمع
صراخ أحلامك المتشرّدة .

كنتُ وإيّاك وحيدَين يا وحدتي .
ووحيدَين سنبقى إلى آخر الدهر .
ولكنْ ، لله ما أفسحنا اليوم
يا وحدتي ،
وما أغنانا !
فنحن بها ، وفيها ، ومعها
نصافح الأزل بيمنانا ،
والأبد بيسرانا ! »

ارحمني يا الله!

لم يُصدر «السائح» عدداً ممتازاً في مطلع العام ١٩٣١ . فالضائقة المالية التي ابتدأت منذ عامين كانت ماضية في تشديد قبضتها على خناق البلاد . فما كنت تسمع إلاّ بأسهم تتدهور في البورصة أثمانها ، وإلاّ بمصارف تعلن إفلاسها ، ومصانع تسرّح عمّالها ، وأملاك تُطرح للبيع بالمزاد ، ومتموّلين يغدون في صفوف المعدمين ، وباطلين عن العمل لا يجدون لهم قوتاً إلاّ في ما توزّعه البلديات من خبز وحساء . فكأنّ البلاد من أقصاها إلى أقصاها يهزّها زلزال عنيف . وكأنّ ثرواتها الاسطوريّة لم تكن غير هباء أو قصور في الفضاء . وكان من الطبيعي أن يعبث الزلزال بثروة الكثير من تجار الجالية السورية – اللبنانية الذين كانت إعلاناتهم ومعوناتهم المالية المعوّل الأكبر لعبد المسيح في إخراج «السائح الممتاز» .

أو لعلّ «السائح» كان يشعر شعوراً باطنيّاً بأن مهمّة «الرابطة» قد انتهت ، وأن عقدها يوشك أن ينفرط . فالبذور التي ألقتها في تربة الأدب العربي أخذت تنمو وتمتدّ . وتباشير النهضة تلوح في كلّ أرض عربيّة . ولم تنقضِ ثلاثة شهور وعشرة أيّام من العام الجديد حتى ارتحل عن «الرابطة» عميدها جبران خليل جبران . ولست أرى بي حاجة إلى وصف ارتحاله إذ قد فعلت ذلك في الكتاب الذي وضعته عن حياته . إلاّ أنّه لا بدّ لي هنا من ذكر أشياء لم آتِ على ذكرها في ذلك الكتاب .

عندما نقلنا الجثمان بالقطار من نيويورك إلى بوسطن كان من رأيي أن يرافقه جميع عمّال «الرابطة القلميّة» . ولكنّ بعضهم اعتذر لأسباب

منها ضيق الوقت أو ضيق ذات اليد . ولو انّنا أخذنا بالسبب الثاني لما سافر أحد منّا مع الجثمان . إلاّ أنّ التاجر الذي كنت أعمل عنده لم يخذلني عندما طلبت إليه أن يتبرّع بنفقة وفد من أربعة . وقد تألّف الوفد من نسيب عريضه وعبد المسيح حدّاد ووليم كاتسفليس ومني .

في صباح اليوم الذي جرى فيه الدفن نقلنا الجثمان إلى الكنيسة المارونيّة في بوسطن حيث صلّى عليه كاهن من آل الدويهي . وكانت الكنيسة تغصّ بالمصلّين ، وفكري بعيد جدّاً عن المراسم التقليديّة التي تمرّ أمامي ، ترافقها ترانيم سريانيّة لا أفهم منها شيئاً . وبغتة ارتفع في جوّ الكنيسة صوت جميل ، رخيم . وكان صوت المصلّي ينغّم بالعربيّة المزمور الخمسين من مزامير داود النبي ، ومطلعه « ارحمني يا الله بعظيم رحمتك » . وإذا بالدمع يتفجّر من عينيّ شآبيب فلا أستطيع وقفه . وكنت قبل ذلك بأيّام قليلة قد رافقت جبران في احتضاره خمس ساعات خلتها خمسة دهور ، وأطبقت عينيه بيدي عندما لفظ آخر نحب من أنحابه ، فلم يبتلّ لي جفن لأنّني ما كنت أريده أن يبتلّ ، وأنا القائل والمؤمن بأنّ الاحتضار مخاض ولادة جديدة ، وبأنّ الموت مرحلة من مراحل الحياة . وإذ ذاك فأيّ معنى للدموع نسكبها على الأموات ؟

إلاّ أنّ هتاف المصلّي في تلك الكنيسة ، وفي ذلك الجوّ « ارحمني يا الله ! » عطّل أفكاري ، وشلّ إرادتي لأنّه بلغ مني ما هو أعمق من الفكر وأقوى من الإرادة . فقد خيّل إليّ في تلك اللحظة أنّ روح رفيقي ، وروحي ، وروح كلّ من الذين احتوتهم تلك الكنيسة ، بل وأرواح الناس في جميع أقطار الأرض ، الأحياء منهم والأموات ، كانت تطلب الرحمة . وممّن تطلبها ؟ من الله . ومَن هو الله ؟ انّه روح الكون . ولماذا تطلب الرحمة ؟ لأنّها أنكرت الروح فأنكرت ذاتها — أنكرت وجودها . إنّها تطلب تثبيت وجودها ، والصفح عمّا بدر منها من أعمال وأفكار وشهوات

أنكرت بها وجودها . ومَن منّا لا ينكر وجوده كلّما انشغف بأشياء تزول فصرفته عن الذي لا يزول — عن الروح — عن الله ؟

ارحمني يا الله !

لم يكن بدّ من إلقاء كلمة في المقبرة . ومن يلقيها غيري وأنا مستشار الرابطة وصديق جبران الحميم ؟ إلاّ أنّ أفكاري مشتّتة ، وكلّ كلام في حضرة الموت هو في اعتقادي ثرثرة وهذيان . فالصمت أبلغ ما يقابَل به الموت . لذلك جاءت الكلمة التي ارتجلتها مفكّكة الأوصال . ولو انّها كانت غير ذلك لعلقت منها بذاكرتي بعض المقاطع أو العبارات . ولكنّني لا أذكر منها حرفاً . وكلّ ما أذكره هو أنّني تكلّمت .

في مساء ذلك اليوم ودّعنا ماريانا شقيقة جبران وودّعت ماري هاسكل التي لقيتها لأوّل مرّة في المأتم وانطلقنا إلى محطّة القطار . وكانت قد رافقتنا من نيويورك ، ودون دعوة منّا ، سيّدة أميركيّة تدعى بربارة يونغ . وهي شاعرة مغمورة كنت قد تعرّفت إليها قبل ذلك عند جبران . وهي التي سبق وأبلغتني بواسطة سلّوم مكرزل صاحب مجلّة « العالم السوري » الإنكليزيّة عن وجود جبران في المستشفى . وهذه السيّدة تخلّفت عنّا لتبقى بضعة أيّام في ضيافة ماريانا .

واتفق أن بلغنا المحطة قبل موعد القطار بربع ساعة . فرحنا نتمشّى على الرصيف ريثما يأزف الموعد . ونحن كذلك إذا بفتاة تقترب مني وتسألني باحتشام إذا كان لا يثقل عليّ أن أتحدّث وإيّاها عن جبران . فهي من المعجبات به ، وقد طارت من نيويورك إلى بوسطن لتحضر المأتم . ورحنا نتحدّث . وتابعنا الحديث في القطار . وعندما بلغنا نيويورك طلبت إليّ أن أعطيها عنواني ورقم تلفوني . ففعلت . وسأدعو هذه الفتاة « هيلدا »

بعد يومين جاءتني برقية من ماري هاسكل تسألني فيها أن ألاقيها في

محطة القطار . فذهبت لملاقاتها . وها أنا أروي بعض ما كان بيني وبينها للتدليل على صفات فيها تندر اليوم في النساء . من ذلك انّها عندما نزلت من القطار وفي يدها حقيبتها الثقيلة ناديتُ في الحال حمّالاً ليأخذ منها الحقيبة فأبت إلاّ أن تحملها بيدها . وكان عذرها في ذلك أنّ تكليفها الحمّال عملاً تستطيع أن تقوم به هو إهانة للحمّال حتّى وإن دفعت له أجراً . فمن العيب أن تحمّل الناس أثقالك ما دمت قادراً على حملها . وعندما دعوتها لتناول الفطور في مطعم محترم ضمن المحطة أبت أن تقبل دعوتي وآثرت أن نتناول فطورنا في مطعم آخر يقوم كل واحد فيه بخدمة نفسه ، فيأخذ طبقاً واسعاً ويختار ما يشاء من الأصناف المعروضة أمامه ، ومن بعد أن يدفع ثمنها ، يحملها إلى طاولة ويجلس يأكلها على مهل .

وانتهى الفطور ، وكانت تريدني أن أرافقها إلى محترف جبران . ولم يكن بدّ من تاكسي . فلم تسمح لي أن أحمل حقيبتها من المطعم إلى التاكسي . وعندما بلغنا المحترف وحاسبت التاكسي حاولت أن تدفع لي نصف المبلغ . إلاّ أنّ ذلك كان فوق ما أتحمّله . فرفضتُ ورضختْ — ولكن بشيء من الاحتجاج . قد يحمل القارىء مثل تلك التصرّفات من قبل ماري هاسكل على محمل البخل . أمّا الحقيقة فهي أن تلك السيّدة كانت من التواضع والبساطة والصدق والشعور بالكرامة الإنسانيّة بحيث أنّها كانت ترى غضاضة في أن تحمّل المرأة الحديثة أثقالها للرجل ما دامت قادرة أن تحملها بنفسها . وكانت ترى أنّ إنفاق الدولار حيث يكفي نصفه أو ربعه هو ضرب من البطر الذي لا مبرّر له ، حتّى لامرأة ثريّة مثلها .

تحدّثنا ، أنا وماري هاسكل ، وتحدّثنا طويلاً جدّاً عن جبران وعن علاقتها به منذ التقته في أوّل معرض أقامه لرسومه وحتّى وفاته ، وعمّا كان بينه وبين ميشلين . فأفضت إليّ بأخبار كثيرة نشرت بعضها ، وبعضها

كتمته . وقد كنت أشعر ، وهي تروي لي ما روته ، أن الصدق يقطر من صوتها وعينيها وإشاراتها مثلما يقطر من كلّ كلمة من كلماتها . إنّها امرأة لا تعرف الخبث ولا الكذب ولا المبالغة في ما تعمل وتقول . لقد كان آخر اتّصال لي بها على أثر صدور الطبعة الانكليزيّة من كتابي عن جبران سنة ١٩٥٢ . فقد نشرت ماري هاسكل يومئذٍ عن الكتاب مقالاً مستفيضاً سداه ولحمته التقدير والاعجاب . وانقطعت من بعدها المراسلات بيننا . فما أدري أهي لا تزال من سكّان هذه الأرضِ ، أم انّها اليوم في الأرض التي سبقها إليها جبران .

إبّان خلوتنا الطويلة في مسكن جبران ومحترفه أخبرتني ماري عمّا دار بينها وبين بربارة يونغ بشأن المحترف . فقد طلبت هذه الأخيرة أن تنتقل إلى المحترف وتسكن فيه طيلة المدة المتبقّية من عقد ايجاره – أي من نصف نيسان ١٩٣١ وحتّى آخر أيلول من تلك السنة . وحجتها في ذلك أنّها بوجودها في المحترف تحرس محتوياته وتصونها من التلف . وسألتني ماري رأيي في الأمر . فقلت لا بأس من ذلك ما دامت هي – ماري – مضطرّة للعودة إلى زوجها وبيتها في ولاية جورجيا البعيدة . وقبل أن نغادر المكان عثرت ماري على محفظة للنقود مصنوعة من جلد الخنزير كانت قد أرسلتها إلى جبران هديةً في الميلاد . وكانت المحفظة لا تزال ملفوفة ومحفوظة في علبتها . وشاءت ماري أن أقبل تلك المحفظة تذكاراً منها . فقبلتها . وهي إلى الآن تقوم بوظيفتها في جيبي ، ولم أسمعها يوماً تشكو الارهاق والتخمة . كذلك أرادت ماري أن تقدّم لي عصا جبران وساعته وأشياء أخرى من مخلّفاته . فرفضت قائلاً إنّ مثل تلك المخلّفات يجب أن تحفظ لمتحف لا بدّ أن يقام في المستقبل لجبران .

في مساء ذلك اليوم رافقت ماري إلى القطار الذي أقلّها إلى بيتها في

جورجيا . وبعد يومين عادت برباره يونغ من بوسطن ، واتصلت بي تلفونياً لتدعوني إلى سهرة في المحترف . ثمّ كانت بعد ذلك اتصالات وسهرات . فرأيت أن لا نقتل الوقت بالحديث ، وأن نباشر العمل في جمع أوراق جبران وترتيبها . وفي الواقع بدأت في فرز بعض الرسائل من جبران وإليه . فعثرت على رسالة مني ، وهي المتعلّقة بمستقبل « السائح » والمدرجة في فصل سابق من هذا الكتاب . مثلما عثرت على رسائل من ميّ إلى جبران ومنه إليها . فوضعتها جانباً على أن أعود إليها في الليلة التالية . وعندما عدت فاجأتني برباره بقولها إنّها تلقت رسالة من ماريانا تسألها فيها أن نترك أوراق جبران وشأنها إلى وقت آخر .

وكنت قبل ذلك بقليل قد تلقيت كتاباً من ماريانا تشكرني فيه أحرّ الشكر على ما قمت به نحو جبران في وفاته وبعد وفاته . فأدهشني منها أنّها باتت تخاطب برباره يونغ بشأن أوراق أخيها ولا تخاطبني ، وأنّها لا تريدني أن أهتمّ بمخلفات أخيها . إلاّ إذا كان ما قالته لي برباره يونغ محرّفاً أو غير صحيح . وفي كلّ حال فالذي سمعته في تلك الليلة من برباره كان كافياً لحملي على نفض يدي من مخلفات جبران ، ومنع رجلي من أن تدوس أرض المحترف فيما بعد .

وهكذا ودّعت تلك « الصومعة » مثلما ودّعها جبران — أي وداعاً لا رجوع بعده . ودّعتها وفي النفس منها ذكريات عذاب . وفي القلب صلاة لا تنفكّ تمعن في الفضاء :

ارحمني يا الله !

بعد أسابيع قليلة بلغني أنّ برباره يونغ أقامت في المحترف معرضاً من رسوم جبران ، وجاءت بمصوّر أخذ عنها صوراً فوتوغرافية بحجم البطاقة البريدية ، وراحت تبيع الواحدة منها بثلاثة دولارات ! ثمّ لم تلبث

بعد ذلك أن نشرت كرّاساً أسود في ٤٠ صفحة بعنوان « هذا الرجل من لبنان » وقد دعته « دراسة » في جبران وطبعته في مطبعة « العالم السوري » لسلّوم مكرزل . وهذه « الدراسة » هي ، في لبّها ، إعلان إيمان المؤلفة بأن جبران كان من « أنصاف الآلهة » الذين يشرّفون الأرض من حين إلى حين باتخاذها ميداناً لأعمالهم ومنبراً لأقوالهم . ولقد حشتها الكاتبة بمخرقات تدّعي أنها استقتها مباشرة من جبران . منها أنّ سلالة جبران بلجهة أبيه وبلجهة أمّه كانت من الثروة والجاه والنفوذ والثقافة على جانب عظيم ؛ وأنّ جبران انشغف بليوناردو دافينشي وهو في الرابعة من عمره ؛ وأن جدّه لأبيه اغتاظ مرّة من رسالة حملها إليه رسولٌ من مطران فقال للرسول : « بلّغ سيادته أن سوريا هي أعظم مقاطعات الامبراطوريّة العثمانيّة ، ولبنان هو تاج سوريا ، وبشرّي هي أجمل درّة في ذلك التاج ، وأسرة جبران هي ألمع أسرة في بشري . وانّني عميد تلك الأسرة وهامتها » . . .

وهكذا بات جبران أسطورة ولما يكد جثمانه يستقرّ في لحده .

هيلدا

هي الفتاة التي ورد ذكرها في كتابي عن جبران [1] وفي الفصل السابق من هذا الكتاب . عندما التقيتها لأوّل مرّة على رصيف المحطة في بوسطن بدت لي بين العشرين والخامسة والعشرين . شعرها الأسود المجزوز كثيف ومجعّد ومنفوش ، وهي لا تنفكّ تردّه عن جبينها تارة بيدها ، وطوراً بانتفاضة من رأسها إلى الوراء . في عينيها السوداوين شرار ودهشة ، وفي حركاتها العصبيّة قلق وبلاجة . تتسابق الكلمات من فمها ، وتكثر حركاتها عند الكلام . لا هي بالبدينة ولا بالهزيلة . أمّا قامتها فأقصر بقليل من المستوى المألوف في النساء .

بعد عودتنا من بوسطن بيومين أو ثلاثة أيّام خاطبتني هيلدا بالتلفون تسألني إذا كان بالإمكان أن تمضي السهرة معي وفي مسكني . فأجبتها بالإيجاب . وكان معظم حديثنا في تلك السهرة عن جبران ، وعمّا كان بينها وبينه . وتكرّرت زياراتها لي . وضاقت الشقة بين الزيارة والزيارة وتفرّعت أحاديثنا ، فما بقيت تذكر جبران إلاّ نادراً . وكان يستهويها أن تتحدّث إليّ في أمور الروح وما خفي منها عن الحواس ، وفي شؤون المدنيّة المستهترة بقيم الفضائل النفسانية ، والمنجرفة بتيارات عنيفة من الجشع والطمع والنفاق ، والركض وراء المال وما يشتريه المال من ملذّات رخيصة هي في الواقع سموم للروح والجسد معاً . وكنت في جميع سهراتنا وأحاديثنا التزم معها أقصى حدود الحشمة والعفّة . فكأني وإيّاها أخ وأخت .

---

١ انظر « جبران خليل جبران » الطبعة الثالثة ، ص ٢٨٣ .

وكانت ليلة رأس السنة في الحادي والثلاثين من كانون الأوّل ١٩٣١ . وليالي رأس السنة كانت ، في الغالب ، ليالي يطيب لي أن أمضيها وحدي ، وفي عزلة تامة عن الجنون الذي يركب معظم الناس فيها ، فيمضون يصخبون ويضجّون ويعربدون ، ويتهافتون على الملاهي والمقاهي والمطاعم والمقامر لعلّهم ينسون فيها أنّهم بشر ، وأنّهم مطالبون بأكثر من حشو بطونهم وجيوبهم ، وتخدير رؤوسهم . وقد نظمت في ليلة من تلك الليالي قصيدة بالانكليزيّة دعوتها « ندبة رأس السنة » . وفيها أنعى على الناس سخفهم إذ هم يبتهجون بدورة تنهيها الأرض حول الشمس وأخرى تبدأها . فأقول لهم في جملة ما أقول :

« ولكن ، ما شأني مع الأرض — أرضكم ،
والسماء — سمائكم ،
وأنا ما برحت ، ولن أبرح ،
هوًى جائشاً في خضمّ الوجود
الذي لا تحصره أرض ولا سماء ؟ . .
ألا أغرقوا قلوبكم العطشى إلى النسيان .
أمّا أنا
فلن أغرق قلبي النشوان
واليقظان .
ألا ليتكم تصمّون آذانكم ،
ولو لحظة ،
عن هرجكم ومرجكم
وتفتحونها لولولة الأرض
وعويل أبناء الأرض .

فقد تشتاقون عندئذ
ولادة جديدة ،
لا سنة جديدة ! »

في تلك الليلة طلبت إليّ هيلدا أن تمضي السهرة معي . فلم أردعها . وإذا بها تأتيني وفي حقيبتها قنّينة من الوسكي . وكان منع المسكرات لا يزال على أشدّه ، وصنع الوسكي وتهريبها يُعَدّان من أعمال البطولة . وكانت الأنواع المصنوعة والمهرّبة ممّا يؤذي الذوق والصحة بالسواء . ولحظت شيئاً من الاضطراب في حركات الفتاة وحديثها . وفهمت معناه . ولكنني تظاهرت كما لو كنت لم ألحظ ولم أفهم . وعندما أوشك الليل أن ينتصف نظرت إلى الساعة على معصمها ، ثمّ إليّ ، وقالت :

— ها هي السنة الجديدة توشك أن تطلّ علينا . أفلا تريد أن نستقبلها ؟

قلت : وكيف تريدين أن نستقبلها ؟

قالت وفي صوتها الكثير من التردّد والخجل :

— بقبلة . . . إذا سمحت .

ولم أشأ أن أكسير خاطرها فقبّلتها قبلة عفيفة على جبينها . وقلت :

— لتكن هذه تذكاراً لك مني . وماذا بعد القبلة ؟

— كأس من الوسكي . وهذه الوسكي التي جلبتها معي هي من صنع أحد الجيران . ولا بأس بها .

وسكبتْ كأسين وناولتني واحدة منهما . وعندما ذقتها وضعتها جانباً وقلت إنّني لا أستطيع شربها . أمّا هي فجرعت ما في كأسها دفعة واحدة . وراحت بعد ذلك تسكب لنفسها وتشرب الفينة بعد الفينة لعلّها تتغلّب على ما بها من خجل أمامي أو احترام لي ، فترمي نفسها بين ذراعيّ وتستسلم لي بكليتها ، فأطفىء الشهوة المشبوبة في دمها . ولكنّني ، في تلك الدقائق

الحاسمة ، حسبت أيّ تراخٍ مني خيانة لنيونيا ، وانزلاقاً إلى درك ما كنت أريد أن أنزلق إليه . فكبحت نفسي بإرادة من فولاذ ، ووجدت لذّة في تغلّبي على نفسي وفي ما سيكون لتلك الغلبة من أثر طيّب في نفس الفتاة التي بين يديّ وفي حياتها من بعد أن تصحو من سكرتها .

وعندما رأيت أن الفتاة تمادت في الشرب إلى حدّ انّها لم تبقَ قادرة على العودة إلى بيتها البعيد وحدها حملتها في تاكسي إلى أقرب فندق واكتريت لها غرفة وتركتها تبيت ليلتها هناك . وفي الصباح وجدت رسالة بخطّها تحت بابي تستغفرني فيها عمّا بدر منها وتقول إنّها ليست حرية فيما بعد أن تنظر إليّ ، أو أن تمسّ يدي . ولكنّها عادت بعد أيّام لتشكرني وتشهد لي بأنّني سأبقى في حياتها نبراساً لا يخبو .

أذهلتني هيلدا بحلم روته لي بُعيد أن صمّمتُ العودة إلى الوطن . وكانت لا تعرف شيئاً عن تصميمي . فقد رأتني في ذلك الحلم وفي يدي معول أشقّ به الأرض . وعندما سألتني عن الذي أفعله أجبتها من غير أن ألتفت إليها ، ومن غير أن أتوقّف لحظة عن عملي :

« إني أشقّ طريقاً لي في هذا الجبل . »

وفهمتُ من جوابي أنّ الطريق الذي أشقّه هو لي وحدي ، وأنّها لن تسلكه معي ، وانّني بعد اليوم لن يصرفني عن شقّ طريقي حتّى النهاية أي صارف .

أدهشني ذلك الحلم لانطباقه كلّ الانطباق على أشياء في نفسي لم يكن يعرفها أحد . وهي انّني سأعود قريباً إلى لبنان وهناك سأشقّ طريقي إلى العالم الذي ما برحت أمني به نفسي منذ أن أدركتني التخمة من المدنيّة واتجاهاتها وتياراتها. وأدهشني فوق ذلك أنّني ، في تلك الليلة عينها. ، طلبت إلى هيلدا ، بسبيل التسلية والتفكهة ، أن تفتح التوراة بعهديها القديم والجديد ، وأن تضع

إصبعها على سطر من سطور الصفحة التي تنفتح لها ، فيكون ما في ذلك السطر بمثابة دليل على ما ينتظرني . وإذا بها تفتح الكتاب وتضع إصبعها على الآية التالية :

« ارجع إلى بيتك وحدث بما صنع الله إليك » (انجيل لوقا ، ٨–٣٩)

وعلى ذكر الأحلام أريد أن أروي هنا حلمين رأيتهما في تلك الفترة . أي قبيل مغادرتي نيويورك إلى لبنان . فقد كانت فترة غنيّة بالتلميح والإشارة إلى أنّني أصبحت على عتبة انقلاب كبير في حياتي . وإليك الحلم الأوّل :

رأيتني في ذلك الحلم على قمّة هضبة تشرف على نهر واسع ، هادىء ، جميل . وكانت الهضبة مكسوّة بالأعشاب الغضّة ، النديّة ، تتخلّلها أزهار بديعة من شتّى الأشكال والألوان والعطور . كنت على الهضبة وحدي . وقد بلغ انخطافي بروعتها وروعة الأعشاب والأزهار التي تكلّلها حدّاً آثرت معه أن ابقى جامداً مكاني مخافة أن تؤذي قدماي عشبة من تلك الأعشاب أو زهرة من تلك الأزهار . أمّا النهر القريب مني فكان يجري وكأنه لا يجري . وكانت ضفته الأبعد عني مجلّلة بأشجار لا أعلى ، ولا أجمل ، ولا أبهى . وهذه الأشجار كانت تبلغ منعطفاً في ضفة النهر عن يميني وتنتهي هناك . فلا أبصر منها أو من النهر بعد ذلك شيئاً .

من وراء ذلك المنعطف في النهر كانت تأتيني أمواج من الموسيقى الوتريّة ، كأنّ آلاف الكمنجات كانت تعزف في آن معاً ، وفي عزفها من القوّة والايقاع والانسجام والعذوبة ما لم تسمع نظيره أذن . فقلت في نفسي : ليست هذه جوقة بشريّة . إنّها ، من غير شكّ ، جوقة ملائكيّة . وأسكرتني الموسيقى ، والأعشاب ، والأزهار ، والأشجار ، والنهر ، والزرقة الصاخبة من فوقي ، والمدى الذي أنا فيه . فما بقيت أدري أفي السماء أنا أم على الأرض . وأسكرتني وحدتي في ذلك المدى البديع ، فرحت أفكّر في من عساني أختار

من خلاّني وأحبابي ليكون شريكي في جنّتي ووحدتي . وعندها أفقت من حلمي .

أمّا الحلم الثاني فقد أبصرتني فيه مستلقياً على سريري . وأمامي شجرة جذعها من المرجان ، وأغصانها من الياقوت ، وأوراقها من الزمرّد . ولكنّها قصيرة الأغصان ، قليلة الأوراق , وأبصرت على غصن من أغصان تلك الشجرة عصفورتين بحجم واحد ، وشكل واحد ، وألوان في منتهى التنويع والروعة والابداع . ورأيت تينك العصفورتين تفتحان منقاريهما معاً ، ومعاً تغنيان أغنية واحدة . وكانت الأغنية :

Dios, Dios, il Dios !

بهرتني صورة العصفورتين وأطربتني فأسكرتني أغنيتهما الغريبة التي ردّدتاها مرّات من غير أن تبدّلا في نبراتها نبرة واحدة . وبعد فترة طارت إحدى العصفورتين تاركة رفيقتها وحدها . وبقيت رفيقتها تردّد الأغنية إلى أن انتهى الحلم . وقد أفقت منه وصورة الشجرة والعصفورتين قد انحفرت في ذهني حفراً ، مثلما رسخت في ذاكرتي كلماتهما الثلاث ، واللحن الذي به كانتا تنغمّان تلك الكلمات . وما عليّ الآن إلاّ أن أطبق أجفاني لأبصر العصفورتين وأسمعهما كما أبصرتهما وسمعتهما في الحلم منذ ثمان وعشرين سنة . أمّا كلمة Dios فقد قيل لي إنّها تعني « الله » بالاسبانية .

كتمت أمر سفري عن هيلدا حتّى يومين قبل موعده . وعندما درَتْ بالأمر وعرفت أنّ عزمي كان نهائيّاً ، اربدّ وجهها ، وارتجفت شفتاها ، ثمّ أجهشت بالبكاء ، وأصرّت على أن تذهب إلى الباخرة لوداعي . فأقنعتها بالعدول عن إصرارها . وعندها سألتني إذا كنت أرضى أن تراسلني . فأجبتها بالإيجاب . وتودّعنا وهي تعزّي نفسها بأنّنا سنعود فنلتقي يوماً ما .

آخر الشوط

الفصل خريف . النهار فيض من الدفء والنور . والغابة التي نحن فيها ، كعليقة موسى ، تشتعل ولا تحترق . فلا دخان ، ولا شرار ، ولا نار ، ولا رماد . بل هنالك شجر تبدو أوراقه كما لو كانت ألسنة من نار ، وما هي من نار . إنها وجنات الشجر وقد صبغها سحر الخريف بألوان النبيذ والقرميد والجمر والذهب ؛ فبانت ، وهي ترتقص على أكفّ النسيم ، كما لو كانت تلتهب حزناً على ماضٍ أخضر لن يعود ، أو جزعاً من مستقبل مبهم لا مفرّ منه ، أو شوقاً إلى الانعتاق من ربقة الماضي والمستقبل . فمن يدري ماذا الذي تحسّه ورقة على شجرة إذ هي توشك أن تعود إلى رحم السكينة التي انبثقت منها برعماً أعمى في الرّبيع .

أنا و « نيونيا » جالسان على صخرة في وسط الغابة . رأسها على صدري وذراعي حول عنقها . فلا لساني يتحرّك ، ولا شفتاها تتحركان . ولا هي تدري ما يجول في خاطري ، ولا أنا أدري ما يجول في خاطرها . ولكنّ قلبينا يتناجيان دونما كلام ويتفاهمان .

والذي في خاطري كان يدور جلّه حول هذه المخلوقة الحبيبة التي رأسها على صدري : ماذا عساني أفعل بالعلاقة التي تربطني بها ، وكيف أوجهها ؟ إن فكرة العودة إلى الوطن أخذت تساورني أعنف فأعنف يوماً بعد يوم . فها نحن في خريف ١٩٣١ . وأخي نسيب يوشك أن ينال شهادته من الجامعة . وشهادته ستفتح له ميادين واسعة للعمل في بلاده . فالمهندسون الزراعيون في لبنان وسوريا قلّة . والمجال لتحسين الزراعة في البلدين فسيح جدّاً . ومتى عاد

أخي إلى لبنان وراح يعمل في حقل اختصاصه ، فلن يرفع عن عاتقي مسؤولية القيام بنفقاته وحسب ، بل سيكون عوناً كبيراً لوالديه وأخيه نجيب. وإذ ذاك فأيّ مبرّر يبقى لبقائي في أميركا ؟

أليس أنّني سئمت هذه المدنيّة الغارقة في العجاج الذي يثيره ركضها وراء أشياء وأشياء تبدو لي سراباً في سراب ؟ إنّ ما أفتش عنه لن أجده أبداً في ذلك العجاج ، أو في ذلك السراب . وسأجده في خلوة مع نفسي هناك — في حضن صنّين . هناك أستطيع أن أتعرّى أمام السماء — أمام الصخر — أمام النسائم والأشجار والعصافير — أمام وجداني . فأنزع عنّي جميع ما التصق بي من شوائب وأدران. وأفتح قلبي للنور . فلا يخذلني النور . وأجمع شتات نفسي فتعرفني نفسي وأعرفها . لقد طالت غربتي عنها وغربتها عنّي . والغريب عن نفسه غريب عن كلّ شيء .

ما لي وللملايين ههنا يلهب الدولار ظهورهم بالسياط ، فتسيل دماؤهم ؛ ولكنّهم يلحسون ما سال من دمائهم ، ويتلمّظون بما يلحسون ، ثمّ يستأنفون الركض ، وغير الموت لا يدركون ؟ ما لي وللملاهي التي يخلقها لهم الدولار لينسيهم ما هم فيه من عنت وبؤس وفراغ وسوء حال ؟ فمواسم للبايسبول . ومواسم للفوتبول . ومواسم للمصارعة والملاكمة . ومواسم للانتخابات . ومواسم للاصطياف والإشتاء. وإعلانات تُسيل اللّعاب عن أفخم السيّارات، وأثمن المجوهرات ، وأمتع السّهرات والرحلات والروايات ، وأحدث الأزياء والاختراعات ،وأندر الفرص لكسب المال والملذات. ناهيك بالأعياد وما يرافقها من هرج ومرج ؛ وبالفضائح والإشاعات ؛ وبالصراع بين الطبقات والشركات؛ وبالمحاكم وما في المحاكم من مهاترات ومداورات ؛ وبالمعابد وما في المعابد من رياء وتمويه ؛ وبالمدارس وما في المدارس من تخدير وتضليل .

ههنا يحتال القوم حتّى على الزمان ، وحتّى على الإرادة الكلية التي تتخذ

من الزمان منفّذاً لأحكامها ! « فيضمنون » لك جسمك ضدّ المرض والتفكّك والانحلال ، ويضمنون جميع ما تملك ضدّ التلف والسرقة والأعاصير والنار ، وضدّ الزلازل والنوازل ؛ وذلك بكيت وكيت من المال . ويضمنونه لا حبّاً بك ، بل شغفاً بالدولار . ولكنهم لا يستطيعون أن يضمنوك ضدّ الحزن ، والغضب ، والشكّ ، والقلق ، والسأم ، وأوجاع القلب والفكر والروح .

بلى . بلى . إن روحي لفي أمسّ الحاجة إلى الاستحمام في عزلة ليس للدولار فيها مثل ذلك السلطان ، ولا الناس في زحمة ولا زحمة يوم الحشر . وتلك العزلة لن أجدها إلاّ في كنف صنّين . ولكنّ هذه المخلوقة التي تطوّقها ذراعي ، ويستريح رأسها على صدري ، ستختنق في تلك العزلة . إنّها تؤثر العيش في العجاج الذي أختنق أنا فيه . فكيف أوفّق بين عجاجها وعزلتي ؟ أم أنّها لن تطيق العيش إلاّ بجانبي — ولو في جهنّم ؟

ربّي ! ما هذا ؟ إنّها تبكي . ألعلّها قرأت ما كان يدور في خاطري ؟

— نيونيا !

ولكنّ نيونيا بغير الدمع لا تجيب . ماذا دهاها ؟ ألعلّني أسأت إليها بشيء ؟ إنّها غريبة الأطوار ، مرهفة الحسّ . وسرعان ما ينقلب فرحها ترحاً ، ورضاها غضباً لكلمة بريئة كانت تريدها أن تقال بغير اللهجة التي قيلت بها ، أو أن لا تقال . ولكنّنا كنّا صامتين .

— نيو — نيا ! !

عبثاً أناديها . عبثاً أهزّها ، ثم آخذ رأسها بين يديّ وأمسح دمعها بشفتيّ .

— نيو — نيا ! ! !

إنها تنشج وترتجف ، والدمع يترقرق على خدّيها ساخناً ، مدراراً ؛ وكأنّ شللاً حلّ بلسانها . ألعلّها فُجعت حديثاً بعزيز من ذويها — بأبيها ؟ بأمها ؟ وشاءت أن تكتم عنّي الخبر كيلا تُفسد عليّ حلاوة هذه النزهة ؟

إذن ، دع الحزن يا ميشا يأخذ نصيبه من دموع العين والقلب .

لبثت دقائق خلتها ساعات أتوقع جواباً فلا ألقى غير الدمع من جواب . وأخيراً جاءني الجواب :

— ميشون . . . ميشونيو . . . ميشونتشيك . . . أنا متزوجة — وخنقتْها العبرات من جديد .

متزوجة ؟ ! ولكنني عرفتها ، أول ما عرفتها ، باسم « مِس » — الآنسة — فلانة . وبذلك الاسم يعرفها جميع أصحابها ، وبه كانت توجّه دعواتها إلى الحفلات التي تحييها في محترفها . وبه مسجّل رقم تلفونها وعنوانها في دليل التلفون .

كنت أعرف أن بعض المتطرّفات من النساء في أميركا أخذن يطالبن بحقّ المرأة في الاحتفاظ باسم أسرتها حتّى بعد الزواج . فتبقى تُعرف به لا باسم زوجها . وكنت أعرف أن أهل الفنّ كانوا أكثر الناس تفلّتاً من العرف والتقليد ، ولكنني لم يخطر في بالي قطّ طوال المدة التي عرفت فيها « نيونيا » أنها كانت مرتبطة برباط الزواج . ولكم أذهلني أن أعرف أنّ زوجها لم يكن غير ذلك الشاب الإيطالي الذي كان أحد مرافقَيْها الدائميْن ، وكنت أكنّ له أصفى المودة . ولم ألحظ مرة واحدة أنّه كان ينظر إلي إلاّ بعين المودة والاحترام . ومن الأكيد أن ما بيني وبين « نيونيا » لم يكن بخافٍ عليه . وإذن فما معنى دموع « نيونيا » بعد أن مرّ على علاقتنا نحو السنتين ؟

الجواب صريح . إنّ تلك العلاقة باتت تؤذي زوجها في الصميم . ولكنه ، من فرط حبّه لزوجته ، كان يؤثر أن يتحمّل الأذيّة صامتاً على أن تبدر منه أيّ بادرة تنفّر زوجته منه . كأن يطالبها « بحقوقه » الزوجية . والزواج في نظر الاثنين كان تفاهماً وتجانساً قبل أن يكون قضيّة « حقوق »

تمنحها سلطة مهما يكن مصدرها . ولأنّه كان على جانب كبير من دماثة الخلق ، ومن الصدق والدعة والذوق ، فلن تندّ عنه كلمة أو إشارة أستدلّ منها على أن الصلة القائمة بينه وبين « نيونيا » كانت أكثر من صداقة وتقارب في الميول الفنيّة . ولو أن الأمر كان على عكس ذلك ، وكان لي أن أشتمّ من تصرّفه وتصرّف « نيونيا » معي أنهما زوج وزوجة لما تماديت أبداً في علاقتي مع « نيونيا » إلى حدّ ما تماديت .

ولكن ما تمّ قد تمّ . وقد بلغ شغاف القلب من الجانبين . وها هي دموع نيونيا المدرارة تستنجدني . إنّه ليؤلمها أشدّ الألم أن تسبّب لزوجها أيّ ألم . ويؤلمها حتى الموت أن تمزّق قلبها بيدها . ويؤلمني أن يتألم اثنان بسببي ، وأنا لست أريد لأيّ منهما إلاّ الخير . فأين المخرج ؟

ـــ لنفترق يا نيونيا .

فتجيبني نيونيا بوابل من الدمع . ثم تستجمع قواها لتقول :

ـــ ذلك فوق طاقتي . الموت خير من حياة لا أراك فيها ولا أسمعك ولا أشمّك .

وبعد دفقة سخيّة من العبرات المحرقة :

ـــ سأحاول . . .

ونفترق على أن لا نلتقي فيما بعد .

مسؤولية ظننتها انتهت

بعد أن أبلّ أخي نسيب من مرضه واستردّ عافيته عاد يستعدّ لامتحاناته النهائيّة ، وعاد إلى التفكير الجدّي في الحياة وأسرارها . وكتب إليّ في ذلك فأجبته جواباً فيه شيء من التبسّط والإسهاب . ثم جاءني منه أنّه أحبّ فتاة فرنسية من نانسي ، وأنّه يبغي الاقتران بها قبل أن يغادر فرنسا نهائياً إلى لبنان . وها أنا أنشر بعض رسائلي إليه في تلك الفترة إذ أن فيها ما يدلّ القارىء على نظراتي ومعتقداتي في ذلك الزمان . وهي نظرات ومعتقدات لا يزال جانب منها يرافقني حتّى اليوم .

نيويورك ، ٢ آذار ١٩٣١

« . . . ألا بارك الله في « اعوجاجك » الذي تطلب إليّ أن أقوّمه ! فما اعوجاجك هذا إلاّ الدليل على أنّك خطوت أول خطوة في السبيل القويم — سبيل الشكّ ؛ فالتمحيص ، فالهداية . وكلّ ما أقوله لك الآن : لا تكن لجوجاً . وغالِبْ شكوكك بصبر . فلا بدّ من أن تتغلّب عليها . إذ ليس الشكّ من الحالات التي يمكن للفكر أن يقف عندها ويرتكز عليها . إن هو إلاّ دافع للفكر على التفكير .

إنّك عندما تسأل نفسك « مَن أنا ؟ » تحدّد لحياتك غاية ما أرفع ، ولا أجمل ، ولا أنبل منها غاية . ألا وهي الجواب على ذلك السؤال . ولأن « أنا » مرتبطة بكلّ ما ظهر وما خفي من الكون فمعرفتك « أنا » هذه هي المعرفة القصوى — معرفة الكون . لذلك كان سقراط يقول : « اعرف

نفسك » ، جاعلاً هذه المعرفة أساساً لكلّ معرفة .

أمّا إذا سألتني كيف الوصول إلى معرفة « أنا » فأقول لك : بالتفكير والتأمّل ، مع الإيمان بأن الفكر الذي يسأل « مَن أنا ؟ » هو عينه قادر على الوصول إلى الجواب . إنما الخطأ الذي يرتكبه اكثر الناس ففي اعتقادهم أنّ الجواب يجب أن يكون ابن ساعته ، أو ابن عامه . ناسين أن معرفة كهذه المعرفة لا تُنال بسهولة . وأنّنا قبل أن بلغنا درجة الانسانيّة ، وصار لنا فكر يسأل « من أنا ؟ » قطعنا أجيالاً لا تحصى . فليس اليوم مَن يقول لك إنّ الانسان ابن خمسة أو ستّة آلاف سنة إلاّ عميان البصر والبصيرة .

لكلّ فكر سبيله في المقارنة والاستنتاج . فسبيل العالِم هو درس كلّ ما يقع تحت حواسّه وضبطه وتبويبه والمقارنة بين أجزائه ومجموعه للوصول إلى قاعدة واحدة ، أو سنّة واحدة تشمل ما تشابه ، وتميّز بين ما تخالف . وسبيل الشاعر هو العاطفة التي يقودها الخيال الذي لا يكتفي بالحسّ الخارجي بل يتوكّأ على الحسّ الداخلي . وسبيل الفيلسوف هو التفكير في جوهر الأمور لا في ظواهرها ..وسبيل النبيّ هو الباصرة الباطنيّة التي لها وثبات كوثبات البرق . فهي تنير في طرفة عين ما ليس يكشفه بحث العالِم في ألوف السنين . وإن شئت فقل هي « قادوميّة » . وكلّ هذه السبل تؤدّي ، على حدّ قول المثل الدارج ، إلى الطاحون — إلى الحقيقة .

لست تسمع في هذه الأيام إلاّ عالِماً بعد عالم يجاهر بأن العلم وحده ، كما عرفناه حتّى اليوم ، قاصر عن إدراك الحقيقة . لأنّه يحصر جهده في المحسوسات . وكلما زاد تعمّقاً فيها اتّضح له أن وراء المحسوسات جوهراً غير محسوس ، لا يُدرَك إلاّ بالفكر المجرّد لأنّ طبيعته هي من طبيعة الفكر أي غير محسوسة . وبكلمة أخرى ، عندما يبلغ العلم « طرف الحبل » سيراه واقفاً أمام قدرة لا يطالها المكروسكوب ولا التلسكوب . فيحار فيما يسمّيها.

إن هو سمّاها « الله » فكأنّه أقرّ بافلاسه واندحاره، واعترف بالغلبة للدين الذي كان يسخر به أمس . وإن لم يعطها اسماً فهو لا يعرف كيف يقف تجاهها ، وكيف يحدّث عنها . لذلك كثرت الأسماء . فمن قائل إنها « قوة » . ومن قائل إنها « إرادة » . ومن قائل إنها « ناموس » . وعندي أن كلمة « الله » أوفى بالغرض . فهي جميلة ورهيبة وشائعة على ألسنة الناس . ولكلّ إنسان أن يفهمها على قدر ما أوتي من الفهم . فمن شاء أن يجعل لإلهه مقرّاً في مكان يدعوه السماء ؛ وأن يُلبسه كلّ صفات البشر من محبة وبغضاء ، وغضب وفرح ، وانتقام وثواب الخ — فليكن له ذلك . فهو حدّ إدراكه اليوم . أمّا أنا فإلهي لا يعاقب ولا يثيب . ولا يفرح ولا يزعل . ولا يحقد ولا ينتقم . ولا ينحصر في شيء ، أو في مكان أو زمان . فهو كلّ شيء وفي كلّ شيء . هو الجوهر الواحد الذي تتعدّد مظاهره المحسوسة وتتبدّل . أمّا هو فلا يتعدّد ولا يتبدّل أبداً . وإن شئت أن تشبّهه بما يقابله في الجوهر فأقرب ما يشابهه الفكر .

أنت تعبّر عن أفكارك بكلمات وحركات وأعمال كثيرة . تلك مظاهر فكرك وليست فكرك . إنّها تتغيّر وتتبدّل . أمّا فكرك الذي يخلقها فهو هو . ولعلّك من هنا تفهم المقصود بـ « الكلمة » في أول إنجيل يوحنا : في البدء كان الكلمة الخ . فالكلمة أو الـ Logos هي أول مظهر من مظاهر الفكر . هي الإرادة المتجسّمة . هي قول الفكر « كُنْ ! » . هي بدء الخليقة .

ليس قصدي من كلّ هذا أن « أرشدك » . أو — كما قلت — أن « أقوّم اعوجاجك » . بل أن أفتح لفكرك آفاقاً قد لا تخطر لك . فأنت في بدء ثورة فكرية . وعليك عندما يبدو لك أنّك قد تفحّصت كلّ ما في الكون أن تفكر أنّه قد يكون هناك بقع كثيرة لم تعثر عليها . بل عوالم كثيرة لم تحلم بها ، وسبل عديدة لم تسلكها . وها أنا أهديك إلى بعضها دون أن أقول لك هذا

صحيح ، وهذا خطأ . لأني أوثر لك أن تهتدي بفكرك إلى ما تحسبه صحيحاً أو خطأً على أن تقترض منّي صحيحي وخطإي .

مسألة الألم : أتعرف أن ملايين من الناس يعتقدون أن حياة الانسان لا تبتدىء في المهد ولا تنتهي في اللحد ؟ وأن كلّ إنسان على وجه الأرض اليوم كان إنساناً قبل اليوم على هذه الأرض ؟ فمات وعاد إليها . ثم مات وعاد إليها . وسيموت ويعود إليها . ويظلّ يموت ويولد إلى أن يتغلّب على الشرّ الصادر عن الجهل . وإذ ذاك لا يبقى له من حاجة إلى الأرض وحياتها ، فالحياة الأرضية في نظر أبناء هذا المذهب هي بمثابة مدرسة ليست مدّة الحياة المعلومة كافية لإنهائها . والأستاذ الأكبر في هذه المدرسة هو الاختبار الشخصي . هذا المذهب يقول إن كلّ فكر يولد من نوعه ، وكلّ عمل يعود على العامل بمثله . إن خيراً فخيراً . وإن شرّاً فشرّاً . فألم اليوم قد يكون نتيجة لشرّ كان في الأمس . وأفراح هذه الحياة وأتراحها هي الأجرة التي نتقاضاها عن أفراح وأتراح سبّبناها لسوانا في حياة سابقة أو في هذه الحياة . فسنّة التوازن في الحياة تقضي على كلّ شيء ، وكلّ مخلوق أن يحصد ما يزرع . هذا بحث طويل أعطيك منه « رأس الشمّوط » . حتى إذا شئت ، جعلت منه مجالاً جديداً يسرح فيه فكرك :

الخير والشر : ليس في الله خير ولا شرّ . وما هما إلاّ في فكر الانسان . ألست ترى كيف أن الفكر يسيطر على الجسد والإرادة ؟ ألست ترى كيف يهدأ أشدّ الوجع إذا تخدّر الفكر أو نام ؟ إذاً لو كان لك أن تصرف فكرك عن كل ما من ورائه وجع ، أو فيه شر ، إلى كلّ ما هو خير وجمال وصلاح لما شعرت في حياتك إلاّ بالخير والجمال والصلاح . لذلك قام في الناس مَن علّموا بأن على الإنسان أن يدرّب فكره ويروّضه على الطاعة . ولقد سنّوا لذلك القوانين ، كما سنّ الذين يهتمّون بتمرين الجسد قوانين لتمرين الجسد .

ولذلك كان المسيح يحثّ تلاميذه على الصوم والصلاة . فما القصد من الصوم إلاّ تذليل الجسد وتقوية الفكر . وما القصد من الصلاة إلاّ صرف الفكر إلى الصلاح . ولذلك قال : « اطلبوا تجدوا » . أي اصرفوا أفكاركم إلى الخير الذي تطلبونه تحصلوا عليه لا محالة . لأنّ الفكر يولّد مما فيه . أمّا إذا صلّيت ولم تُستجب صلاتك فاعلم أن فكرك لم ينصرف بكليّته إلى ما طلبت . أو أن الذي طلبته ليس خيراً محضاً لك أو لسواك .

أراني قد توغّلت في الكلام . وما كان قصدي إلاّ القول إنّك مهما جُبت في عالم الفكر فقل أبداً في ذاتك إن هنالك عوالم أخرى كثيرة لم تهتد إليها . فالذي تراه الآن ليس بالنسبة إلى عالم الفكر الأوسع إلاّ كثقب الإبرة بالنسبة إلى الأفق .

سأكتفي الآن بهذه النتف التي أخشى أن تكون مشوّشة ومشوّشة . . . هل سيكون بإمكانك أن تقدّم امتحاناتك هذه السنة ، ومتى ؟ . . اذكر أن صحتك أهمّ من الامتحانات بما لا يُقاس . فأنت صحيحاً وبغير شهادة أثمن لنفسك ولسواك منك عليلاً بشهادة مهندس زراعي . . . »

كان قد جاءني من نسيب كتاب يخبرني فيه عن الحب الذي نشأ بينه وبين فتاة فرنسية ، وعن عزمه على اتخاذها رفيقة لحياته . ويروي لي « مصادفة » غريبة وقعت له مع عبارة في المزامير خطرت في باله قبل أن يكون قد سمعها من قبل . فكتبت إليه في ١٤ أيار ١٩٣١ :

« . . . إنّ كلمة « مصادفة » لمن الكلمات الخدّاعة التي يلجأ إليها الناس عندما يقعون في حيرة . فليس في الحياة من مصادفات على الإطلاق. بل كلّ ما يحدث فيها إنما يخضع لنظام السبب والنتيجة الذي لا تفلت منه ذرة رمل ولا شمس . هكذا ، فعبارة صاحب المزامير التي كانت مطوية في كتاب لم يتصل بعد ولا بحسّ واحد من حواسّك الخارجيّة لم تكن مطوية ، أو محجوبة ، عن حسّك الباطنيّ الذي كان متنبّهاً في تلك الآونة . فهي كانت

في الفضاء الأوسع . وإذ آنست منك حِساً واعياً طرقته . مثلما يكون شعاع الشمس في الفضاء فينعكس على صفحة الماء أو أيّ وجه آخر صقيل ، ويضيع في الظلمة حيث ليس ما ينعكس عليه .

كذلك الصوت يجوب الفضاء فلا تسمعه أذن إلاّ على مسافة معلومة . لكنك ، إذا كان لديك راديو ،.أو سمّاعة أدقّ من الراديو ، فانّ أذنك تلتقطه على مسافات شاسعات . ثم إن « الفضاء الأوسع » الذي يحفظ الصوت يحفظ الفكر كذلك . لأن للفكر كياناً محسوساً مثلما للصوت . وهو ينعكس عندما يجد صفيحة صقيلة تعكسه . وما التفاوت بين مدارك الناس ومشاعرهم إلاّ بقدر التفاوت في صفاء أرواحهم ومقدرتها على عكس أشعة الحياة ، أو الحقيقة ، أو الله .

فالهمجيّ في مجاهل افريقيا قد لا يعكس من الحياة في داخله إلاّ ما اتّفق مع حاجاته الجسدية البسيطة . . . في حين أن صفيحة كنفس أفلاطون — مثلاً — هي صقيلة إلى حدّ أنها تعكس ما لا يدركه الحسّ — إنها تعكس « روح » الأشياء ، لا الأشياء فقط . . .

تتناول النفس من « الفضاء » ، أو من خزّان الحياة العامّ ، ما أهّلت ذاتها لتناوله . فإذا سمعت نبيّاً كيسوع يحدّثك عن أبيه السماويّ ، وعن ملكوته ، فلا تتسرّع إلى الشكّ فيه . ولا ترجمه بالشعوذة والجنون . بل اعلم أنّ روحه كانت شفّافة إلى حدّ أنّها تناولت حقيقة « الآب » و « الملكوت » . . .

الفكر مغناطيس . لكنه لا يجذب إليه إلاّ ما كان من نوعه . . . وقوّة جاذبيّته تتوقّف على قوّته . مَن أدرك هذا السرّ وعرف كيف يروّض فكره ويوجّهه بكلّيّته إلى غاية واحدة فقد عرف سرّ الحياة . غير أنّ تذليل الفكر وحصره وإخضاعه للإرادة لَمن أصعب الأمور . . .

ليس عندي ما أضيفه إلى ما قلته لك سابقاً بشأن زواجك . لأنّي أعتقد أنّ هذه الأمور هي فوق مداركنا . . . فأنا ، من هذا القبيل ، أعتقد مع الكنيسة أن الزواج « سرّ » . فعليك أن تقترب منه كسرّ جميل ، وأن تفحص قلبك وفكرك فحصاً دقيقاً مخافة من أن تكون مدفوعاً بشهوة، أو بغاية وقتية . ومن ثمّ — وهذا في نظري مهمّ للغاية — عليك أن لا تخبّىء شيئاً ، وأن لا تخجل بشيء لكيلا تضع في أساس مستقبلك العائلي حتّى ولا حصاة صغيرة من الغشّ .

الحبّ يا نسيب هو قلب الحياة وجوهرها . هو الحقيقة . هو الله . وكلّ ما يُبنى عليه لا يتزعزع . وإذا رأيت معظم الناس — بل أقول كلهم — يتزاوجون اعتقاداً منهم أنهم مدفوعون بالحبّ ، ثم يقعون في التهالك والأوجاع الكثيرة ، فيعودون ينعون حظّهم ويقولون إن الحبّ « وهم » أو « خيال » أو اسم لغير مسمّى ، فاعلم أنهم طردوا الحبّ من قلوبهم بإدخالهم عليه شهوات لا تأتلف وإيّاه . وروح الحبّ هي نكران النفس من أجل الغير ؛ أو توسيع النفس إلى حدّ أن تراها في سواها .

ليكن ما تطلبه من الزواج أن تجعل زوجتك سعيدة ، لا أن تسعد أنت بها . وإذا ما اتخذت ذلك هادياً لك وجدت في نفسك مقدرة على الصفح والصبر واقتبال كلّ طارئة وعادية بصدر واسع ، وحلم جميل ، وجأش رابط . . . »

١٩ أيار ١٩٣٠

« . . . أجل. إن سوء الظنّ يجرح . لا سيما إذا كان من مصدر لا تتوقّع منه إلاّ الخير والمحبّة والثقة . غير أن في فهمك الأسباب التي أدّت إلى سوء الظنّ ما يخفّف من ألم الجرح . بل يدعو إلى المغفرة . فاذكر أن عالم

والديك وأخيك نجيب ، مع كلّ ما فيه من محبّة وطهارة ، عالم يكاد لا يتعدّى بسكنتنا . فنظره إلى العالم الأوسع نظر ضيّق ، محدود . والذي يشفع به هو إخلاصه ، وحسن نيّته، وتفانيه في سبيل ما يحسبه حقّاً وجمالاً . من أوهام ذلك العالم المحدود أن فرنسا بلاد عهر ودعارة وفسق . ولا أشكّ في أنّ والديك وأخاك وأختك ما فتئوا يصلّون من أجل سلامتك وطهارتك وخلاصك الروحي والجسدي من يوم دخلت فرنسا حتى اليوم . فلمّا فاجأتهم بخبر عزمك على الاقتران بفتاة فرنسيّة ، وبالأخصّ بعد أن أخبرتهم عن مرضك ، كان أول ما خطر لهم أنّك وقعت في أحبولة من أحابيل النساء الشيطانيّة . فهلعت قلوبهم خوفاً عليك . وذلك لعظم محبتهم لك .

أفلست ترى أنّهم ، حتى في سوء ظنّهم بك ، كانوا مدفوعين بشدة لهفتهم عليك ، وقوّة محبّتهم لك ولخيرك ، كما يفهمون الخير ؟ أوَلست ترى كذلك أنّك لم تكن حليماً ولا حكيماً عندما سمحت لكلماتهم أن تجرحك وتفعل بك فعل السمّ ، مع علمك أنّها صادرة عن لهفتهم عليك أوّلاً وجهلهم العالم ، لا سيّما عالمك الفرنسي ، ثانياً ؟ وعندي أنّك أخطأت كلّ الخطإ عندما أطلعت الفتاة على مضمون كتاب نجيب دون أن تُفهمها الفرق بين عقليّة فطريّة ، طاهرة كعقلية الوالدين ونجيب ، وعقلية كعقليّتك وعقليّتها . لأنّك بذلك قد جعلتها تنفر من أهلك . حتى إنّه إذا تمّ لك أن تربط حياتك بحياتها ستقترب من أهلك اقترابها من أعداء ريثما تتمكّن من تعديل أفكارها بهم بعد أن تدرسهم وتكتشف بذاتها كلّ ما فيهم من جمال روحيّ ، ومحبّة لك وللّتي أحببتها . . .

لا تنس أن الزواج ليس تزاوج أفكار وقلوب فقط . بل تزاوج أجساد كذلك . وأقرب الزواج إلى السعادة ما ارتكز على تجاذب فكريّ وقلبيّ وجسديّ ، لا على واحد من هذه فقط . . . »

٧ تموز ١٩٣١

« لقد استجليت من كتاب « سوزان » إليّ أشياء كثيرة جاء كلّها مصداقاً لما أخبرتني عنها . . . فهي من اللواتي إذا أحببنَ رجلاً سلّمنه كلّ ما في القلب والفكر ، ووضعن فيه كلّ إيمانهنّ . فكأنّه في نظرهنّ مثال الله على الأرض . فاحذر أيها الحبيب من أن تزعزع هذا الإيمان ولو بكلمة . بل اعمل جهدك لتكون لهذه الابنة مثال الرجولة والشهامة والإخلاص والتفاني . ولا تنسَ أنها ستقتلع نفسها من تربة نبتت فيها ، وتهجر حضن والديها واثقة كلّ الثقة أنها ستجد في حبّك تربة أحنّ من تربتها الأصليّة ، وحضناً أدفأ وأفسح وأبقى من حضن والديها . . . »

٢ شباط ١٩٣٢

« . . . إن ما قلتُه في جوابي إلى العزيزة سوزان عن إمكان سفري إليكم بعد شهرين أو ثلاثة هو أكثر من أمل . اللهمّ إذا لم يطرأ عليّ وعلى العالم ما يحول دون ما أنا عازم عليه . فالمثل يقول : نحن بالتفكير والله بالتدبير . وعلى كلّ فالغد قريب . وما تستّر عنّا اليوم سيظهر لنا بعد اليوم . اكتب إلى أن يأتيك منّي خبر بأن لا تكتب . . . »

كان أخي نسيب ، عندما وصلته الرسالة الأخيرة ، يسكن وزوجته في عاليه حيث كان يدرّس اللغة والآداب الفرنسية في « الجامعة الوطنية » . فما إن قرأ الرسالة حتّى حوّلها إلى أخيه نجيب وقد كتب عليها :

« . . . إني مرسل إليك كتاباً يحتوي على أجمل وألذّ ما في العالم من أخبار . وهو قدوم العزيز ميخائيل إلينا بعد شهرين أو ثلاثة . . . »

تصفية

أخطأت « نيونيا » الحساب ، وأخطأته أنا كذلك ، عندما حسبنا ونحن في تلك الغابة المشتعلة بألوان الخريف أنّنا سنفترق فلا نلتقي فيما بعد . فالشعلة التي في دمنا لم يكنْ من السهل أن نطفئها بكلمة مثلما تُطْفَأ الشمعة بنفخة . لذلك لم ينقض أسبوعان حتّى خاطبتني « نيونيا » بالتلفون لتقول بصوت تخنقه العبرات إنها لا تطيق الصبر على البعد عنّي فوق ما صبرَتْ ، وإنها تذوب شوقاً إلى الاجتماع بي ولو لساعة — ولو لدقيقة . وكان لها ما أرادت .

إلاّ أنّني ، وقد أشرف العام ١٩٣١ على نهايته ، أخذت أشعر بأنّ غربتي في اميركا تشرف ، هي الأخرى ، على نهايتها ، ففي نفسي ، وفي الظروف التي تكتنفني أكثر من دلالة على ذلك .

لقد جئت أميركا للدرس لا للكسب ؛ وكان في نيّتي أن أعود إلى بلادي حالما أفرغ من دروسي . ولكنّ الحرب عبثت بخطّتي . أو قل هي الحياة غيّرت خطّتي ، فدفعتني دفعاً في طريق الكفاح والتجارب . وما ذلك إلاّ لأنها كانت أبعد نظراً منّي في ما يختصّ بالعمل الذي هيّأتني له ، وفي العدّة التي لم يكن لي بدّ منها للقيام بذلك العمل .

أما الكفاح فأيسره ، وأمرّه في آن ، ذاك الذي بذلته في سبيل الدولار . وأشقّه ، وأحلاه في آن ، ذاك الذي بذلته في سبيل الكلمة وتحريرها من التدجيل والتضليل ، ومن التسكّع والتزلّف في دنيا العرب ؛ وذاك الذي قمت به في سبيل نفسي وشقّ طريق لها لا تكتنفه الظلمات والمخاوف في

عالم يبدو كما لو كان مليئاً بالمخاوف والظلمات ؛ وحسبه أن يكون الموت سيّداً من أسياده .

إن الكفاح في سبيل الكلمة لم ينته — ولن ينتهي . ولكنّ دور « الرابطة القلمية » فيه قد انتهى من بعد أن نقلَتْه إلى حيث ينبغي أن يكون — إلى ديار العرب ؛ ومن بعد أن خلقت له جنوداً في كلّ قطر عربي . واستئناف هذا الكفاح تحت سماء لبنان سيكون أحبّ إلى قلبي بكثير منه في مدينة صاخبة كنيويورك . كذلك الكفاح في سبيل النفس وشوقها إلى التطهّر والتعرّي والوصول إلى اليقين الذي يكشح عنها ظلمات الحواسّ ، ويعتقها من مخاوف اللحم والدم . ذلك الكفاح سيكون أسهل وأجدى في كنف صنّين .

ومن ثمّ فعلاقتي بنيونيا ستبقى تعذّبها وتعذّبني وتعذّب زوجها ما دامت قريبة منّي ودمت قريباً منها . أمّا اذا ابتعدت عنها فستغدو تلك العلاقة إشعاعاً صافياً في حياتها وحياتي ، وينبوع إلهام لي ولها . فالحبّ إذا صفا من أدران البشرة كان أجمل هبة من هبات الحياة .

أجل . إن كلّ ما في الجوّ يؤذن بانتهاء مرحلة من مراحل عمري . فأحلامي — وقد ذكرت اثنين منها — تنفتح على آفاق رحبة ومشاهد غريبة . وصدري يضيق أكثر فأكثر بالعيش في مدينة كنيويورك . ونفسي تتعطش اشد فأشدّ إلى الهدوء والصفاء والبساطة وتصفية حساباتها مع الماضي ، واستكمال عدّتها لمجابهة المستقبل . وها هو صاحب المتجر الذي أعمل فيه يشكو الخسارة من جراء الضائقة المالية المستحكمة في البلاد ؛ ومن طرف خفيّ يلمّح لي أنّه يفكّر في تخفيض نفقاته . وإذا بصديقي اسكندر اليازجي الذي كان يعمل له في الشرق الأقصى يكتب لي أنّه قرّر الاستقالة من عمله والعودة إلى نيويورك ليعود منها إلى الوطن . فأحذو أنا حذوه . وعندما يعود اسكندر أتفق وإياه على السفر معاً . ونحجز لنا غرفة مشتركة على ظهر باخرة

أميركية تبحر من نيويورك إلى بيروت في التاسع عشر من نيسان سنة ١٩٣٢ .

كان أول ما لفت نظري في تلك الغرفة عندما دخلتها سلّة كبيرة مليئة بالورد الابيض البديع ، ومعها بطاقة كُتب عليها ما يأتي :

« لم أجد ما أشيّعك به في يوم سفرك أفضل من هذه الورود . إنها نقيّة كقلبك .

هيلدا »

أمّا نيونيا فقد جاءت بنفسها تودّعني ومعها زوجها ورفيقهما الموسيقي . وقد بدأت تبكي قبل أن أقلعت الباخرة بنصف ساعة . وظلّت تبكي إلى أن لم يبق في إمكاني أن أبصر غير منديلها الأبيض يلوّح لي من على الرصيف .

تلك الدموع السخيّة كانت خير الخاتمة لعهد من حياتي أبحت فيه للمرأة قلبي فجمّلَتْه وقدّسَتْه ؛ وأبحت لها دمي فطهّرَتْه وما دنّسَتْه . ولو لم يكن قلبي ودمي في حاجة إلى قلب المرأة ودمها لما كان ما كان بيني وبين « فاريا » في روسيا ، و « بيلاّ » و « نيونيا » في أميركا . وهنّ النساء الثلاث اللّواتي لم أعرف في حياتي غيرهنّ معرفة الرجل للمرأة . والخبرة التي جنيتها من معرفتهنّ زادتني غنًى روحيّاً . وأحسب أنّي أغنيتهنّ على قدر ما أغنينني .

وتلك الورود البيض التي شيّعتني بها « هيلدا » كانت خير الفاتحة أفتتح بها عهداً من حياتي لا سلطان فيه للشهوة الجنسية على دمي . بل السلطان فيه للروح الذي يودّ أن يسمو بالرجل والمرأة إلى حيث يصبحان الانسان الكامل ، الموحّد ، والأقوى من أيّ شهوة .

كنت ، عندما اعتزمت العودة إلى لبنان ، قد كتبت إلى أخويّ في والا والا أطلعهما على عزمي . فجاءني من أديب كتاب مطوّل بالانكليزيّة يقول فيه إن اللاأنانية التي يحسبها الناس من أعظم الفضائل البشرية ، والتي لا ينفكّون يمتدحونها ، لم تكن ، في اعتقاده ، أكثر من كلمة في القاموس .

فكلّ ما يفعله الناس إنّما يصدر عن مصدر واحد هو حبّ الذات . فها هو يتفانى في خدمة أولاده وأمّ أولاده . ولكنه ، في الواقع ، يخدم نفسه . وهو إذا أحبّهم فانّما يحبّ نفسه فيهم . ولكنه ينتهي من ذلك إلى القول :

« غير أني عندما ألتفت إلى الوراء وأعرض كلّ ما فعلتَه وما أنت فاعله اليوم ، لا أستطيع إلاّ الاعتراف بانّ فلسفتي في الحياة فلسفة خاطئة . فها أنا لم أعرف في حياتي إنساناً واحداً تبلغ قامته الروحيّة حتى الكتف من قامتك . فأنت متنزّه عن حبّ الذات على قدر ما مكّن الله أيّ إنسان من التنزّه عن حبّ الذات . لقد كرّست حياتك للغير دون أن ترجو من ذلك أيّ ثواب ، ودون أن تلتفت إلى أيّ مرضاة غير مرضاة وجدانك . »

ورود هيلدا ، ودموع نيونيا ، وتلك الشهادة تأتيني من أخي الأكبر الذي لا يرسل الكلام على عواهنه ؛ ثم الشعور بأنّني أبرح الديار التي دخلتها منذ عشرين سنة وبعض السنة وليس في قلبي حسرة على أيّ شيء ، أو ضغينة على أيّ إنسان ؛ ثم رفقة صديق نادر بين الأصدقاء ؛ ثم الشوق إلى الحياة البسيطة ، الهادئة ، المطمئنة التي كنت أتوقّع أن أحياها في جوار صنّين — كل ذلك كان من شأنه أن يجعل الرحلة من نيويورك إلى بيروت متعة وأيّ متعة .

تركت اميركا وليس في جيبي من غناها الفاحش إلاّ خمسمائة دولار — فقط لا غير ! وما اللوم في ذلك عليها بل عليّ . فالدولار لا يغدق نفسه بوفرة إلاّ على الذين يتعبّدون له . وقد تبيّن لي أنّني ما كنت — ولن أكون — منهم . مثلما تبيّن لي من علاقاتي مع النساء أنّني لم أولد لأكون بعلاً لامرأة وأباً لعدد من البنات والبنين . فعملي في حياتي هو أكثر من تجديد النسل الذي يقوم به الملايين من الناس في كلّ يوم . إنّه تجديد الانسان بشقّيه — الرجل والمرأة . وهذا العمل لا يطيق لصاحبه أن يتروّج ضرّة عليه .

على أنّني إذا لم أغترف من دولارات أميركا إلاّ ذلك النزر اليسير ، فقد اغترفت من الخبرة المادية والروحيّة ما أحسبه زاداً لا يُثمّن بمال .ففي خلال السنوات العشرين التي عشتها هناك تيسّر لي أن أرافق الثورة الصناعيّة والعلميّة والفنيّة والاجتماعيّة في أعنف مراحلها .

في تلك الحقبة تحوّلت أميركا من دولة مستوردة إلى أكبر دولة مصدرة . ونشأت فيها المعامل نشوء الفطر . وبات البعض منها يستخدم آلاف العمال . وباتت الحركة العمّاليّة مارداً يُحسب له ألف حساب ، ولكلمته في الدولة وزن لا يوازيه غير الوزن الذي لكلمة أرباب المال والعمل . وحلّت الماكينة محلّ اليد البشريّة والدماغ البشري في الحقل ، وفي المكتب ، وفي البيت . فهي تزرع وتحصد ؛ وهي تحسب وتطبع وتسجّل ؛ وهي تغسل الثياب ، وتطهي الطعام ، وتنظف أدوات الطبخ والأكل . وتطوّرت وسائل النقل من سيارة « فورد » إلى أفخم أنواع السيارات ، فباتت أميركا من الأطلسي وحتّى الباسيفيكي شبكة هائلة من الطرق المعبّدة أحسن التعبيد بالاسفلت والاسمنت . ثم جاءت الطائرات . وأنا ما نسيت نشوة الفرح التي عمّت العالم ــ وأميركا بالأخصّ ــ عندما انتشر الخبر عن أن طائراً أميركياً كان أول من قطع المحيط من نيويورك إلى باريس في ٣٦ ساعة . ولا نسيتُ يوم صعدتُ إلى سطح البناية التي كنت أعمل فيها لأشهد قدوم أوّل « زبلّين » يقوم برحلة موفّقة من المانيا إلى نيويورك .

وفي تلك الحقبة كان ميلاد الراديو ــ أدهى وأدهش مولود تمخض عنه العقل البشري حتّى اليوم . ويا له من مولود ملأ الدنيا زعيقاً عند ولادته . فكأنّه من دنيا الجنّ أو العفاريت . فما كنت تسمع منه غير أصوات منكرة تهزأ بصفير الرّيح في الهاويات المظلمات . ولكنّه ما لبث أن تعلّم النطق والعزف والإنشاد . فراح يتكلّم كأحسن ما يكون الكلام ، ويعزف وينشد

كأحسن ما يكون العزف والإنشاد .

كذلك تم في تلك الحقبة اكتشاف القطبين ، وتمّ النصر للعلم المتفتّح في معركته مع الدين المترمّت . فقد حاولت ولاية من الولايات المتحدة أن تمنع بقوّة القانون تدريس نظرية داروين في مدارسها . ولكنها لم تحصد بعد حين إلاّ الخيبة من محاولتها . وتمّ للمرأة الحصول على حقوقها كاملة . فهي تَنتخب وتُنتخَب . وهي في القضاء ، وفي الكونغرس ، وفي التجارة والصناعة . ولأنها باتت تعمل وتكسب فلم يبقَ لديها من الوقت ما يكفيها للقيام بعملها وبخدمة بيتها ؛ فقد نتج عن ذلك نهج جديد في الحياة كانت أميركا السبّاقة إليه . فالمساكن تتقلّص في حجمها . والمطابخ تغدو معارض للمآكل المعلّبة . والصحون الصينيّة تتحوّل صحوناً من الورق المقوّى . ويغدو « السندويش » أحبّ « الأصناف » إلى المعد الجائعة لانّه أسهلها تناولاً وأقلّها كلفة من الوقت . فالسرعة هي كلمة السرّ في كلّ ميدان من ميادين الحياة .

حقاً إنها لبلاد المتناقضات هذه البلاد التي أودّعها من بعد أن بذرت فيها عشرين عاماً من عمري . فهي إذ تنمو عموديّاً بسرعة فائقة تتقلّص أفقيّاً بمثل تلك السرعة . والذي فعلته في خلال سنوات لم يسبق لأيّ دولة أن فعلت بعضه في خلال قرون وقرون . أليس أنها غزت العالم كلّه ـــ وبدون سلاح ؟ غزته ببضائعها واختراعاتها ودولاراتها . فبات « النمط الأميركي » النمط الأحبّ والأكثر انتشاراً في جميع أصقاع الأرض . حتى إنّ قمّة صنّين لا تخلو من آثار علكة ، أو فيلم فوتوغرافي ، أو علبة من بلاد العمّ سام !

ولكنها بلاد ليس للخمول وللكسل فيها من نصيب . فأكره ما تكرهه الجمود والقناعة والبلادة . وأحبّ ما تحبّه الحركة والطموح والابتكار . إنها تجري بسرعة . فهل تراها تدري إلى أين ؟ ولأن سرعتها قد انتقلت

بالعدوى إلى سائر أقطار الأرض فالسؤال حريّ بأن يوجّه إلى جميع أبناء الأرض :

إلى أين ؟

ترى هل يجيبني البحر ، أو يجيبني صنّين على ذلك السؤال ؟

سبعون . . .

المرحلة الثانية

فهرس الرسوم

للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهبِ الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories.

Copyright, 1991 by Mikhail Naimy

© *NAUFAL GROUP* S.A.R.L

NAUFAL BLDG. MAMARI Str. P.O.BOX 11-2161 BEIRUT-LEBANON
PHONE. 354898-354394. TELEX NAUSTN 22210 LE.

MIKHAIL NAIMY

SAB'ŪN

Story of a lifetime

Second Stage

SEVENTH EDITION



هـذا الكتاب

ليس أحب إلى قلوب القراء عامة من سيرة الأدباء والعظماء . وليس أحبّ الى قلب القارئ العربي خاصة من سيرة كتّابه المشهورين ، وأدبائه النابهين ، وأعلام تاريخه البارزين .

وأكثر ما تكون السيرة جذابة خالدة ، حين تروي حياة عظيم من العظماء ، وحين يسجّلها صاحبها نفسه بقلمه ، وحين يكون هذا القلمُ قلمَ كاتبٍ فنان ، ومفكرٍ فلسفي رائد ، يختصر في تجاربه تاريخ عصرٍ ، ومعاناة أمةٍ ، واتجاه حضارةٍ ، ويختصر في أسلوبه أروع أشكال البث ومناهج التعبير

و **سبعون** ميخائيل نعيمه ، في أجزائها الثلاثة ، هي ما يطمح الى مطالعته كل قارئ ، فهي سجل حافل لحياة صاحبها المديدة ، وتجاربه الإنسانية والكونية ، فضلاً عن أنها بريشته ذات البهاء ، والشجى ، والإقتدار الفني المتميّز .

إنه كتابُ كتبِ نعيمه ، وكتابٌ من كتب السيرة الرائعة في الخزانة العربية .

الناشر